
نقولا
زيادة
الأعمَالُ
الكامِلة
المسيحية والعرب

نـقولا زيَـادة

الأعـمَالُ الكامِلة

المسيحية والعرب

الاهلية للنشر والتوزيع

المحتويات

إصدار: الأهلية للنشر والتوزيع
بيروت ٢٠٠٢
بيروت، لبنان ـ الحمراء ـ بناية الدورادو
ص. ب.: ٥٤٣٣ ١١٣ ـ هاتف: ٣٥٤١٥٧

تمهيد

قبل سنوات طلب مني الصديق جهاد الخازن، وكان يومها رئيس تحرير «الحياة» أن أضع بحثاً عن المسيحية والعرب، تلبية لرغبة صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز، أمير الرياض. لبيّتُ الطلب، لكن البحث انتهى الى كتاب، أرسل في وقته الى سمو الأمير. وقد أُجزتُ عليه.

احتفظت من الكتاب بنسخة في أدراجي. وقد قرأه عدد لا يستهان به من أصدقائي، وفي ظني أن بعضهم صوّره. وكان كل من هؤلاء يلح عليّ بنشره لتعم الفائدة من جهة، وكي يطلع عليه أهل المعرفة، فيصوِّبون أخطاء قد أكون وقعت فيها.

في نهاية الأمر عدت الى المخطوطة فأجريت فيها بعض التبديل والتصحيح مما استطعت اليه سبيلاً، ودفعت بها الى دار قَدمُس للنشر والتوزيع في دمشق، وأنا أطمع في أن يتناوله أصحاب المعرفة بالموضوع لإرشادي الى أي نقص أصابه أو خطأ وقعت فيه.

بيروت ٢٠٠٠

الفصل الأول

إطار المكان وخلفية الزمان

الفصل الأول

إطار المكان وخلفية الزمان

١- المنطقة

تشغل المنطقة التي ستكون موضوع بحثنا في هذا الكتاب رقعة واسعة. فهي تمتد من جبال زغروس والخليج العربي شرقاً إلى الصحراء الغربية المصرية في الغرب؛ ومن جبال طوروس وجبال أرمينية شمالاً إلى البحر العربي وأواسط السودان جنوباً. وهي، فضلاً عن سعتها، فإنها تحتوي من التضاريس الأرضية أكثرها تنوعاً، ومن طبيعة التربة أكثرها تبايناً، ومن المناخات أكثرها اختلافاً وتبدلاً.

فنحن إذا بدأنا منها في الجهة الشمالية الشرقية امتدت أمامنا سهول أرض الرافدين في الجنوب، ومرتفعات شمال العراق على نحو لا يلفت فحسب، بل يثير العجب. من المرتفعات الشمالية ينبع نهرا دجلة والفرات، ومن ثم فإن انحدار هذه الجبال يحمل مياه النهرين، وخاصة مياه دجلة، على الركض، إذا جاز التعبير؛ فإذا وصل النهران إلى السهول الجنوبية، على مقربة من هيت شمالي بغداد، خفّت حدة السير في المياه، وترهّل النهران وهما يقطعان تلك السهول الفسيحة. وقد عثرا على أماكن هي منخفضة عن مجراهما، فملأاها بالماء، فكانت الأهوار الواسعة التي توفر للبعض عيشاً يبلغ حد الكفاف، لكنها كانت، في الأزمنة المختلفة، توفر للعصاة أماكن تصلح للاختفاء.

ودجلة والفرات يقتربان، واحدهما من الآخر، حول موقع بغداد، حيث كانت ثمة قناة تصل الواحد بالآخر فيما مضى من الزمن. ثم يبتعدان كي يلتقيا معاً فيكونان شط العرب ويصبان في الخليج العربي وقد امتزجت المياه والدماء فيهما معاً.

وفي الجهة المقابلة، الجنوبية الغربية، يقع الواحد منا على وادي النيل، الذي يفيد شمال السودان ومصر. والذي كان، إلى قبل بضعة عقود من السنين، يفيض كل سنة على أرض مصر، فتكسو مياهه الأرض بطبقة من الغرين تكون لها غذاء، إذ ينثر الناس بعدها الحب ويرجون الغوث من الرب. وكان الفيضان يأتي في فصل الصيف – في أيام التحاريق – ومن هنا فقد كانت أرض مصر تعطي موسمين في السنة الواحدة، بل إن أجزاء من الوادي كانت تزرع ثلاثة مواسم في السنة الواحدة.

يجتاز النيل مصر من الجنوب إلى الشمال، حاملاً مياه النيل الأبيض والنيل الأزرق ونهر سوباط ونهر عطبرة. ويجري في واد ضيق، حتى إذا بلغ أرباض القاهرة انتشر

يمنة ويسرة، فكان منه فرعان رئيسان: فرع رشيد وفرع دمياط، اللذان كانا يمدان الدلتا بالماء.

وبين أرض الرافدين ووادي النيل شريط من الأرض غريب في تكوينه هو أشبه بالهلال شكلاً إذ يصل بين الأولى والثانية، على أنه كي يكون له شأن خاص انتهى في طرفيه ببادية في الشرق هي بادية الشام، وصحراء في الغرب هي صحراء سيناء.

لكن هذا الهلال - وقد أطلق عليه المؤرخ جيمس برستد اسم الهلال الخصيب - له على الطبيعة دالة خاصة، تتمثل في موانئه على البحر المتوسط، وسلاسل جباله التي تمتد من الشمال إلى الجنوب في تواز لطيف، والتي تبلغ السماء أنفة، وتقتنص من الغيوم مطراً يحيي الزرع والضرع.

في جهته الغربية تقع سلسلة من الجيوب الساحلية التي تدور حول واحدة أو أخرى من المدن/ الموانئ التي تزين شاطئه. تبدأ هذه حول الإسكندرية بجيب ضيقة، لكن جيب السويدية (ميناء أنطاكية) أوسع قليلاً. وتكاد تحسب أنك مقبل على سهل إذ تصل أطراف منطقة اللاذقية، لكنك لا تلبث أن تكتشف أنك في جيب فضفاضة بعض الشيء. ومثل هذا يحدث لك حول طرابلس لكنك لن تفتش عنه في بيروت. ويعجبك جيبا صيدا وصور، وتستمتع بالصورة الفنية عند جيب (سهل) عكا. فإذا وصلت جبل الكرمل رأيت نفسك تدور به نحو الجنوب في سهل لا يتجاوز عرضه مئتي متر. لكن هذا يكون آخر معاناتك. فإلى الجنوب من جبل النبي إلياس يأخذ السهل بتكوين نفسه متسعاً في اتجاهه جنوباً حتى يبلغ نحو ثلاثين كيلومتراً عند غزة.

يصاقب هذه الجيوب الساحلية سلسلة جبال تبدأ في أمانوس في شمال بلاد الشام، ثم جبال اللاذقية وبعدها، جنوباً، جبال لبنان وفلسطين التي تنتهي عند جبال الخليل. وهي سلسلة مستمرة لكنها لا تكوّن حاجزاً بين المدن/ الموانئ والمدن الداخلية، لأن ممرات تقطع هذه السلاسل فتربط الساحل بالداخل: السويدية وأنطاكية بحلب، اللاذقية بحماة وما إليها، طرابلس بحمص، بيروت بالبقاع ودمشق، صيدا بدمشق وحوران، وعكا بوادي الأردن، ويافا بالقدس، وغزة بالداخل (وحتى المدى البعيد في أزمنة مختلفة).

وثمة سلاسل جبال أخرى موازية للأولى وتقع إلى الشرق منها، لكنها متقطعة. وأكبرها أثراً هو جبل الشيخ. وبين السلسلتين تقع سهول حلب وحماة وحمص والبقاع ووادي (غور) الأردن الذي ينتهي بالبحر الميت، أكثر المياه انخفاضاً عن سطح البحر (٣٩٤ متراً).

وإذا انتهيت من سلاسل الجبال الشرقية وجدت نفسك في بادية الشام، كما تجد نفسك في صحراء سيناء عندما تنتقل من غزة جنوباً في غرب. لكن الصحراء والبادية

كانتا دوماً سبيلي اتصال لا حاجز انفصال.

ونحن عندما ننتهي من زيارتنا لأرض الرافدين ووادي النيل وبلاد الشام، يترتب علينا أن نتوجه نحو الجنوب كي نلقي نظرة، عن طريق الخريطة، على الجزيرة العربية التي هي أغرب وأعجب بكثير من الأجزاء التي ألقينا عليها النظرة. فهي أولاً أرض واسعة جداً؛ وهي محاطة بالبحار من جهات ثلاث: الخليج العربي وبحر العرب والبحر الأحمر. وهي صحار في صحار. فإذا أتيح لك أن تتصور نفسك على قمم جبال الحجاز، واستطعت عندها أن توجه وجهك في اتجاه شمالي شرقي، وجدت أن الأرض تتجه منخفضة من حيث أنت إلى الخليج العربي، وجنوب أرض الرافدين. والانخفاض تدريجي، وكل ما تفعله هو أنك تقطع، متخيلاً ذلك، صحراء بعد صحراء، بعضها صخري حماد، وبعضها الآخر رملي. وسواء قيل لك إنها النفوذ أو الدهناء، فهي أرض جافة. ستطالعك فيها واحات، تكبر أو تصغر. وهذه الواحات يتجمع حولها الناس، فينعمون بمائها، ويختصمون بسببه. نعم، أمامك حائل والرياض. ثم عندما تصل إلى الأحساء يتبدل الوضع. فالماء غزير والأرض معطاء والرفش والمعول عاملان فيها بجد. وأنا لا أتحدث هنا عن ضخ المياه عبر أقنية على ما رأيت في زيارتي للهفوف. إنما أنا أتخيل ما كان يدور الناس فيه وحوله أيام كان الشادوف والسطل والناعورة والرفش والمعول والمحراث العادي عدة الفلاح أو مستثمر الأرض.

نعود لنقف على مرتفعات الحجاز، ونوجه نظرنا الآن في اتجاه جنوبي شرقي فنقطع الربع الخالي، الذي لم يكن دوماً خالياً (على ما يكشفه التنقيب الأثري سنة بعد سنة)، ويمتد نظرنا، متخيلين الأمر طبعاً، حتى نصل عُمان - جبالها وساحلها، وخاصة جبلها الأخضر. ثم نعود مرة ثانية إلى منطقة تقتنص الأمطار الموسمية وتفيد منها آنياً، وتختزن بعضها لحين الحاجة. والساحل هنا، مثل سواحل الخليج العربي، غنية أجزاؤه بالموانئ التي كان لها، عبر تاريخها الطويل، تجارب تجارية مع أقطار نائية: الهند وجنوب الصين وإندونيسيا.

فإذا درنا بعمان في حركة يمينية وأسعفتنا الرياح مررنا بعدد من الموانئ لعل من أهمها الشحر وقنا (عش الغراب). وكل واحدة من الموانئ الواقعة على الساحل الجنوبي للجزيرة العربية لها مع التجار والتجارة والبحار والبحّارة قصة لها في الواقع أصل. لكن المخيلة وسعت دائرتها والقصة/ الأسطورة زخرفتها فكانت لطيفة، تعجب أنت بها وأنت تعرف أن الأيام قد أوسعت جلدها فوسع ما لم يكن يتسع له من قبل.

لا. لن نحاول أن ننظر من الحجاز إلى الجنوب، فهذا أولى أن ننتقل إليه. لكن لنوجه وجهنا غرباً لنرى ما الذي تقع عليه العين. انحدار شديد من المدينة المنورة إلى ينبع، ومن مكة المكرمة إلى جدة، ومن عسير إلى الساحل. انحدار نحو البحر الأحمر.

جميل أن ينحدر المرء نحو الساحل، وأجمل منه أن يتصور ما يمكن أن تقدمه الموانئ هنا من خيرات عبر الأزمنة المتفاوتة والمتتابعة. والبحر الأحمر فيه عائقان يجعلان الاتجار فيه ومعه صعباً: الأول أن الشواطئ المرجانية كثيرة فيه، حيث يصبح الخطر على السفن كبيراً. فضلاً عن ذلك فإنه - مثل الخليج العربي - مستقر للقرصان. وهذا ينتعش فيه عندما تضعف الدول المحيطة به. أما إذا قويت وانتظم أمرها وقوي أسطولها خرج القرصان يبحث عن ملاجئ غير شواطئ هذا البحر.

والمرء ينتظر أن يكون البحر مصدراً كبيراً للأمطار، ولكن البحر الأحمر يخيب الأمل في غالب الأحيان. فهو بحر ضيق والأرض الواقعة إلى الغرب منه صحراء تبدأ عند سواحله وتنتهي عند المحيط الأطلسي. ويجب أن نذكر أيضاً أنه يقع في منطقة حارة أصلاً. لكن البحر لا يبخل بالبحار يحمل إلى جبال الحجاز، فيسقط مطراً غزيراً مفاجئاً ثم هو يتدحرج مسرعاً نحو البحر بسبب هذا الانخفاض الشديد الذي أشرنا إليه.

نحن نسير، مستفيدين من الخريطة، وكم كنت أود لو أنني أتنقل فعلاً، نحو اليمن، البلاد الجبلية فعلاً، التي تقتعد هذا الجزء الجنوبي الغربي من الجزيرة. في الجبال مناخ جيد، وفي السواحل - الحديدة وعدن - حر لافح. لكن اليمن مثل عمان، تقتنص الأمطار الموسمية وبكمية أكبر على ما يبدو.

لذلك كانت اليمن الجزء الوحيد من الجزيرة الذي قامت فيه حضارة مدن، وتنظيمات سياسية بالمدينة أحرى، وبنيت فيه السدود لجمع المياه خلفها، وتقنين توزيعها والإفادة منها حين الحاجة.

هذه الرقعة الواسعة التي حاولت أن أضع لها إطاراً طبيعياً بشكل مقتضب هي التي نريد أن نتحدث عن بعض التطورات فيها، وخاصة تلك التي بدأت في مطلع القرن الأول للميلاد، والتي استمرت، مع تقلبات الأزمنة وتبدل الدول وتطور الجماعات، حتى يوم الناس هذا.

هذه المنطقة قامت فيها أشكال من الحياة خلال أزمنة التاريخ. ولست أنوي التحدث عنها بتفصيل الآن. لكن لا بد من القول، أولاً وقبل كل شيء، إن السكان الذين عمروا هذه الأرض، وخاصة في مطلع الفترة التي ننوي التحدث عنها، كانوا على ثلاثة أصناف: فهناك فئات من البدو موغلة في البداوة؛ وهناك جماعات بدوية لكنها، بسبب المناطق التي كانت تقيم فيها، أصبحت بداوتها أقل عنفاً وأيسر حياة. ويظل عندنا سكان الريف الذين كانوا يفيدون من الأرض ويقطنون القرى والمزارع والبلدات، وسكان المدن الذين كانت لهم حياة فيها صناعة وفيها تجارة وفيها تنظيم. وكانوا يستمتعون بالتعلم والتعليم على اختلاف درجاته.

٢- التاريخ في نشوئه

هذه المنطقة التي وصفنا والتي جرّبنا جهدنا في تحديدها، عرفت عبر آلاف السنين السابقة لظهور المسيحيّة، نشوء جماعات بشرية أصيلة فيها، وهبوط فئات كبيرة جاءتها من الخارج. فوادي النيل، الذي كان فيه قدامى المصريين الذين ضربوا المعول الأول في الأرض لريها من مياه النيل، جاءهم، وفي موجات متعاقبة فئات من الجنوب من هذا العنصر الذي يسميه الباحثون، تجوّزاً وألفة، العنصر الحامي. كما هبط وادي النيل جماعة من الغرب من ليبيا، محتلّة حيناً، ومهاجرة أحياناً، وباحثة عن قوت يوفره النهر الكريم. ولأن هؤلاء القادمين كانوا يصلون في أوقات مختلفة، وقد تكون متباعدة، فإنهم سرعان ما كانوا يمتزجون بالموجودين هناك. وقد تؤدي موجة من هذه الموجات الجنوبية إلى انتعاش في الحياة السياسية وفي المجتمع بمصر، فتقوم دولة جديدة، على نحو ما حدث عند قيام الإمبراطورية في أوائل القرن الخامس عشر قبل الميلاد أو قبيل ذلك.

وكثيراً ما كانت تقصد جماعاتٌ مصر من الشرق؛ من الجزيرة العربية مجتازة البحر الأحمر. لعلنا لا نعدو الصواب إذا قلنا إن مثل هذه الهجرات كانت كثيرة، ولو أنها لم تكن في حجم ما كان يأتي من الجنوب مثلاً. ولأن الهجرات من الجزيرة لم تؤد إلى قيام دولة جديدة أو حركة سياسية خاصة، فإن صداها كان ضئيلاً، ولذلك ضاعت في متاهات التاريخ. ولعلّ أبقى أثر لها تأثيرها في اللغة المصرية القديمة من حيث الألفاظ وحتى التركيب اللغوي.

أما الجزء الآسيوي من هذه الرقعة فهو أوسع مدى، من الجهة الواحدة وهو، من الجهة الثانية، وخاصة في الجزيرة بالذات، مركز توليد ودفع إلى الخارج. فالبلاد الشاسعة، التي تكسوها رمال الصحارى أو حمادها، كانت، بين الزمن والزمن، تنوء بحمل سكانها، فتدفع بهم، أو يدفعون هم بأنفسهم، إلى الجوار- إلى أرض الرافدين وبلاد الشام (الهلال الخصيب) وحتى مصر (على ما رأينا). وليس من قبيل الكلام فحسب، أن يقال في أرض الرافدين وفي هضاب نجد: «نجد أم والعراق داية». ويكاد يكون كل جزء في الجزيرة أماً، ويتبع ذلك أن كل جوار لذلك الجزء هو داية - الأم تلد والداية تستقبل المولود.

وإذا صح ما ذهب إليه نفر لا يستهان به من الباحثين من أن هذه الموجات[1] التي خرجت من الجزيرة كانت متشابهة في أمور كثيرة - عنصرياً (أو جينيّاً كما يقتضي القول اليوم) واجتماعياً ومعاشيّاً. فلما استقرت في الجوار، أي في أرض الرافدين وبلاد الشام، نقلت معها صفاتها الجسدية والنفسية والاجتماعية ومفاهيمها المادية والمعنوية وعصبياتها القبلية (أو حتى العشائرية) ولغاتها. أم هل نقول، مع بعض القائلين، إنهم نقلوا معهم إلى الجوار لهجات للغة أم واحدة أصلية؟ ومن هنا فقد ظلوا في مواطنهم الجديدة يتمتعون بروح حملت من الداخل إلى الخارج بكل ما فيها من خير وشر، ونشاط وكسل، ودفع وتقاعس.

على أن هذه الموجات الكبيرة تلك التي عرفنا عنها معرفة تاريخية دقيقة، وتلك التي نتقرى آثارها بلمس، وكذلك التي لا نتعرف إليها إلا على غبش لأنها تخص عصر الضبابية التاريخي؛ هذه الموجات أُطلقت عليها أسماء، قد لا نقرّها لكنها تعيننا على تتبع التطور لها بعد استقرارها في مواطنها الجديدة. ونحن لا نبغي التأريخ لها هنا، ولكن لا بد لنا من ذكر أسمائها لأن هذه قد تعرض لنا في هذا الحديث، فليكن الأساس موجوداً. هذه الموجات هي الأكّدية (أو الأكادية) ولعلها الأقدم (إلى أرض الرافدين). ويبدو أن الموجة الأمورية (العمورية) التي اتجهت نحو بلاد الشام جاءت بعدها، ولعلها كانت معاصرة للموجة البابلية ثم الآشورية. وهاتان حملتا شعوبهما إلى أرض الرافدين. وعندنا الموجة الكنعانية (ويدخل في عدادها أو تحت جناحها الفينيقيون وكنعانيو فلسطين بالذات وغيرهم). وثمة الموجة الآرامية.

على أن هذه الموجات الكبيرة التي رنّ صداها في المجتمع والأدب وشؤون الدين لم تكن وحدها سبيل الانتقال من الجزيرة إلى الجوار. فانتقال الفئات الصغيرة من أرض رملية إلى أرض المدر المجاورة هو أمر عادي، يحدث من دون توقيت أو أذن أو حرب. والذي أتيح لهم منا أن يتعرفوا إلى مناطق مجاورة للصحارى يعرفون ذلك حق المعرفة.

على أن أرض الرافدين وبلاد الشام تلقّت فئات من شعوب جاءتها من خارج المنطقة بالذات. ومع أننا لا ننوي التأريخ لهذه الشعوب أيضاً، فإننا لا بد من أن نشير إلى بعضها. ولعلّ أقدمها السومريون مجهولو الأصل حتى اليوم (لأن هويتهم قيد الدرس!). هم أقدم شعب عرفنا عنه. فهم الذين وضعوا أسس الحضارة في أرض الرافدين حتى في الألف الرابع قبل الميلاد! وقد كانت المناطق الجبلية والهضاب القاحلة المحيطة بالمنطقة في الشمال خاصة، مورد شعوب تخلّفها وراءها وترحل إلى الأرض الخصبة المعطاء.

الشعوب التي جاءت من الجزيرة أطلق عليها اسم الشعوب السامية، ولعل التسمية

تقوم على اساس اللغة أكثر من أي شيء آخر. أما الشعوب التي هبطت من الشمال فبعضها من مجموعة الشعوب الهندية الأوروبية (أو الآرية اختصاراً) التي كان موطنها الأصلي في منطقة تحيط ببحر قزوين، ومنها رحلت جنوباً (في شرق إلى الهند، وغرباً - مع التشعبات - إلى آسية الصغرى وأوروبة). وكانت حصة منطقتنا الأصلية منها، مثلاً، الحثيين في القديم، والأرمن في الزمن الأحدث.

وهذه الجماعات كانت لها لغاتها الخاصة بها، ومفاهيمها النابعة من طبيعة مجتمعاتها. وقد احتفظت بكثير منها عبر القرون الطويلة.

لكن المهم بالنسبة إلى هذه الشعوب، السامي منها والآري، هو أنها عندما كانت تصل إلى أرض الرافدين أو بلاد الشام كانت، في أكثر الاحيان، تهدم بعض ما كان قائماً من ملك أو إمارة أو ما إلى ذلك. لكنها لا تلبث أن تقيم مكان ذلك ملكاً او إمارة وتحيي ما كان أصلاً من حضارة في تلك الجهات، وتضيف إليه في الغالب. ومن هنا فلم تكن هذه الشعوب دوماً لعنة على البلاد.

ومن هذه الشعوب ما حمل إلى المنطقة شيئاً جديداً لم يكن معروفاً فيها قبلاً. إن المنطقة دجنّت الحمار (ثم الجمل في وقت لاحق) وذلك لنقل الناس والسلع. لكن الجماعة التي جاءت بلاد الشام في زمن يدور حول القرن السابع عشر قبل الميلاد، والتي هبطت من الشمال جاءت معها بالحصان والعربة ولعلها حملت معها الحديد (استعمالاً) أيضاً.

ولنذكر قبل كل شيء أن المدينة ظهرت، أول ما ظهرت، في ربوع هذه المنطقة. وقد تبين هذا للباحثين منذ زمن طويل، إذ كشفت أعمال الحفر والتنقيب التي قام بها علماء الآثار وهواتها أن أرض الرافدين ووادي النيل وضعت اللبنات الأولى للمدنية الإنسانية، من حيث تنظيم الدولة واستثمار الأرض وتنويع محصولاتها وتوزيع المياه فيها ووضع نظام للكتابة وبناء المدن بما فيها من هياكل وقصور ومنازل ودور وصناعة الأشياء، وتبادل المتاجر والسلع وتنظيم القوافل وما قد ينسى أو يستهان به عندما نأخذ بتعداد الشؤون المدنية والتمدنية.

وقد كان يحسب، الى نحو ربع قرن من الزمان، أن بلاد الشام لم تكن سوى قنطرة عبر عليها متمدنو أرض الرافدين ومتحضرو وادي النيل - فاتحين وتجاراً ورحّالة - فخلّفوا فيها من آثار مدنيتهم ما أحيا فيها الزرع والضرع، وحمل الناس على الصناعة وبناء المدن، وتنظيم شؤون الدولة، واقتباس أنماط ونماذج للكتابة. ولكن الرفش والمعول اللذين نشطا نشاطاً يكاد يكون منقطع النظير في سورية ولبنان وفلسطين والأردن، أظهرا أن هذه الرقعة كانت لها من الأصل مشاركات أصلية وإسهامات أساسية في وضع أسس المدنية. كما اتضح للباحثين أن دور هذه البلاد الشامية لم

يكن هامشيّاً قط. ولعلّ أعمال الحفر والتنقيب التي يقوم بها أهل المعرفة من أقطار أخرى، تضمها منطقتنا، ستكشف عن خبايا من الانجازات الحضارية المهمة بالنسبة للتطور المدني في أسسه. ولعلّ تسلل الأقمار الصناعية إلى كشف المخبأ تحت رمال الصحاري سيكون له أثر في إزالة القناع عن الذي تم، فيتضح مع الوقت أن الجميع أسهموا في إنتاج هذه الحضارة.

ولسنا ننوي هنا أن نتحدث عن مآتي الشعوب المختلفة في المنطقة. لكننا أردنا أن نضع بين يدي القارئ هذه الفكرة العامة تمهيداً لما نحن قادمون عليه من تفصيل ما كانت عليه المنطقة في القرن الأول قبل الميلاد. إذ هناك يبدأ عملنا.

الذي يجب ألا يغرب عن البال هو أن هذا التفاعل بين الإنسان والأرض، على تباين أنواعها، هو الذي تفتق عن المدنيات الأولى. لكن المنطقة، من حيث موقعها، تتوسط العالم القديم: شرقه وغربه، شماله وجنوبه. وكانت معرفتها بالعالم تتسع مع اتساع الاتصال بينها وبين أجزائه. والتواصل مع الشعوب الأخرى كانت نتيجته تبادلاً في السلع والآراء وأصناف المعرفة ونظم الحكم. فكانت شعوب المنطقة تفيد وتستفيد. ولم يكن ذلك مجرد أخذ ما عند الآخرين وضمه إلى حصيلة الحياة المجدية فيها. كانت تأخذ من كل جهة وكانت تصهر هذا الذي أخذته حيث يصبح بعد حين جزءاً من حياتها. مثل هذا ينجرّ على الأساطير التي نقلت إليها من الشرق القصي ومن الغرب البعيد، فلم تلبث أن نمت هذه الأساطير وتطورت في أرجائها. فقد تكون الأسطورة هندية الأصل بحريّته من المحيط الهندي، الذي تعلو أمواجه وتتلاطم عواصفه. فإذا وصلت بلاد الشام وغطست في البحر المتوسط أو سبحت في دجلة أو الفرات أو النيل، لطفت حواشيها وخفت صوتها. وقد تنتقل إلى مكان صحراوي وعندها قد يجف الدمع في مآقيها، وقد تصبح ابتسامتها قعقعةً مدويّة كي تحملها الرياح إلى من يسمعها عبر الصحراء.

فضلاً عن ذلك فإن الحياة في المنطقة التي نحن معنيون بها الآن، بحكم ما فيها من خلافات في تضاريس الأرض والحرارة وما إلى ذلك، قامت فيها نظم متباينة. فمع أن وادي النيل عرف في تاريخه الطويل الحكومة المركزية (التي قد تقوى كثيراً وقد تضعف أحياناً لكنها تعود إلى المركزية) بسبب نهر النيل وفيضانه المنتظم والحاجة إلى من يعنى بهذا وما يستتبعه، فإن بلاد الشام وأرض الرافدين عرفتا حكومات المدن - الدول أو الدول - المدن نظاماً للحكم والإدارة. كان هذا هو الأصل؛ وقد تقوى مدينة فيقوم ملكها باحتلال المدن القريبة منه، أو حتى يطمع في فتح بلاد بعيدة، فتكون له إمبراطورية: (نارام سن وحمورابي وسواهما في أرض الرافدين). لكن المدينة - الدولة كانت هي القائمة على الحضارة وما ينبع عنها خلقاً وحماية وتطويراً.

على أننا يجب أن نذكر ما قلناه قبلاً أن هناك أجزاء من هذه المنطقة الواسعة ظل سكانها بدواً في غاية البداوة. هؤلاء كانت لهم قواعد خاصة للسلوك. وسنرى الدور الذي قامت به هذه الشعوب في تطوير بعض المفاهيم الاجتماعية والأدبية والسلوكية.

ولنسمح لأنفسنا بأن نذكّر أنفسنا بأن هذه الشعوب، المتحضر منها والوبري، كانت لها مشاركة كبيرة في خلق معتقدات وتنظيم طقوس، وترتيب عبادات للجماعات التي قامت فيها وبينها. فالإنسان على ما يبدو، احتاج من أول الأمر إلى من يعبده وإلى من يعتقد أنه أوجده. كما أنه كان يطمح في الحصول على أمور ما يزال يطمح إليها اليوم. كان ذلك كله أسطورة في أول الأمر. ثم تبدلت الأسطورة واتخذت لها أشكالاً وصوراً متنوعة؛ ثم حلّت الأديان مكان الأسطورة، فجاءت عبادة الآلهة، ثم توصل الناس إلى عبادة إله واحد ثم أوحي اليهم بذلك. وكانوا في كل دور وفي كل مكان وفي كل مجال يقبلون هذا الذي كان أمامهم وهو الذي نما وتطور. فكان عندنا أسطورة الخليقة البابلية ورواية سفر التكوين في العهد القديم. وكانت أسطورة غلغامش الآتية من الشرق. وكانت أناشيد الأسفار الروحية. وكانت الآلهة، إلى أن عُبِدَ الله الذي لا إله إلا هو.

الهوامش

(١) المقصود بالموجات التي خرجت من الجزيرة الشعوب التي يطلق عليها اسم الشعوب السامية وهي: الأكديون والبابليون والآشوريون والآراميون والعبران والعرب. واللغات التي تكلم بها هؤلاء القوم تسمى اللغات السامية. إلا أن ثمة لغة سامية أخرى هي السريانية، وهي متطورة عن الآرامية في القرن الثاني قبل الميلاد، وبها كتبت الآداب المسيحية في شرق بلاد الشام والجزيرة الفراتية وما إليها.

يكن هامشيّاً قط. ولعلّ أعمال الحفر والتنقيب التي يقوم بها أهل المعرفة من أقطار أخرى، تضمها منطقتنا، ستكشف عن خبايا من الانجازات الحضارية المهمة بالنسبة للتطور المدني في أسسه. ولعلّ تسلل الأقمار الصناعية إلى كشف المخبأ تحت رمال الصحاري سيكون له أثر في إزالة القناع عن الذي تم، فيتضح مع الوقت أن الجميع أسهموا في إنتاج هذه الحضارة.

ولسنا ننوي هنا أن نتحدث عن مآتي الشعوب المختلفة في المنطقة. لكننا أردنا أن نضع بين يدي القارئ هذه الفكرة العامة تمهيداً لما نحن قادمون عليه من تفصيل ما كانت عليه المنطقة في القرن الأول قبل الميلاد. إذ هناك يبدأ عملنا.

الذي يجب ألا يغرب عن البال هو أن هذا التفاعل بين الإنسان والأرض، على تباين أنواعها، هو الذي تفتق عن المدنيات الأولى. لكن المنطقة، من حيث موقعها، تتوسط العالم القديم: شرقه وغربه، شماله وجنوبه. وكانت معرفتها بالعالم تتسع مع اتساع الاتصال بينها وبين أجزائه. والتواصل مع الشعوب الأخرى كانت نتيجته تبادلاً في السلع والآراء وأصناف المعرفة ونظم الحكم. فكانت شعوب المنطقة تفيد وتستفيد. ولم يكن ذلك مجرد أخذ ما عند الآخرين وضمه إلى حصيلة الحياة المجدية فيها. كانت تأخذ من كل جهة وكانت تصهر هذا الذي أخذته حيث يصبح بعد حين جزءاً من حياتها. مثل هذا ينجرّ على الأساطير التي نقلت إليها من الشرق القصي ومن الغرب البعيد، فلم تلبث أن نمت هذه الأساطير وتطورت في أرجائها. فقد تكون الأسطورة هندية الأصل بحريّته من المحيط الهندي، الذي تعلو أمواجه وتتلاطم عواصفه. فإذا وصلت بلاد الشام وغطست في البحر المتوسط أو سبحت في دجلة أو الفرات أو النيل، لطفت حواشيها وخفت صوتها. وقد تنتقل إلى مكان صحراوي وعندها قد يجف الدمع في مآقيها، وقد تصبح ابتسامتها قعقعةً مدويّة كي تحملها الرياح إلى من يسمعها عبر الصحراء.

فضلاً عن ذلك فإن الحياة في المنطقة التي نحن معنيون بها الآن، بحكم ما فيها من خلافات في تضاريس الأرض والحرارة وما إلى ذلك، قامت فيها نظم متباينة. فمع أن وادي النيل عرف في تاريخه الطويل الحكومة المركزية (التي قد تقوى كثيراً وقد تضعف أحياناً لكنها تعود إلى المركزية) بسبب نهر النيل وفيضانه المنتظم والحاجة إلى من يعنى بهذا وما يستتبعه، فإن بلاد الشام وأرض الرافدين عرفتا حكومات المدن - الدول أو الدول - المدن نظاماً للحكم والإدارة. كان هذا هو الأصل؛ وقد تقوى مدينة فيقوم ملكها باحتلال المدن القريبة منه، أو حتى يطمع في فتح بلاد بعيدة، فتكون له إمبراطورية: (نارام سن وحمورابي وسواهما في أرض الرافدين). لكن المدينة - الدولة كانت هي القائمة على الحضارة وما ينبع عنها خلقاً وحماية وتطويراً.

على أننا يجب أن نذكر ما قلناه قبلاً أن هناك أجزاء من هذه المنطقة الواسعة ظل سكانها بدواً في غاية البداوة. هؤلاء كانت لهم قواعد خاصة للسلوك. وسنرى الدور الذي قامت به هذه الشعوب في تطوير بعض المفاهيم الاجتماعية والأدبية والسلوكية.

ولنسمح لأنفسنا بأن نذكّر أنفسنا بأن هذه الشعوب، المتحضر منها والوبري، كانت لها مشاركة كبيرة في خلق معتقدات وتنظيم طقوس، وترتيب عبادات للجماعات التي قامت فيها وبينها. فالإنسان على ما يبدو، احتاج من أول الأمر إلى من يعبده وإلى من يعتقد أنه أوجده. كما أنه كان يطمح في الحصول على أمور ما يزال يطمح إليها اليوم. كان ذلك كله أسطورة في أول الأمر. ثم تبدلت الأسطورة واتخذت لها أشكالاً وصوراً متنوعة؛ ثم حلّت الأديان مكان الأسطورة، فجاءت عبادة الآلهة، ثم توصل الناس إلى عبادة إله واحد ثم أوحي اليهم بذلك. وكانوا في كل دور وفي كل مكان وفي كل مجال يقبلون هذا الذي كان أمامهم وهو الذي نما وتطور. فكان عندنا أسطورة الخليقة البابلية ورواية سفر التكوين في العهد القديم. وكانت أسطورة غلغامش الآتية من الشرق. وكانت أناشيد الأسفار الروحية. وكانت الآلهة، إلى أن عُبِدَ الله الذي لا إله إلا هو.

الهوامش

(١) المقصود بالموجات التي خرجت من الجزيرة الشعوب التي يطلق عليها اسم الشعوب السامية وهي: الأكديون والبابليون والآشوريون والآراميون والعبران والعرب. واللغات التي تكلم بها هؤلاء القوم تسمى اللغات السامية. إلا أن ثمة لغة سامية أخرى هي السريانية، وهي متطورة عن الآرامية في القرن الثاني قبل الميلاد، وبها كتبت الآداب المسيحية في شرق بلاد الشام والجزيرة الفراتية وما إليها.

٣- بعد الإسكندر

أشرنا إلى الجماعات التي هبطت منطقتنا هذه من الشرق والشمال، لكننا لم نتحدث عن الموجات أو الجماعات التي جاءت من الغرب. ويبدو، مما حفظه التاريخ لنا، أن الموجة الكبيرة الأولى التي جاءتنا هي المعروفة باسم الشعوب البحرية. يروى أن هذه رُدّت عن الوصول إلى مصر، لكنها استقرت في فلسطين، وخاصة في سهولها الجنوبية. وكان هذا الشعب الذي استقر هناك هو المعروف باسم الفلسطيين (ومنه حصلت فلسطين على اسمها). وكان له أخوة وأبناء أعمام، لعلهم كانوا أصغر حجماً، فلم يخلّفوا من الأثر ما خلّفه الفلسطيون.

جاءت بعد ذلك فئات يونانية استقرت في المناطق الساحلية من نيوكراتس (غربي الدلتا المصرية) إلى الأجزاء الشمالية من الساحل الشامي. لكنها كانت جماعات صغيرة تعمل في التجارة والصناعة، شأنها في ذلك شأن الأقوام والجماعات التي ترحل عن أوطانها في طلب العيش. على أن الجماعات الأكبر عدداً والأبعد أثراً كانت تلك التي أنشأت في المهاجر مدناً على غرار المدن اليونانية. هذه عرفتها مصر وليبيا وشواطىء البحر الأسود وشواطىء البحر المتوسط الغربية. لكن يبدو أن الساحل الشامي كان مكتظاً بالسكان أيام هذا الاندفاع اليوناني (بين السنين ٧٥٠ و٥٠٠ ق.م). فلم يجد المهاجرون لهم فيه مستقراً. هذا مع العلم بأن عدداً لا يستهان به من سكان بلاد اليونان عمل مرتزقة في الجيوش المشرقية حتى في أيام الكلدانيين والفرس.

على أن الذي لم يتم على أيدي مهاجرة اليونان من قبل تمّ على أيدي الإسكندر وخلفائه في القرون الثلاثة السابقة للميلاد. وهذه الفترة يسميها المؤرخون بالعصر الهلنستي. وهذا كان زمن التبدل الاجتماعي والفكري في منطقتنا (باستثناء الجزيرة العربية التي لم يحتلها الإسكندر).

شملت فتوح الإسكندر آسية الصغرى وبلاد الشام ومصر وأرض الرافدين وإيران (وقضى على الدولة الفارسية القديمة) وسار شرقاً حتى وصل حوض السند وسمرقند وأجزاء أخرى من أواسط آسية. وعاد إلى بابل وكان يخطط لاحتلال الجزيرة العربية (ولو سواحلها على الأقل) لما حمّ ومات (٣٢٣ ق.م.).

كانت الإمبراطورية التي أنشأها الإسكندر أوسع ما عرفه التاريخ إلى أيامه. ولما

توفي فجأة انصرف كبار قواده للنظر في مستقبل الإمبراطورية. وكان الاتجاه، على الأقل ظاهرياً، نحو المحافظة على وحدتها، لكنهم اختلفوا فيمن يتولى الحفاظ عليها، وكل له مطمع ومطمح. وتولى سلوقس شؤون القسم الآسيوي (باستثناء آسية الصغرى) وأطبق بطليموس على مصر وفلسطين (وبعض جوارها شمالاً). وكان هناك من احتضن آسية الصغرى ثم من احتضنته اليونان.

دارت حروب طويلة ثم اتضح للجميع بعد معركة إبسوس (٣٠١ ق.م) أن الاحتفاظ بالوحدة أمر مستحيل وأن تقسيم الإمبراطورية وتوزيعها أمر حتمي، فجرب كلٌّ توسيع منطقة نفوذه. والذي يعنينا في هذه المناسبة الملك السلوقي والملك البطلمي. فالأول انتهى أمره بأن حكم بلاد الشام (إلا فلسطين لم يضمها إلا في القرن الثاني قبل الميلاد) لأن الأجزاء الشرقية استقلت جميعها تدريجاً. أما الملك البطلمي فقد اضطر في نهاية المطاف أن يتخلى عن فلسطين (حرباً) وأن يكتفي بمصر.

ونحسب أنه من الضروري لمن يريد أن يتعرف إلى نشوء المسيحية وبدء انتشارها في بلاد الشام ومصر أن يتعرف إلى التجربة التاريخية الخاصة والمهمة التي مر بها هذان القطران في العصر الهلينستي. وهنا يجدر بنا أن نضع امام أعيننا بضع ملحوظات عامة تتعلق بالدولتين.

كان السلوقيون يعدون أنفسهم ورثة الإسكندر في برنامجه الذي كان يرمي من ورائه إلى توحيد العالم المعروف آنذاك بأكمله عن طريق نشر الحضارة الهلينية (الإغريقية) بين سكان الإمبراطورية أجمعين. ومن هنا كان اتِّباعهم مخططه المتعلق بإنشاء مدن يونانية تصبح مراكز إشعاع فكري وحضاري لسكان البلاد أجمعين. ولم يكن البطالمة يعنون بهذه الناحية بما فيه الكفاية. ومن هنا نجد أن هؤلاء اهتموا في مصر بمدينة واحدة هي الإسكندرية، وهي التي أنشأها الإسكندر، فيما بنى السلوقيون عدداً كبيراً من المدن.

كان السلوقيون، مثل أباطرة فارس من قبل، يطلقون لسكان البلاد الحرية الدينية، وقد ينفقون على بناء المعابد والهياكل للفئات المختلفة من شعوب دولتهم. فإذا وقعوا في ضائقة مالية لم يكونوا يتورعون عن مصادرة أملاك هذه الهياكل وأموالها. أما البطالمة فكانوا يضيفون إلى الحرية الدينية مراقبة أماكن العبادة.

ويتفق السلوقيون والبطالمة على اعتبار أرض المملكة بأجمعها ملكاً خاصاً بالملك. وعندما تقام مدينة فالملك هو الذي يمنح الأرض اللازمة للبناء وغير ذلك من المنافع. وكان كل العاملين في الأراضي الملكية نوعاً من «الأقنان».

وقد يكون هذان الأمران من الأشياء العادية في الشرق القديم، لكن تبني السلوقيين والبطالمة لهما هو أمر له دلالته من حيث هذا التزاوج الذي نشهده في السلوك

السياسي الرسمي وفي الفكر السياسي.

فالنظام السياسي الذي عرفه الشرق منذ أن قام السومريون ببناء مدنهم (في الألف الرابع قبل الميلاد) ومنذ أن نظّم الفراعنة شؤون دولتهم (حول ٣٠٠٠ ق.م)، وبقطع النظر عن سعة الدولة أو صغرها، كان أساسه أن الحاكم كان دوماً ملكاً. وهذه الملكية التي ورثها الشرق عبر القرون العديدة كانت لها صفتان متلازمتان: الأولى، أنها (إلهية) الأصل؛ والثانية، أنها أوتوقراطية. فالملك كان مندوباً عن الإله أو نائباً له على الأرض في عرف الحضارات البابلية. أما في مصر فكان الفرعون هو الإله متجسداً. والقانون الذي تسير عليه الدولة هو سماوي (إلهي). لكن في بابل كان الملك يتلقى القانون من الإله (حمورابي يتلقى القانون من الإله على ما صورته الفنون القديمة). أما في مصر فلا حاجة لتلقي القانون. إن الملك/ الإله هو الذي يشرّع. وفي فارس، وقد كان لها أثر في منطقتنا، كان الملك يرث العرش (وقد يغتصبه) لكن شعاره كما عبر عنه دارا الكبير: «إنني أملك بنعمة، وأهورا موزدا هو الذي أعطاني المملكة».

لكن اليونان، باستثناء المقدونيين، كانت لهم تجربة من نوع آخر. هي تجربة المدينة /الدولة (ولكن بدون الملكية الشرقية). وحكم المدينة كان يرتكز إلى مؤسسات يختارها السكان الأحرار في انتخابات ديمقراطية. وحتى في فترة التوسع اليوناني (نحو ٧٠٠-٥٠٠ ق.م) نقلت المدن التي بنيت في المستوطنات الجديدة نظام الحكم الديمقراطي.

ومعنى هذا كله أن السلوقيين، مثلاً والبطالمة كذلك، كانوا ورثة نوعين من الحكم، بينهما فروق شاسعة. ولنضف أمراً جديداً تم على يد الإسكندر بالذات: الإسكندر سليل أسرة ملكية في مقدونية، لذلك كان أقرب إلى قبول الوضع الملكي. فضلاً عن ذلك، فقد كان الإسكندر يعتبر نفسه ملكاً ولا كالملوك. وإذن فيكف يعامل؟

لما زار الإسكندر واحة سيوة حيث يقوم هيكل الإله آمون، حيّاه الكاهن على أنه ابن آمون. وهذا معناه أنه أصبح ملك مصر، لأن كل ملك مصري هو ابن لآمون. وكان الإسكندر يعتقد أنه متحدر من الإله زفس، كبير الآلهة اليونانية. والآن أصبح الابن الأصيل لزفس -أمون. وأضفى على أعماله ومخططاته رسالة إلهية، أي إنه أصبح، مثله مثل أي فرعون سابق، ملكاً /إلهاً. أما في إيران فقد أصبح (بعد مقتل دارا) ملكاً حاكماً مطلقاً، لكنه لم يكن إلهاً لأن الديانة الزرواسترية (الزرادشتية) لا تعتبر ملوك الفرس آلهة. لكن رسوم القصر الفارسي كانت تحتم على كل من يقترب من الملك أن يسجد له. وقد سار الإسكندر على هذا النهج كي يعتبره الفرس ملكهم. وكان سكان المدن اليونانية في العهود الملكية السابقة يؤلهون الملوك بعد وفاتهم. ولكن اليونان الذين استقروا في المدن اليونانية رأوا في الإسكندر رجلاً حرياً بالتأليه في حياته،

فحصل منهم على ذلك (٣٢٤ ق.م).

والذين خلفوا الإسكندر في إمبراطوريته، على الأقل بين السلوقيين والبطالمة، اعتبروا أنفسهم كما اعتبر هو نفسه، لكن كل في دائرته. ذلك بأن دائرة الإسكندر كانت أوسع.

ومما يجب أن يذكر هو أن البلاد التي احتلها الإسكندر كانت فيها مدن كثيرة. فهو لم يبدأ العملية البنائية من الصفر. لكنه مع ذلك بنى مدناً عديدة (يعزى إليه أسطورياً بناء نحو ٧٥ مدينة!). ولا بد من التساؤل عن السبب في بناء العدد الكبير من المدن أيام الإسكندر؟

نحسب أن الإسكندر أراد أن يخفف من الضغط (التفجر) السكاني والضائقة المالية اللذين كانت بلاد اليونان تتعرض لهما.

فالمدن الجديدة أصبحت مساكن للمقدونيين واليونان الآخرين، فكانت مشروعاً اجتماعياً اقتصادياً، وحتى عسكرياً. فقد أدرك الإسكندر الحاجة إلى إنشاء ثكنات عسكرية (مدن) لحراسة الطرق التجارية وضبط الأمن ومقاومة الحركات الوطنية المحلية (اذا قامت).

واذا كان لا بد لنا من الأخذ بالرأي القائل إن الاسكندر كان ينوي توحيد العالم القديم، فإنه، تبعاً لذلك، كان لا بد أن يقيم مراكز للحضارة اليونانية كي تشع منها إلى محيطها الجديد كما أشرنا. فالحضارة اليونانية كانت، في رأيه، العلاج الناجع لإصلاح المجتمع البشري.

أصبحت المدينة أيام السلوقيين - وقد كانوا بناة مدن من الصنف الممتاز - مستوطنة عسكرية، ولم يعد إنشاء المدينة بمعنى "بوليس" اليونانية. ذلك أن إنشاء المدينة كان عملاً ضخماً، يتطلب نفقات كبيرة، وتترتب عليه مسؤوليات ملكية أكبر. فالمستوطنة العسكرية كانت تكلف أكثر بسبب بناء الأسوار والأبراج، أما عدا ذلك فالامتيازات التي تحصل عليها كانت أقل مما تمنحه المدينة.

لسنا ننوي أن نتحدث عن المدن الهلينستية بأجمعها؛ ولكننا سنعدد بعضها، خاصة وأن هذه سترد أسماؤها فيما سنتناوله من أحاديث هنا وفيما بعد.

كان سلوقس الأول نيكاتور [حكم بين السنين ٣١٢- ٢٨٠ ق.م] المسمى المستعمر الكبير، أول من عني ببناء المدن بعد الإسكندر. وقد أنشأ أنطاكية (عاصمة إمبراطوريته السلوقية) التي غلب على سكانها، فضلاً عن اهتمامهم بالتجارة، حياة السرور والمرح، وخاصة في ضاحيتها الغناء دَفْنة. ومعروف أن هذا الملك بنى ثلاث مدن أخرى هي: سلوقية على مقربة من مصب نهر العاصي، وهي السويدية الآن، وكانت المركز الرئيسي للاتجار مع الغرب؛ واللاذقية، وهي ثاني الموانئ البحرية

المهمة في شمال الشاطئ الشامي وكانت تجارتها، فضلاً عن توجهها غرباً، تتجه نحو مصر؛ وأفامية (وهي اليوم خربة) التي كانت تتوسط سهل الغاب. وكانت أفامية المعسكر الرئيس للإمبراطورية في شمال سورية. وكانت تربى فيها الخيول للجيش وتحفظ الفيلة فيها. وقد بنى هذا الملك «سلوقية» أخرى على نهر دجلة (على مقربة من موقع بغداد الحالية). وكانت هذه أول عاصمة له قبل أن تبدو له أهمية بلاد الشام لملكه. وهذه المدينة كانت مركزاً للاتجار مع الشرق.

ومن المدن الأخرى التي بناها السلوقيون أو جددوها تجديداً يكاد يكون تاماً، وأسكنوا فيها مقدونيين ويونانيين: بعلبك (هليوبوليس) وحلب (بورية) ومنبج (هيرابوليس) وعنجر (خلقيس) ودورا – أوروبس وأمفيبوليس وأنطاكية – نصيبين وأنطاكية – إدسّا (وقد غلب على الاسمين الجزء الثاني مع مرور الزمن) وإبيفانية (حماة) وبيروت وأنطاكية (على بحيرة طبرية). ولما استولى السلوقيون على فلسطين جددوا نشاط المدن الساحلية من صيدا إلى غزة عبر صور وعكا ويافا وأرسوف. وبنيت (أو جددت) ثلاث مدن في جنوب أرض الرافدين.

إذا كان الإسكندر أمل في أن يوحد الشعوب في البلاد التي احتلها – والبلاد واسعة والشعوب متنوعة متباينة في جميع أمورها وشؤونها؛ وإذ كان يرى أن الحضارة الهلينية (الإغريقية/ اليونانية) هي العلاج الناجع لذلك، فإن حياته كانت قصيرة حيث أنه لم يفعل أكثر من أنه ألقى بآرائه، ولعل وقته لم يتسع حتى لرسم مخطط واف لها. ومع ذلك فقد أوقد شعلة، فظلت هذه ملتهبة بعض الوقت. لكن خلفاءه، وخاصة السلوقيين والبطالمة، لم يلبثوا، شأن غيرهم ممن تولى جزءاً من الامبراطورية الواسعة، أن انصرفوا الى تثبيت ملكهم وتوطيد نفوذهم. فأخذوا من برنامج الاسكندر آراءه المتعلقة بإنشاء المدن والمستعمرات العسكرية المزودة بالسكان من اليونان، بحيث يكون هؤلاء عصب الدولة والحكومة، وتكون المدن مراكز تجارية على الطرق العالمية.

وما الذي جرى فيما يتعلق بنشر الحضارة الهلينية؟

بعد أن انقطع سيل اليونانيين لملء الفراغ في المدن المنشأة حديثاً، لجأ الحكام إلى السكان الأصليين ليقيموا فيها. وقد ازداد العدد مع الزمن، خاصة منذ أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الثاني قبل الميلاد. ولكن هولاء الوطنيين من السكان لم يعاملوا كمواطنين في المدن، بل كانوا يقيمون في بوليتيمات (تجمعات) في أجزاء من المدينة. وقد كان لهذه التجمعات موظفون مختصون بقضاياها. لكن التموين والشؤون الصحية والنواحي القانونية كانت في أيدي اليونانيين.

ومن هنا فلم يكن ثمة سياسة سلوقية أو بطلمية لنشر الهلينية بين السكان. والذي

تم – من انتشارها ـ وقد كان كثيراً، فقد جاء بحكم التمازج الذي تم بين سكان المدن أولاً (عندما تم الخلط بينهم) ثم ما حدث من اتصال بين المدن والقصبات ومجاوريها. أما سكان الريف فقد ظلوا، إلى درجة كبيرة، محرومين نفحات هذه الحضارة، باستثناء بعض المظاهر الاجتماعية البسيطة التي وصلت إلى قرى أكرمت بسبب رئيس أو حاكم. وهذه كانت تشمل الألعاب الرياضية والحفلات المرتبطة بها، والمشاركة في بعض الاحتفالات الدينية، حيث امتزج الأصلي باليوناني المستورد.

٤- التجربة السلوقية

كان المجتمع السلوقي في مجمله يتكون من فئات متفاوتة من حيث المقام والعدد. فقد كان أعضاء البيت المالك يتصدرون قائمة الشرف. وهؤلاء كانوا يتألفون من الأسرة والأقارب والحاشية القريبة. وكان يتبعهم العاملون الأحرار وجماعات كبيرة من الرقيق. فالأمر لم يكن قضية أسرة مالكة فحسب، بل ملحقات هذه الأسرة.

وكان الموظفون في العاصمة وفي مراكز الولايات الادارية يكوّنون الفئة الثانية. وكان الغالب على هولاء أن يملكوا ثروة طائلة. وكان ينضم اليهم أسر ثرية جاءت ثروتها من التجارة، ولكنها ظلت خارج نطاق الحكم والإدارة. هذه الفئة، كبار الموظفين وكبار التجار، كان أفرادها هم جماع الأرستقراطية الجديدة في الدولة. وهي جديدة لأنها نشأت مع نشوء الدولة وتطورت مع تطور المدن والتجارة. وهؤلاء كانوا، إلاّ قلّة، من الأجانب (اليونان).

ثم تأتي الفئة الثالثة، وهي جماعة الجند، وفي مقدمتهم الضباط الذين يقيمون في المدن المعسكرات الرئيسة مثل أنطاكية وأفامية وسلوقية (على دجلة) وغيرها من المدن وفي المستوطنات العسكرية. وكان هؤلاء يتقاضون مرتبات كبيرة، كما كانوا يتلقون الهدايا. ومن ثم فقد كانوا - أفراداً - يقتربون من الأرستقراطية الجديدة من دون أن يعدّوا بين أفرادها.

أما الفئة الرابعة وهي تتكون من جماعات وصلت البلاد في فترات متلاحقة لتعمل في وظائف الدولة (من الدرجات السفلى) أو التزام (ضمانة) الضرائب أو، كي تحصل على أرض، تعهد إلى الأقنان بالعمل فيها. يضاف إلى هؤلاء أصحاب المهن الحرة من أطباء ومحامين ومعلمين وفنانين وصنّاع مهرة وتجار صغار. وهذه لم يكن لها امتيازات إلا أنها كانت من العنصر اليوناني.

في مقابل هذه الفئات الأجنبية (اليونانية) كان هناك فئات وطنية موازية لها، باستثناء الأولى أي البيت المالك وأتباعه. فقد كانت هناك أسر حاكمة وأمراء لمناطق معروفة وزعماء لقبائل عديدة منتشرة في ربوع الشام. هذه كانت لها كياناتها، وكان لها حضورها ووجودها.

قدر عدد سكان الامبراطورية السلوقية (قبل تقلصها) بنحو ٢٠ الى ٢٥ مليون

نسمة، ولا شك أن اليونانيين منهم كانوا قلة، لكنهم كانوا أصحاب السلطة. أما سلوقية[1] الشامية فلم يكن سكانها يتجاوزون الملايين الخمسة.

ولم يكن ثمة ما يمنع الاختلاط بين الجماعات المقيمة في المدن والقصبات من الفريقين - الأصلي والطارىء - لكن ذلك كان يتم على المستويات ذاتها. فالأرستقراطية الجديدة (اليونانية) يكون اتصالها بأعضاء الأسر الحاكمة والأمراء وزعماء القبائل مثلاً، إلا إذا كان أحد هؤلاء يتمتع بمركز خاص فيكون اتصاله مع الفئة الأولى.

وكان ثمة سبيلان أو عاملان يتعامل الناس بواسطتهما وكانا سبيل التواصل الحضاري وانتشار الهلينية بين أهل البلاد، وهما: القانون اليوناني واللغة اليونانية.

القانون اليوناني كان يطبق على جميع اليونان وعلى البولتيمات (تجمعات أهل البلاد في المدن) وحتى على فئات أخرى تتعامل بشكل خاص مع اليونان. والأحكام في القانون (أو القوانين على الأصح) كانت منتزعة من تشريعات يونانية متعددة متنوعة، إذ كانت أجزاء أخرى مأخوذة من قوانين مدن أخرى وأنظمتها. فالقانون المتعلق بالإرث الذي كان معمولاً به في دورا - أوروبس كان أثينياً في مجمله، لكنه طُعم بعناصر قانونية مأخوذة من مصادر إضافية. وهناك عقود ووثائق عثر عليها في مدن نائية وضعت تبعاً لأحكام كان يعرفها الموثق. وقد يكون هناك موثق من كورنث وآخر من إيونيا!

أما فيما يتعلق باللغة فيجب أن نذكر أن اليونانية كانت لغة الدولة الرسمية، كما كانت لغة العلم والفلسفة والأدب التي جاءت البلاد من اليونان أصلاً. فتعلمها كان في مصلحة أبناء البلاد الذين ينوون الحصول على وظائف حكومية أو ما يشبه ذلك مهما كانت هذه الوظائف صغيرة. كذلك كان يحتاج اليها أولئك الذين يعتزمون مزاولة التجارة. وكانت لغة المجتمع اليوناني. فالذي شعر أنه يمكنه أن يطل على هذا المجتمع، كان يحتاج إلى لغته. وكل من تعلّم اليونانية كان يستطيع أن ينفذ إلى ناحية من نواحي الفكر اليوناني (الهليني).

ومن الطريف أن الرقيق الذي كان يعمل في منازل الأرستقراطية اليونانية انتهى به الأمر الى تعلم هذه اللغة وحتى إتقانها. لكن المشكلة كانت تتعلق بأهل الريف والقرى النائية خاصة.

وعلى كل، فإن توزع اليونان في المدن الكبيرة والصغيرة وتعدد الموظفين والحكام المحليين أتاح لليونانية انتشاراً في بلاد الشام أوسع منه في مصر. فالبطالمة لم ينشئوا مدناً سوى الإسكندرية وبطليماوس (في الجنوب). واليونان الذين هبطوا مصر، ولم يقيموا في المدينتين، انتشروا في أنحاء البلاد إذ أُقطعوا الأراضي لاستثمارها.

وبسبب إقامتهم في الريف لم يلبثوا أن اختلطوا بالسكان من المصريين، وتزاوج الفريقان، وتمثل القادمون الكثير من عناصر الحضارة المصرية، وخاصة فيما يتعلق بشؤون الدين، واهتموا بتعلم اللغة المصرية. وقد ورد في رسالة تعود إلى القرن الثاني قبل الميلاد عن أم أنها تقول إن ابنها (اليوناني) يتعلم اللغة الوطنية لأن هذا يتيح له مجال العمل في الحكومة أو التجارة.

والذي نود أن نخلص إليه هو أن انتشار الحضارة اليونانية، أي انتشار الهلينية لم يكن عاماً. لقد كانت ثمة مراكز امتازت بتقبل الآراء الجديدة لأنه أتيح لها أن تفهمها، ولكن الذي ظل معزولاً لغوياً لم تتمكن الأفكار الهلينية من الوصول إليه.

بل هناك ما هو أهم من ذلك. إن رجال الأدب والشعراء والمؤرخين الذين ظهروا في بلاد الشام ومصر في العصر الهلينستي، وهم من أبناء البلاد، كتبوا باليونانية. فقد كانت هذه لغة الفكر.

وقد كان الدور الذي قامت به الإسكندرية كبيراً، بوصفها مدينة العلم الأولى في ذلك الوقت. فالبطالمة جعلوا من تلك المدينة، في المتحف والمكتبة، مركزاً للعلم. وأغدقوا عليها الأموال الجزيلة حيث كان العلماء يقصدونها للتعلم والتعليم. ويكفي أن نتذكر أن إقليدس (القرن الثالث ق.م) لم يجد مكاناً أصلح من الاسكندرية ليقوم بأبحاثه حيث وضع كتابه «المبادئ» (وهو الكتاب الذي ظل العمدة في تعليم الهندسة ودرسها إلى القرن التاسع عشر، وإن اختلف شكله). وفي الإسكندرية قام إراتوستينس العالم الرياضي القوريني (البرقاوي) الأصل (٢٧٥-٢٠٠ ق.م) بقياس محيط الأرض. وكان الرقم الذي توصل اليه ينقص بنحو ٣٠٠ كلم عن القياس الحديث. وفي الاسكندرية عاش بطليموس قلودويوس (القرن الثاني للميلاد) الذي كان أكبر فلكيي العصور القديمة. وجدول أسماء علماء الإسكندرية وأدبائها طويل، لذلك نكتفي. (بعد انتشار المسيحية وقيام الخلاف بين الكنائس كان للاهوتيي المدينة دور كبير، سنعود اليه).

أما في بلاد الشام فعندنا أنتيباطر الصوري، وميلياغر الجداري الشاعر، وفيلوديموس الفيلسوف والشاعر، ونقولا وسن الدمشقي الذي وضع تاريخاً للعالم في ١٤٤ كتاباً، وأرخيباس الأنطاكي الشاعر البلاغي المتجول، وبوزيدون الأفامي وأنطيوخوس العسقلاني، يوسيفوس المؤرخ المقدسي. هؤلاء جميعهم كتبوا باليونانية.

لكن هناك من حمل التقليد العلمي ولكنه دوّن باللاتينية بعد ذلك. منهم أندرونيكوس الفيلسوف، ويلوس الأنطاكي الأديب وبروبوس البيروتي النحوي.

والذي يذكره مؤرخو العصر الهلينستي هو أنه كان زمنَ تخير وانتخاب فيما يتعلق بالفكر الفلسفي. ويرى الباحثون أن فلسفات العصر الهلينستي كان يعوزها الخلق

والإبداع. ولعل من ألطف ما روي أن بعض أهل الفكر في ذلك العصر الذين رجعوا إلى أفلاطون ليدرسوه لم يستطيعوا فهمه.

ولعلّه من البدهي أن يكون العصر زمن اختيار وانتخاب. فقد اجتمعت في رقعة واحدة، لكنها متسعة ومقسمة تضاريس وسطحاً ومناخاً، آثار شعوب متنوعة ذات خلفيات متباينة وتجارب قد تكون متنافرة. اخترقت هذه الرقعة يومها، كما اخترقتها فيما بعد وكما لا تزال تخترقها حتى اليوم، طرق تجتاز أقطاراً غريبة عجيبة وبحاراً أعجب وأغرب، شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً، حتى تلتقي في هذه المنطقة. وكان لهذه المنطقة اختبارات روحية دينية موغلة في القدم بدأت بعبادات متعددة وانتهت إحداها بالوحدانية. عبد الناس فيها الملوك كما عبدوا الأصنام وسجدوا للشمس والقمر كما سجدوا للملوك الآلهة.

كانت المنطقة في العصر الهلينستي بوتقة كبيرة، فلم يكن بالإمكان أن تختلط فيها العناصر وتطبخ حيث تنتج فكراً واحداً. لكن الجو تهيأ في جزء من هذه المنطقة كي يظهر فيها السيد المسيح، كما تهيأ الجو في جزء آخر منها لظهور محمد بن عبدالله (ص).

وإذا نحن عدنا إلى المجال الفلسفي وجدنا أن المذهب الفلسفي الذي تفتقت عنه هذه الفترة هو الفلسفة الرواقية.

المدرسة الرواقية في الفلسفة يعود تنظيمها فكراً الى زينون، وهو فينيقي من مستعمرة كيتيون الفينيقية في قبرص. والمرجح أنه عاش بين حوالى عامي ٣٣٤و٢٦٢ ق.م. أي إنه عاصر فتوح الإسكندر ودويّها الذي ملأ الأسماع، وبلغه خبر وفاته التي أثارت بين أتباعه الأطماع، وتتبع ما جرى بينهم من منافسة وخصام واقتتال واقتسام. هذه الحروب التي وصفها أرنولد توينبي أنها لم تنته بنتائج حاسمة، ولذلك فإنها أضعفت وأتلفت وأنهكت الدول والجيوش والناس عموماً. ولعل هنا يكمن السبب في أن العصر الهلينستي لم يكن له وقت أو (حيل) أو همة للفكر النابض الجديد المتفتح، فانتهى أمره بأمور دون ما أمله منه الإسكندر وأشياعه.

والرواقية، من حيث نظرتها الفلسفية، كانت من الأصل هلينستية. ولم يخطئ الأقدمون إذ نظروا اليها على أنها نتاج التفاعل الاجتماعي والتناقض السياسي الذي مر العالم الهلينستي به. وقد نقل جورج سابين عن بلوتارخ ما معناه: إن الإسكندر أوجد الدولة التي اقترحها زينون.

من جهة ثانية، دعت الرواقية الى الوحدة الروحية، وهي الوحدة التي ينتفي فيها الفرق بين اليوناني وغيره من البشر. وهذه هي دعوة الإسكندر بالذات. ولذلك فإن الرواقية تبدو أنها تخطط لتحقيق آمال الشعوب في العالم الهلينستي. هذه الآمال التي

يهمها - بعد الحرية - الحصول على المساواة.

وفكرة الوحدة التي دعت الرواقية إليها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالملكية الهلينستية. وفي هذا كانت الرواقية معاصرة للأحداث والأجواء التي نشأت فيها. ذلك بأن الفلسفة اليونانية (القديمة) كانت قد نضجت في عهد الحكومات الديمقراطية. لذلك لا نجد فيها إشارة الى الملكية من حيث هي نظام حكم. وأرسطو الذي كان، الى جانب نواحي تفكيره الأخرى، مفكراً سياسياً لم يشر إلى الملكية قط. فقد كان عهدها قد انتهى قبل قرون بالنسبة الى أثينا. أما الفلاسفة الرواقيون فقد عاشوا وعلّموا وكتبوا في أيام الملكية التي كانت نظام الحكم في مقدونية وبرغاموس ودولة السلوقيين ومصر، فضلاً عن مناطق شرقية بعيدة قامت على أنقاض امبراطورية الاسكندر. لكن الأمر لم يقتصر على بحث طارىء للموضوع، بل كانت الملكية الهلينستية مدعوة للتوفيق (للتوحيد) بين اليونان والمشارقة. مثل هذا الأمر لا تقوم به إلا ملكية مطلقة التصرف. ومعنى هذا أن الملك لا يكفي أن يكون رأس الدولة فحسب؛ الملك يجب أن يكون هو الدولة نظراً وعملاً.

وكان الرواقيون يرون أن القانون الذي تدار شؤون الدولة على أساسه يجب أن يكون ذا شقين: الواحد يقوم على العرف والعادة وبعض تشريعات ذات قيمة محلية. أما الشق الآخر (أو الثاني) فيشمل القانون العام، القانون الذي تدار الدولة على أساسه، وهو قانون ملكي. وتطبيق هذا القانون يعطي الملك دوره الحقيقي في أنه رمز الوحدة والحكومة الصالحة.

وقد قبل العالم الهلينستي فكرة الملك المؤلّه (وهذه نقلت إلى الرومان فيما بعد). والملك المؤلّه أصبحت مؤسسة عالمية يومها. وهذا من شأنه تمهيد السبيل أمام الوحدة المطلوبة.

وإذا قبل القول بأن الملك الحق - كان إلهي الصفة، كان باستطاعته أن يعمم الوفاق بين الناس، على اعتبار أن الإله ينشر الوفاق في العالم.

كل هذه الأمور كانت ترمي، في نظر المدرسة الرواقية، إلى التوصل الى الغاية الأسمى، وهي فكرة مدينة العالم، أي ان يصبح العالم بأجمعه جماعة واحدة تملأ حياتها المحبة والألفة. وعندها يترتب أن يعهد بالإشراف على العالم وإدارته لـ«دولة العالم» التي يكون فيها الآلهة والبشر مواطنين متساوين.

مرت ثلاثة قرون بين فتوح الإسكندر المشرق العربي وانتحار كليوباطرة. وقد كانت هذه القرون الثلاثة فترة كانت فيها البشرية المقيمة بين اليونان ومصر غرباً وحوض السند وسمرقند شرقاً، تنبض بالحياة عامة. وكان لذلك كله أثر في تطور البشرية. وقد اقتصرنا في حديثنا هنا على القلب بالنسبة إلى هذه الرقعة لأننا في جزء من هذا

القلب سنلقى قريباً حركة جديدة لم يسبق للتاريخ أن عثر على مثلها.

لعلّ القارىء يظن أننا تمسكنا بأقلية يونانية انتشرت في ربوع بلاد الشام ومصر وتخلينا عن بقية السكان، وهم الأكثرية، الذين شغلوا حتى الدولة السلوقية ورقعة الدولة البطليمية، فضلاً عن الأماكن التي لم يكن للهلينية فيها «قضية مباشرة» ولو أنها ما كانت لتبقى بعيدة عن ضجة تثار وأصوات ترتفع. فعلى الأقل كان هناك تجار يروون في الخانات والأسواق - وحتى في أثناء سير القافلة - أخباراً وقصصاً وروايات وأساطير وأشعاراً، يتندرون بها ويقطّعون الوقت. لكنهم من حيث لا يدرون يحملون الكثير من الأفكار من مكان إلى مكان على نحو ما يحملون السلع من قطر إلى قطر ومن سوق إلى سوق.

ويظل عندنا شيء سميناه من قبل طبقات (الجيولوجية) الاجتماعية التي تنتقل عبرها الترسبات الاجتماعية لتصبح بدورها زاداً أو علاجاً أو سُمّاً للجديد. وعلى الجديد أن يعرف ما يمكث في الأرض وما يذهب جفاء.

الهوامش

(١) سلوقية الشامية هي الجزء الذي ظل تحت حكم السلوقيين بعد انفصال أرض الرافدين وما إلى الشرق منها من حكم الملوك السلوقيين، في القرن الثاني قبل الميلاد.

٥- الإمبراطوريةالرومانية:
الوعاء المكاني والزماني للمسيحيّة

في القرن الثاني قبل الميلاد، وخاصة في نصفه الثاني، دب الضعف والاضطراب والفساد السياسي في الجسمين البطليمي والسلوقي. فضلاً عن الحروب الخارجية التي خاض ملوك الفريقين غمارها مما أنهك المملكتين، قام تنافس ونشأت خصومات داخلية كان أذاها على المملكتين أشد فتكاً حتى من الحروب الخارجية. فهذه أنهكت المملكتين من الداخل وفي الداخل. وزادت المصيبة في فلسطين لأن المكابيين (الذين انتهى أمرهم إلى الأسرة الحشمونية) دمروا وخربوا كثيراً، لا دفاعاً عن استقلالهم ضد السلوقيين، كما كانوا يدّعون، بل تكالباً على السلطة الداخلية.

ولم يكن النصف الأول من القرن الأول قبل الميلاد خيراً من سابقه. فقد استمرت الحروب بين ورثة العرش ودعاته في مصر، وزادت شرة الحشمونيين في فلسطين. هذا فضلاً عن خصومة بين فريقين من الأسرة السلوقية. وكان له ما يقابله من خصومة أسروية في مصر.

كان نجم رومة يرتفع، في هذا الوقت، في الأفق الغربي. فقد تدخلت رومة في شؤون الدولتين اليونانيتي الأصل الشرقيتي الوجود، تدخلت متبرعة مرة ومدعوة أخرى. فلما حمل أنطيوخس الرابع (١٧٥- ١٦٤ ق. م) على مصر وكاد أن يستولي عليها تدخلت رومة وأمرته بالرجوع حفاظاً على دولة البطالمة. ولما ولي عرش السلوقيين طفل (١٦٤ ق.م) طلبت رومة من الوصي أن يدمر الأسطول السوري ويقتل الفيلة (التي كان مركزها أفامية)، فقام الوصي بذلك. فرومة قد أصبحت قوية وكان من الواجب أن تسمع كلمتها.

عزل الإسكندريون ملكهم (١٦٣ ق. م). لكن رومة تدخلت في مصلحته، فانتهى الأمر بأن قسّمت دولة البطالمة إلى قسمين بسبب النفوذ الروماني.

أما في القرن الأول فقد شجعت رومة الحروب بين أصحاب الحق في العرش البطلمي ومدعيه أو المطالبين به ثم جاء الانحياز التام، هنا وهناك، لما وصلنا إلى كليوباترة (٥١ -٣٠ ق. م). وكان أن أغرت هذه اثنين من كبار حكام رومة وسياسييها (أنطونيوس ويوليوس قيصر) وامتنع عنها الثالث (أغسطوس) فانتحرت. وبذلك انتهت دولة البطالمة.

أما دولة السلوقيين فإنها، فضلاً عن الحروب الكثيرة التي أنهكتها، لجأت إلى منح المدن الكبيرة امتيازات مقابل مبالغ كبيرة من المال تدفع للملك. ففي الساحل السوري وحده كانت أرواد وصور طرابلس وعسقلان مثلاً تتمتع بامتيازات شملت التالي: ١. الحرية في اتباع سياسة خاصة، قد تتعارض مع سياسة الدولة وحتى في بعض الشؤون الخارجية. ٢. حرية سك النقود الخاصة، ومعنى هذا استقلال مالي للمدينة. ٣. الحصانة المدينية. فقد كانت بعض المدن (والعدد تزايد مع الوقت) تُمنح حق «حصانة» تمنع الدولة من التدخل في شؤونها. وغالباً ما كان هذا كله ينتهي باستقلال المدينة، أو على الأقل إعلان ذلك. ثم يأتي دور الحرب الداخلية. فقد كانت المدن تعين وريثاً للعرش أو مدعياً بالحق بالعرش على أساس ما يمكن أن يزيد لها من الامتيازات أو من تعميق ما هو قائم.

في هذا الجو القلق المضطرب كان من البدهي أن تقدم رومة على عمل يتجاوز التدخل إلى الدخول. فكان أن يأتي بومبي إلى كيليكية وسورية وأن يحتل فلسطين ويدخل بيت المقدس (٦٣ ق. م) ويخضع من تبقى من الحشمونيين ويزيل دولتهم ويعيدهم إلى دور الكاهن.

وانصرف بومبي سنتي (٦٣و٦٢ ق. م) إلى تنظيم المنطقة كأول قائد روماني صاحب السلطان التام. ولعلّ الذي يهمنا مباشرة هنا (من حيث علاقته المقبلة بالمسيحيّة) هو أنه سمح لهركانوس الحشموني أن يبقى كاهناً وجرده من الملكية، وسمح للأنباط بأن تظل دمشق تحت نفوذهم.

وأصبحت سورية، لا ولاية رومانية فحسب، بل محطة للجيوش الرومانية كي تتوسع شرقاً.

أما مصر فقد انتقلت إلى رومة (٣٠ ق. م). ففي معركة أكتيوم (٣١ ق. م) غُلب أنطونيوس وانتحر، وانتحرت كليوباترة، وأعلن أكتافيوس (أغسطوس) مصر ولاية رومانية.

ومع أن مصر كان من الممكن أن تصبح محطة للقتال جنوباً وشرقاً في جنوب، فإن أغسطوس جرب ذلك مرة عندما أرسل حملة ضد اليمن (٢٤ ق. م) فأخفقت، فاكتفى بذلك. لكن مصر كانت حلقة مهمة في التجارة الرومانية (المتوسطية) مع المحيط الهندي عن طريق البحر الأحمر.

يعود إلى أغسطوس (حكم من سنة ٢٧ ق. م إلى سنة ١٤ م) وضع القواعد والأسس التي قامت عليها الإمبراطورية الرومانية، عسكرياً وإدارياً وحدوداً ومالياً. وبذلك وضع حداً للفوضى التي شملت الدولة الرومانية من شرقها إلى غربها. والذي يهمنا ذكره هنا أن المسيح ولد في بيت لحم في أيام هذا الإمبراطور.

خلف أغسطوس على عرش رومة ثلاث مجموعات من الأباطرة. الواحدة تشمل أباطرة الأسرة اليوليانية (نسبة إلى يوليوس قيصر ومنهم أغسطوس نفسه) وهذه امتد حكمها من (١٤-٦٩ م) ؛ والثانية العائلة الفلافية (٦٩-٩٦ م). أما المجموعة الثالثة فهم المسمون «أباطرة رومة الصالحون». وقد حكم هؤلاء من عام (٩٦-١٨٠ م).

ومن المجموعة الأولى كان ثلاثة من الأباطرة معجبين بترتيبات مؤسس الإمبراطورية فساروا على خطاه باستثناء فتوح في جرمانية وفتح إنكلترا، وذلك تثبيتاً للأمن كما ارتأى هؤلاء. وقد شذ من الباقين كليغلا الذي كانت سياسته مزيجاً من السخف والهراء، ونيرون الذي قال عنه أبوه: «لا شك أنه يورث الدولة مصائب كثيرة». وفي زمنه احترقت رومة، وقد اتهم هو بحرقها كي يتفرج على ألسنة النيران تملأ الفضاء. ولما بحث نيرون نفسه عن مجرم سببَ الحريق وقعت التهمة على المسيحيين، فأوقع بهم من أصناف الظلم والعسف والتنكيل والقتل والتشريد ما يصعب وصفه. وصل بعض الاضطهاد حتى إلى الإسكندرية وغيرها من مدن المشرق.

وجاء دور العائلة الفلافية، ومؤسسها فسبسيان (تولى سنة ٦٩م) الذي كان إيطالياً من عامة الشعب الروماني. وخلفه ابنه تيطس (٩٦-٨١م) الذي قاد الحملة على بيت المقدس لمعاقبة الثوار اليهود. ولما تولى العرش استمرت الحملة، فاحتلت المدينة وهدمت أسوارها وهدم الهيكل. ووضعت في القدس حامية رومانية.

أما الأباطرة الخمسة الصالحون، فبينهم تراجان (٩٨ - ١١٧) وهدريان (١١٧-١٣٨م).

في زمن تراجان احتل الرومان مدينة البتراء وأنشأ هو في منطقة الأنباط[1] وبعض بلاد الأدوميين الولاية العربية التي أصبحت بُصرى عاصمتها. وتراجان اضطهد المسيحيين، ولكن اضطهاده لم يكن بمثل العنف الذي عرفوه أيام نيرون من قبل أو بمثل ما سيلقون فيما بعد.

وهدريان قضى على ثورة قام بها اليهود بقيادة بار كوسبا، وبعد مناوشات جزئية أرسل الإمبراطور قائداً مجرباً فاستعاد منهم القدس ثم حصرهم في نواحي بتير (على مقربة من القدس) وتغلب عليهم وقتل زعيمهم عقيبة في سنة (١٣٥م). ومنع الإمبراطور اليهود من سكنى بيت المقدس وحوّلها مدينة رومانية مظهراً وروحاً وتنظيماً وسماها (إيليا كابيتولينا). وحدث اضطهاد للمسيحيين أيام هدريان.

كما عرف المسيحيون اضطهاداً من آخر اثنين من الأباطرة الخمسة الصالحين، وهما انطونيوس وأوريليوس.

بين سنتي (١٩٣ و٢٣٥م) حكم الامبراطورية رجال (وأولاد أحياناً) متحدرون من صلب سبتيموس سفيروس الذي كان قائداً للجيش الروماني في الدانوب. ومع أنه كان

له منافسون بين قادة الجيوش الرومانية الأخرى، فقد نجح هو في لبس الأرجوان وتوريثه لأفراد من أسرته. وفي زمن هذه الأسرة كانت هناك عناية بالجيش. وفي أيامها قضي على الدولة الفرثية[2] (٢٢٦م) على يد دولة فارسية جديدة هي الدولة الساسانية التي أثارت الحرب جذعة من جديد لاستعادة ما كانت قد خسرته الأولى للرومان. ومنح الأباطرة بعض البلدان الصغيرة والقرى الكبيرة في أجزاء مختلفة من الإمبراطورية بما في ذلك مراكز في الجنوب الشرقي لبلاد الشام، امتيازات. ولم يكن المقصود رفع مستوى هذه المجمعات السكنية، بقدر ما كان المقصود منه تحميلها نفقات إقامة الاحتفالات الرسمية الدينية وغيرها وترتيب المناسبات الرياضية والترفيهية. وفي سنة (٢١٢م) منح الامبراطور كركلا الحقوق الرومانية لجميع السكان الأحرار في الامبراطورية.

في أيام الغابلوس (٢١٨-٢٢٢م) شجع سكان الإمبراطورية على عبادة الإله الشمس، وذلك في سبيل توحيد السكان عن طريق توحيد الديانة. لكن النجاح في الغرب كان محدوداً جداً. أما في الشرق فقد كان الناس يعرفون عبادة الشمس من قبل.

بين سنتي (٢٣٥ و٢٨٤م) شهدت الامبراطورية فترة فوضى سياسية، وتسلّط الجند على شؤون الدولة وضعفاً في الحياة الاقتصادية. وكانت الفرقة الأنشط والأقوى من الجيش هي التي تختار قائدها، وتدور بين المتنافسين حروب دامية في جولات ودورات متعاقبة. وانتشر القراصنة في أجزاء كثيرة من البحر المتوسط وغيره.

في أيام غالينوس ظهر في الأفق الشرقي في الامبراطورية الرومانية أذينة أمير تدمر، الذي ولاه الإمبراطور منصب «دوق الشرق». ولما مات الأمير قامت زوجته زنوبيا بشؤون الدولة بعده، ثم قادت الجيوش ضد الإمبراطورية، فاحتلت بلاد الشام إلى أنطاكية وجنوب تلك البلاد ومصر. وأخيراً تغلب عليها الإمبراطور أورليان (٢٧٠-٢٧٥م) الذي هدم تدمر وقضى عليها دولة ومدينة.

التوتر السياسي والعسكري والاقتصادي الذي شمل الإمبراطورية وشل بعض نشاطها في القرن الثالث، عالجه ديوقلتيان (٢٨٤-٣٠٥م) وقسطنطين (٣٠٦-٣٣٧م) ولكن بأسلوبين مختلفين: الأول كان عسكرياً إدارياً منظماً. فوضع أسس التنظيم الإداري الجديد، الذي لا تهمنا تفاصيله، وضبط أمر الجيش في المركز والحدود، ووضع قواعد اقتصادية لضبط الأسعار والتقليل من النفقات غير النافعة. ولعل من خير ما فعله مالياً هو العودة إلى سك النقد الذهبي والفضي من جديد، فأعاد للسوق قيمتها داخلياً وخارجياً. وعمل قسطنطين على إتمام ما شرع به سلفه من محاولة لإحياء نشاط الامبراطورية الاقتصادي وتنشيط الحياة الاجتماعية.

ومن وجهة النظر التي نعنى بها هنا، فهناك خلاف رئيسي بين الاثنين. فديوقلتيان اضطهد المسيحيين اضطهاداً قاسياً، أما قسطنطين فقد اعتنق المسيحية واعتبرها واحداً من أديان الإمبراطورية الرسمية (٣١٣م). لكنه، على ما يبدو، عاد في سنة (٣٢٤م) فاعتبرها ذات مكانة خاصة فاستوحى تعاليمها وآراءها في الكثير من التشريعات والأنظمة. لكن المسيحية لم تصبح دين الدولة الرسمي إلا سنة ٣٨٠م. لكن الشيء الواضح هو أنه أراد أن تكون المسيحية (والكنيسة بطبيعة الحال) تحت حمايته بشكل من الأشكال، على ما سنوضح ذلك فيما بعد.

بنى قسطنطين مدينة جديدة هي القسطنطينية، مسيحيّة الطابع والصورة، حيث كانت تقوم بزنطية، واتخذها عاصمة له. ولعلّ هذا هو نقطة الابتداء في تقسم الإمبراطورية الى شرقية وغربية.

لكن هذا الانقسام تم سنة ٣٩٥م، إذ قسّم ثيودوسيوس (٣٧٩-٣٩٥م) الامبراطورية بين ابنيه، فحكم هنوريوس الغرب من رومة، واستمر حكم أباطرة الغرب إلى ٤٧٦م حين قضى البرابرة على الامبراطورية الرومانية (الغربية) رسمياً.

أما في الشرق فقد تولى أركاديوس الحكم (٣٩٥-٤٠٨م) وتبعه ملوك كثيرون على عرش الامبراطورية الرومانية الشرقية، التي يغلب عليها تسميتها بالامبراطورية البزنطية. ومن حيث علاقتنا المباشرة بها تعنينا الآن إلى نهاية حكم هرقل (٦١٠ - ٦٤١ م). لكن الامبراطورية البزنطية ظلت قائمة، مع صعاب متنوعة، حتى سنة ١٤٥٣م حيث قضى عليها الأتراك العثمانيون.

ولنمرّ، في سبيل وضع أسماء الأباطرة الذين سيكون لهم نصيب في بحثنا، بشيء من تاريخ الامبراطورية البزنطية السياسي. فمنهم يوليان، المعروف بالجاحد، لأنه بعد أن أصبح من المألوف أن يكون أباطرة بزنطية مسيحيين، فقد آثر هذا أن يعود الى الوثنية وأن يضطهد المسيحيين. قد حكم سنتين (٣٦١-٣٦٣م). ومنهم تيودوسيوس الذي قسم الامبراطورية سنة ٣٩٥م وهي تعتبر حداً فاصلاً في التطور السياسي: أولاً، لأنها وضعت نهاية لهذه الميوعة السياسية التي كانت تعرض قسمي الامبراطورية للحروب والمنازعات؛ وثانياً، لأنها يسرت للدولة الشرقية أن تتفرغ لمقارعة الساسانيين جيرانها الشرقيين الجدد (٢٢٦ - ٦٤١ م).

ومن الأباطرة زينون (٤٧٤ - ٤٩١ م) وأثناسيوس (٤٩١ - ٥١٨ م) ويوستينوس الأول (٥١٨- ٥٢٧م). والاثنان الأخيران كانا قويين مدركين معنى الحكم وأهميته وقيمه المدنية التي كانت العناية بها من واجبات الامبراطور. فضلاً عن أن أثناسيوس أصلح النظام المالي بعض الشيء وخفف الضرائب التي كانت تثقل كاهل المكلف. وقد يسر هذان الملكان ليوستنيان (٥٢٧ -٥٦٥ م) أوضاعاً ملائمة للحكم الجيد فكان هناك

ملك منظم وجيش معد إعداداً جيداً ومال مدّخر.

ومن الأمور التي افتخر بها يوستينان ومحازبوه القدامى والمحدثون هو استعادته شمال إفريقية وجزءاً من إيطاليا (بقطع النظر عن التفاصيل) إلى حظيرة الإمبراطورية. أما نحن فنرى أن هذه الأعمال كانت شراً على الدولة. فقد استنزفت من مالها الكثير، فأفقرتها. وأنهكتها الحروب فلم تستطع أن تحافظ على الحدود الشرقية على النحو الصحيح. هذا مع العلم أن الرجل زيّن العاصمة بمبان جميلة لعلّ أفخمها كنيسة أيا صوفيا (القديسة صوفيا).

بدت على الإمبراطورية البزنطية، فيما تبقى من القرن السادس والسابع، أمارات الضعف والعجز بسبب الاضطراب المالي. ومع الاضطرابات الداخلية تمكن الساسانيون من الدولة حتى في أيام هرقل (٦١٠- ٦٤١ م)، وهو من أقدر من تولى الحكم، لكنه جاء في الزمن الخطأ. قاتل خصوم الإمبراطورية في جهات مختلفة وعلى جبهات متعددة. لكن خصومته مع الساسانيين كانت الأشد. فتمكن هؤلاء من الاستيلاء على بلاد الشام ومصر. صحيح أن هرقل عاد فتغلب عليهم واستعاد الأرض المفقودة، لكنه لم يستطع أن يقاوم الجيوش العربية الاسلامية لما تقدمت في بلاد الشام بعد اليرموك (٦٣٦م) واتجهت بعدها نحو مصر فسقطت الإسكندرية بأيديها (٦٤١م).

ولم يقف الساسانيون في مواجهة الجيوش نفسها. فاحتلت فارس، بعد أرض الرافدين، وقضت على الدولة في معركة نهاوند سنة (٦٤١م).

في سنة واحدة مات هرقل، وخسرت دولته بلاد الشام ومصر، وقضي على فارس!

الهوامش

(١) قامت دولة الانباط، وهم عرب، في القرن الثالث قبل الميلاد في المنطقة الجنوبية من الأردن الحالية وبعض من أراضي شمال الحجاز. كانت عاصمتها البتراء. وفي سنة ١٠٦م احتل الامبراطور الروماني تراجان البتراء وقضى على دولة الأنباط. وأقام مكانها الولاية العربية بعد أن ضم إلى هذه بعض بلاد الأدوميين (وهم أيضاً شعب عربي) وجزءاً من بلاد حوران وجعل عاصمتها الإدارية بُصرى (التي كانت تعرف أيضاً باسم بصرى أسكي شام في أيام الدولة العثمانية).

(٢) الدولة الفرثية أو الفارثية قامت في فارس القديمة بعد أن استقلت عن الدولة السلوقية. يرى الباحثون المحدثون أنها قامت في أواسط القرن الثاني قبل الميلاد، وكانت على خصومة مع الرومان لما دخلوا سورية. وكان القتال يدور حول أرض الرافدين. وفي السنة ٢٢٦م قضى الساسانيون، وهم فرس أيضاً، على الدولة الفرتية / الفارتية، وورثوا الحرب مع الرومان ثم مع البزنطيين. وقد قضى على هذه الدولة العرب سنة ٦٤١م.

٦- المجتمع الذي تلقّى المسيحيّة

اذا امعنا النظر في خريطة المنطقة في القرن الأول قبل الميلاد، محاولين تقري التوزع العنصري، إذا صح التعبير أو جاز، فإننا نجد، على نحو ما مر بنا، أن العنصر السامي – الجزري (العربي) الأصل هو العنصر السائد في المنطقة. ولكن مع تبدل الأجواء الطبيعية على بعض هذه الجماعات، فقد تبدلت بعض الخصائص.

وعلى كل، فإن مناطق محددة معينة كان يسيطر عليها العرب عنصراً أو لغة. وأولها بطبيعة الحال الجزيرة بأكملها، ولو أن بعض الفروق اللغوية بين الجنوب والشمال كانت بارزة. أما خارج الجزيرة فقد كان للعرب وجود قوي المعالم واضح الأثر في الأجزاء التالية.

كانت إديسًا وما حولها في المنطقة المسماة أوزروني (أورهاي)[١] تحت نفوذ عربي منذ القرن الثاني قبل الميلاد. وحري بالذكر أن هذه الإمارة ظلت قائمة حتى القرن الثالث بعد الميلاد. ويجدر بنا أن نتذكر أن هذه الجماعة كانت الأهم بين الجماعات التي وطّدت نفوذها وسلطانها في أرض الرافدين عبر نهر الفرات. فضلاً عن ذلك فقد كانت واحداً من أكبر مراكز الثقافة الآرامية في المنطقة، وقد كان تأثرها بالهلينية ضعيفاً.

ومثل ذلك يقال عن سلطة انتشرت الى الجنوب من جبال طوروس في منطقة أنطاكية. هذه الجماعة العربية كان لها أمير يدعى عزيز. وقد لعب هذا دوراً مهماً في أيام السلوقيين الأخيرة.

وقد وردت أخبار موثوقة عن إمارات وزعامات عربية صغيرة الى الشرق من إمارة عزيز المذكورة.

وهل يمكن أن ننسى عرب تدمر والدور الذي مثلوه حتى قبل أيام الرومان؟ (وسنعود إلى تدمر والتدمريين فيما بعد).

وقد قامت في حوض العاصي في حمص وأرتوزا (الرَسْتَن) جماعة عربية كبيرة. هذه كانت حليفة الأمير عزيز، الذي كانت جماعته تقوم إلى الشمال منها.

هذه الجماعات الخمس كانت ذات نفوذ كبير، وأربع منها كانت تسيطر على القسم الأكبر مما كان دولة السلوقيين السورية.

فضلاً عن هذه، فقد كانت ثمة إمارات في ما كان من قبل جزءاً من دولة البطالمة الى أن ضمّه السلوقيون الى دولتهم. ومن هذه الجماعات الإيطوريون الذين عرفوا حتى قبل أيام الاسكندر، إذ كانوا حكام لبنان وأنتيلبنان (أي لبنان الداخلي). وقد توسعوا فيما بعد الى البطنية وحوران.

وهل من الممكن أن ينسى واحدنا الأنباط وما كان لهم في البتراء ومدائن صالح وسواهما.[٢]

كان للأدوميين دولة في جنوب فلسطين الى الغرب من البحر الميت، إذ إن الانباط ضغطوا عليهم فأجلوهم عن أرضهم غرباً. وكان ذلك في القرن الرابع قبل الميلاد.

وثمة العرب الذين كانوا قد أوجدوا لهم كيانات في الأرض الواقعة بين البحر الأحمر والنيل (وفي أيام البطالمة سميت المنطقة العربية) ثم في الفيوم عبر نهر النيل، وأخيراً في أرض طيبة.

فقد أقام العرب لهم وجوداً في مصر في أزمنة قديمة، ولا يقل وجودهم في أرض الرافدين عن ذلك قدماً وأهمية. أما أرض الرافدين فقد غلب عليها العنصر العربي في الفترة التي تعنينا.

لنعد الى الأنباط والتدمريين بسبب الأهمية التي تعود اليهم. ففي القرن الثالث قبل الميلاد كان الأنباط «يعيشون في أرض غير ذات زرع؛ فالمنطقة جافة قاحلة، والماء قليل. ومن عاداتهم أن لا يزرعوا الحبوب ولا أن يغرسوا الشجر ولا أن يبنوا بيوتاً... يقوم بعضهم بتربية الإبل ويعنى آخرون بالأغنام. ومع أن المنطقة تقطنها قبائل عربية غيرهم، فإن الأنباط يفوقونهم ثراء، في حين أن عددهم لا يتجاوز عشرة آلاف (نسمة؟). فجماعة منهم ينقلون البخور وأنواعاً من التوابل والأفاويه – يأخذونها من الذين يحملونها من أقطار نائية ويقومون ببيعها في الموانىء البحرية».

أما في القرن الأول قبل الميلاد ومطلع القرن الأول بعده، فقد كتب عنهم استرابون الجغرافي اليوناني (نقلاً عن صديقه أرثودوروس الذي كان قد قضى سنوات في البتراء) ما يأتي: «عندما يترك المرء ولاية سورية فإن أول شعب يقابله، في المنطقة الواقعة الى جنوبها، هم الأنباط. وقد جاء عليهم وقت كانوا فيه سادة دمشق وما والاها من سورية. ومدينتهم الكبرى هي البتراء (التي) تقع في منبسط من الأرض، لكنها محاطة من جميع جهاتها بالصخور الوعرة التي تنحدر نحو الخارج انحداراً شديداً. أما الجزء المنبسط (في الوسط) ففيه عيون وينابيع كثيرة. كما أن أهلها جاءوا بالماء من ينابيع مجاورة...».

ولسنا ننوي التحدث عن صناعة الأنباط وتجارتهم ونظام حكمهم، ولكننا نود أن نشير فقط الى أن هذه المدينة العربية النائية، كما يبدو للناس، كانت قد امتصّت

كثيراً من مدينة الجوار اليونانية (والرومانية الى درجة أقل فيما بعد) فكانت مدينة هلينستية في فيافي البادية الأردنية. وكان سكان البتراء، فضلاً عن أهلها العرب أصلاً، يشملون فئات تتكلم الآرامية واليونانية واللاتينية والعبرية.

بلغت تدمر ذروة المجد في القرنين الثاني والثالث للميلاد. لكن الأصل في تقدم المدينة يعود الى كونها محطة مهمة على طريق تجاري. وبدأت تجارة تدمر والتدمريين العرب تلفت الانتباه في الألف الأول قبل الميلاد (إن لم يكن ذلك في أواخر الألف الثاني ق.م) لكنها بدءاً من حوالى ٣٠٠ ق.م أصبحت جزءاً من امبراطورة السلوقيين. وكان للسلوقيين مدينتان كبيرتان سلوقية على دجلة (عاصمة الامبراطورية الأولى وظلت العاصمة الشرقية) وأنطاكية العاصمة الثانية والأساسية. وكانت تجارة الخليج العربي تتقوى تدريجاً. فأفادت تدمر وسكانها من هذه الأمور، ولمع اسمها وزادت ثروتها فبنت وقويت وسيطرت على الطرق والتجارة.

وفي مكان يبعد نحو ١١٠ كلم عن الموصل جنوباً في غرب نشاهد آثار مدينة الحضر. وهي مدينة شيدت أبنيتها بالحجر المهندم وزخرفت بالتماثيل وغيرها. قامت الحضر في منطقة «بادية لا تتوافر فيها المياه الجارية ولا الزروع الوافرة. وشأنها في هذا شأن تدمر والبتراء وغيرهما من المدن الصحراوية التي نمت وازدهرت في ظرف خاص ملائم لوجودها في أماكن منعزلة...». وكانت الحضر عاصمة لمملكة عربية بلغت حدودها دجلة غرباً والفرات شرقاً، وجبال سنجار شمالاً ومشارف المدائن جنوباً. إلا أن نفوذها امتد في الشمال الى ما وراء سنجار فوصل الى الخابور ونصيبين[٣]. وقد كانت هذه الدولة تتمتع بالاستقلال الذاتي في إطار دولة الفرثيين (البرثيين). وقد حكمت هذه الدولة بين سنتي ٢٥١ ق.م. و٢٢٦ م.

هذه الدولة العربية التي تمحورت حول الحضر، مثل بقية الإمارات العربية والمشيخات والقبائل التي أشرنا اليها، لعلها تعود جميعها إلى واحدة من الموجات العربية التي خرجت من الجزيرة وانتشرت في بادية العراق الشمالية وامتدت شمالاً الى نصيبين وديار بكر وإلى منطقة إديسًّا (الرها) وإلى سهل انطاكية. وقد كان انتشار العنصر العربي وسيطرته قوية حتى إن المنطقة أصبحت تعرف باسم عَرَبايا في نقش بِهستون وفي الكتابات والنقوش الآرامية والكلاسيكية فيما بعد.

وبسبب هذه الدفقة البشرية إلى تلك الجهات وسواها (في بلاد الشام) قامت هذه الإمارات التي أشرنا اليها.

هذه الخريطة التقريبية للتوزع السكاني ومراكز التهَلّيُن في مصر وبلاد الشام، تقتضي، كي يَتم توضيحها أن نتحدث قليلاً عن اللغات التي كانت شائعة في منطقتنا. ذلك بأن بعض أوجه الخلاف الذي ظهر في المسيحية فيما بعد، كان مبعثه اللغة التي استعملت لتفسير الآراء اللاهوتية المسيحية على ما سيمرّ بنا.

ولعلنا لا نعدو جادة الصواب عندما نقرر أن الجزيرة كانت عربية اللغة حتى قبل المسيح. ذلك بأن هذه اللغة التي نظم بها الشعر العربي الرائع الذي ورثناه عن العصر الجاهلي، واللغة التي أوحي بها القرآن الكريم، لم تكن بنت فترة قصيرة في تطورها ونموها. فاللغة العربية هذه كانت لغة مرنها الناس وحذقها المتكلمون وطوّرها الخطباء وهذّب الشعراء حواشيها عبر زمن طويل. فاللغة العربية كانت اللغة الغالبة على الجزيرة وعلى المناطق التي سكنها العرب في أرض الرافدين وبلاد الشام ومناطق مصر في تلك الأزمنة السابقة للميلاد.

ومع أننا عثرنا على نقوش كثيرة في جنوب الجزيرة وعلى عدد أقل في جهات أخرى (حتى الآن) فإننا لم نقع بعد على ما يكفي للدلالة على مدى انتشار الكتابة. ولعل الايام تكشف عن ذلك عندما تمتد أعمال التنقيب الأثري الى جهات لم يصل اليها رفش أو معول بعد.

ونحن لا نشك في أن العربية ظلت لغة الأسر الحاكمة والجماعات المحيطة بها في الجهات التي أنشأت لها فيها دولة وسلطاناً. لكن اللغة التي كانت قد انتشرت في أرض الرافدين وبلاد الشام، بدءاً من القرن الرابع عشر قبل الميلاد وعلى مدى الزمن، هي اللغة الآرامية. وهي لغة سامية من الأسرة نفسها التي تنتمي إليها اللغة العربية. هذه اللغة أصبحت، في أزمنة متلاحقة، وبسبب تطور في الخط والكتابة يسّرا لها الانتشار، اللغة الرسمية في المنطقة بأسرها، بقطع النظر عن الدولة الحاكمة، كما حدث في أيام الكلدانيين والفرس القدامى. وهي تجذرت مع الوقت حتى أصبحت لغة القوم في مجالات الحياة المختلفة. وقد وضع أدب كثير باللغة الآرامية لأنها كانت لغة التعبير الشعبي وغير الشعبي. حتى الجماعة اليهودية التي كانت تعيش في القدس وما حولها كانت تستعمل الآرامية في حياتها العادية.

أما اللغة العبرية فقد تقلص ظلها كثيراً في تلك الفترة، ومع أن بعض أسفار العهد القديم كتب ولا شك بالعبرية، فإن الآرامية وصلت، بين يهود جزيرة الفيلة في مصر، الى الأدب الديني.

وقد مرّ بنا عن اللغة اليونانية من حيث أنها لغة الحكم والقانون والعلم والأدب، وأن أبناء البلاد كتبوا أدبهم بها ما يكفي، فلسنا بحاجة الى التكرار.

بقي أن ننتقل الى مصر لنرى ما الذي تمّ فيما يتعلق باللغة في الفترة السابقة للميلاد. أما فيما يتعلق باليونانية، فالأمر لا يختلف عمّا كان عليه في بلاد الامبراطورية السلوقية. بل هناك خبر حريّ بالاشارة اليه: وُجد أنه من المناسب، كي يستطيع يهود الاسكندرية (وغيرهم) من قراءة العهد القديم من الكتاب المقدس، أن يترجم هذا الى اليونانية. وهذا ما حدث فعلاً.

أما اللغة التي كان المصريون يستعملونها ويكتبونها الى ذلك الوقت، فهي اللغة المصرية القديمة التي تطورت الكلمات والتركيبات اللغوية فيها كثيراً منذ أيام

الفراعين، لكن التطور الأكبر هو الذي اصاب الكتابة.

فالكتابة الهيروغليفية القديمة، المبنية على الصور، كانت صعبة، ومن ثم فإن عدد الذين كانوا يتعاملون معها كان محدوداً. ولعلّ القائمين على أمرها من الكهنة وأهل البلاط كانوا يرغبون في الحفاظ على هذه الصعوبة لأنها تسمح لهم بحكر ميادين المعرفة، مهما كان نوعها. وقد أصبحت هذه الكتابة، مع الزمن، كتابة مقدسة.

ومع أن الدور الثاني، إذا جاز التعبير، في تطور الكتابة المصرية هو الدور الهيراطيقي، كان أقلّ تعقيداً من الكتابة القديمة (الهيروغليفية). فقد استعمله الكهنة في تدوين الوثائق الرسمية والملكية، وانحصر استعماله، فيما بعد، في كتابة الصلوات والطقوس الدينية.

اتضح، مع مرور الزمن، أن كلاً من نظامي الكتابة المذكورين صعب ومعقد، حيث أصبح من العسير على الرجل العادي أن يطابق بين التلفظ بالحروف والنطق بها. ثم جاء دور الكتابة الديموطيقية، وهي أقل صعوبة مما سبق.

ولما جاء اليونان إلى البلاد، وأخذت لغتهم تحظى بعناية مثقفي مصر، أصبح من الطبيعي أن تُطوَر الكتابة حيث يمكنها أن تفي بالحاجات الجديدة. وهنا اتضح أن الكتابة الديموطيقية، مع تخطّيها الدور التصويري من الكتابة القديمة، ما تزال صعبة، فجرب الكتّاب اللغة اليونانية (كتابة). ولكن تبين أن الألفباء اليونانية لا تكفي لكتابة النصوص المصرية. لذلك ضم الكتّاب سبعة حروف من الكتابة الديموطيقية الى الألفباء اليونانية لحل هذه المشكلة. ومن ثم فإنه يمكن القول بأن اللغة القبطية هي الدور الأخير من تطور الكتابة المصرية (أي الديموطيقية) حيث يمكن استعمالها إما لكتابة جديدة أو لنسخ كتابة قديمة.

ومع أن من الصعب تعيين الزمن الذي تم فيه هذا التغيير، فإنه من المفيد أن نتذكر أن أول وثيقة مصرية يعرف عنها أن نسخت باليونانية هذه قد كتبت قبل الميلاد بنحو قرن ونصف القرن، وأن التطور استمر بعد ذلك.

وهنا موضع لملاحظة مهمة. إن اللغة الآرامية التي انتشرت في الأصقاع التي أشرنا اليها، هي، لما تنصرت، أصبحت تسمى السريانية (مع بعض خلافات لغوية لا تمسّ الجوهر). ومن هنا نلاحظ الإشارة الى السريانية كلغة تتعلق بالمسيحية، ويشار اليها، في كثير من الكتب الأجنبية على أنها (أي السريانية) هي اللغة التي استعملت في المناطق والجهات التي تغلب عليها الثقافة الآرامية مثلاً.

الهوامش

(١) اوزروني (أورهاي) تشمل شمال غرب أرض الرافدين وجزءاً من منطقة دياربكر (في جنوب شرق آسية الصغرى). وكانت الرُّها (إديسّا) عاصمتها.

(٢) راجع .Shahid, Irfan, *Rome and the Arabs*, Washington D.C. 1984 (passim)

(٣) الخابور أحد روافد الفرات الكبيرة، يصب فيه من الشرق. ونصيبين مدينة تقع في الجزيرة الفراتية.

الفصل الثاني

المسيحية الى حوالى عام ٣٠٠ للميلاد

١- فلسطين والقدس

عرفنا، مما مرّ بنا، أن الهَلّيَنة كانت أصلاً عمل تمدين. فقد قبس الناس في المدن، أساليب المعيشة اليونانية، وأصبحت اللغة اليونانية لغة أهل الثقافة. ووصلت هذه الأمور حتى إلى المدن التي كانت موجودة أصلاً، أي المدن القديمة مثل مدن فينيقية وفلسطين بما في ذلك القدس.

وكانت القدس تعيش نشاطاً فكرياً قوامه ما يخص الدين اليهودي. فإن الاستقرار الذي عرفته فلسطين أيام البطالمة (في القرن الثالث قبل الميلاد) كان له أثر من حيث تأكيد أهمية التوراة على أنها المصدر الأصلي لجميع النواحي الشرعية والطقسية بالنسبة إلى اليهود. والتوراة المقصودة هي التي صيغت بشكلها النهائي (أو شبه النهائي) في أثناء الحكم الفارسي للبلاد. ومن هنا أصبح أي تبديل في مضمونها شراً لا يجوز السماح به. وتقوّى بسبب ذلك مركز الكاهن الأعظم وخاصة لجهة الوراثة فيه. وبسبب ارتفاع أهمية المنصب، أصبح موضع منافسة قوية بين الطامعين في النفوذ بالنسبة إلى الجماعة الدينية اليهودية في بيت المقدس.

كان من مظاهر النشاط الفكري (الديني) في المدينة المقدسة أن تؤوي عدداً من المدارس الحِكميّة. وإذ كان بإمكان اليهود الاتصال بمن بقي منهم في بابل، ومن رحل إلى مصر، ومن وجد في سورية، أخذت حركتهم تنشط بسبب هذا الاتصال، فضلاً عن أن اليهود كانوا يزورون القدس للحج والتبرك.

كان من الممكن الإفادة من هذا الجو بأن يقوّى ليتقبّل العناصر الهلينية الأصلية، خصوصاً أن كثيرين من سكان القدس، ومن اليهود بالذات، كانوا مستعدين لقبول هذه العناصر الحضارية الجديدة. فأهل الطبقة العليا في المدينة (وفي سواها) كانوا دائمي الاتصال بكبار الموظفين وأثرياء التجار الذين كانوا يمثلون المصالح البطلمية الرسمية والمالية.

لكن الإدارة السلوقية كانت لها نظرة مختلفة. إذ إن سلوقس الرابع (١٨٧-١٧٥ ق.م) اختصم مع الكاهن الأعظم حول فرض ضرائب جديدة. ولما تولى الحكم أنطيوخس الرابع (١٧٥-١٦٤ ق.م) اشتدت الخصومة مع الملك الكاهن الأعظم (منلاوس). وبدأت أصوات التذمر من مطالب أنطيوخوس المالية الكثيرة تتصاعد، لا

في بيت المقدس وحدها، ولكن حتى في عدد من مدن فينيقية الغنية.

أرسل الملك أحد قواده الى القدس لتهدئة الاضطراب فيها فاحتل المدينة، وعاقب المؤيدين للنقمة، وهدم الأسوار وبنى القلعة، ووضع فيها جنوداً للدفاع عن مصالح الدولة. أصبحت القدس مستعمرة عسكرية، وفيها كل مظاهر الهلينة. ثم أقيم فيها هيكل لزفس الأولمبي.

قامت ثورة المكابيين ضد الحكم السلوقي (١٦٧ ق.م). وقد كان الثوار بطاشين سفاكين للدماء، وكان العقاب الرسمي شديداً. لكن الذي ذاق الأمرين هو الشعب، ولم يكن كله يهودياً. فقد أتت المعارك المتعددة الضارية على الحرث والضرع. وزادت الصعوبات لما اشتد التنافس بين أفراد الأسرة الحشمونية (المكابية)، ثم لما ثار الفريسيون على المكابيين بسبب تطرف هولاء، وأيد الفريسيين في حركتهم سكانُ المنطقة بقطع النظر عن العنصر أو الجهة أو الدين.

وظل هذا التقتيل والتدمير مستمراً حتى وصل بومبي الروماني في سنة (٦٣ ق.م).

كان في القدس وفي أرباضها ثلاث جماعات أو فرق يهودية، هي التي تمخضت عنها الأحداث والفلسفات والتفسيرات الدينية وهي: الصدّوقيون والفريسيُّون والغُلاة (أو الغيارى) وقد يسمون القانَويّين أيضاً (والقانَويّ هي الكلمة الآرامية التي تعني المغالي والغيور).

الصدوقيون- كان هؤلاء يمثلون الشريحة الأعلى من الجماعة الدينية اليهودية، وكانوا يرون أنفسهم النخبة المختارة، ويمثلون حزب الأثرياء ومناصري الكاهن الأعظم والأسر النافذة في القدس والمنطقة المجاورة. ومنهم كان يختار الكاهن الأعظم.

كانوا نبلاء في الواقع، إذا كان ثمة نبلاء، وكانوا محافظين ومن ثم شديدي الحرص على الشريعة، كما كانوا خصوماً لكل تجديد مهما كان اتجاهه. وكانوا خصوماً أشداء لبعض من كان يدعي أن بعض نواحي التجديد هو نتيجة تفسير جديد للتوراة.

كان الصدوقيون أصحاب النفوذ السياسي والديني بين سنتي ١٣٤ و١٠٤ ق.م. واستمروا في ذلك فيما بعد حتى حول ٦٥م. ومن ثم فقد تزعموا الجماعة الدينية في بيت المقدس وأرباضها. ومع أنهم كانوا فرقة قوية، فإنه لم يكن لهم تنظيم سياسي معين يتناسب مع عملهم أو دورهم في السياسة وحتى القيادة. ولذلك نلاحظ أنهم كانوا قد ذابوا أو أوشكوا على ذلك في السنوات القريبة من أيام المسيح.

الفرّيسيون: كان هؤلاء في النصف الثاني من القرن الأول قبل الميلاد فرقة أو جماعة لا يتجاوز عددها ستة آلاف نسمة. وكلمة فريسيّ مشتقة من كلمة بارش الآرامية التي تعني الشخص الذي يعتزل الآخرين، مما قد يدل على أن هذه الفرقة كانت جماعة دينية تحافظ على التقوى وتحرص على تطبيق أحكام الشريعة المتعلقة

بالطعام والطهارة الطقسية بشكل خاص. وكانت الصفة الغالبة عليهم العلمانية لا الكهنوتية الرتيبة المتزمتة. وكانوا أقوى وأبعد نفوذاً في المدن والبلدان منهم في الريف. بل إنهم كثيراً ما كانوا يعتبرون أنفسهم فئة خاصة تترفع عن أهل الريف والفلاحين.

ويرى بعض الباحثين أن الصدوقيين والفرّيسيين كانوا يشكلون حزبين سياسيين يطمع كل منهما في الحصول على السلطة والنفوذ. لكن يبدو أن أياً منهما لم يقم نظاماً يمكنه من الوصول إلى ما يريد، فأخذ نفسه بتأييد صاحب السلطة القوي الذي يعجبه. فالصدوقيون والفريسيون أيدوا ملوكاً مختلفين من الأسرة المكابية.

الغلاة أو الغيارى (أو القانويّون) - كان هؤلاء أقل عدداً حتى من الفرّيسيين، ودامت حركتهم مدة أقصر. ويبدو أنهم كانوا من الجماعات التي تظهر عند أزمة معينة أو أحداث خاصة، ولكنها تذوب عند زوال الحاجة. وقد شغل هؤلاء بالاغتيال وما اليه دفاعاً عن الشريعة.

وأظهرت «مخطوطات البحر الميت»[1] التي اكتشفت أول ما اكتشفت سنة ١٩٤٧م واستمر الكشف عن مثيلاتها ودراستها حتى يومنا هذا وجود جماعة سمّيت الأسينيّين. هذه المخطوطات عثر عليها في قمران وبار كوسبا ومسادة (مسعدة) وغيرها في جهات البحر الميت. وأحسب أن تسميتها «مكتبة قمران» أمر فيه الكثير من الدقة.

ونحن لا نريد أن نتحدث هنا عن الأدب الديني والقانوني الذي أظهرته هذه المخطوطات، فذلك أمر لا يهمنا هنا. لكن ما دمنا قد أشرنا الى الصدوقيين والفريسيين والغلاة الذين ظهروا في القدس وجوارها بسبب اتصالهم، ولو من بعيد، بظهور المسيحية، فإننا نرى أن نتحدث هنا عن الإسينيين إذ إن بعض آرائهم قد يكون له علاقة بالموضوع نفسه.

والأدب الذي عثر عليه في مكتبة قمران هذه يحتوي على قوانين هي التي كانت وجهات نظر هذه الجماعة؛ وفيه نصوص شعرية ابتهالية وحكمية؛ وفيه تعليقات وهي تفسيرات لأسفار متعددة من العهد القديم؛ ثم هناك أشياء متفرقة كثيرة لعل تسميتها «المتنوعات» لا تؤذيها ولا تسيء إلى أحد.

هذا الأدب، على ما يبدو، وضعه الإسينيون أنفسهم. والإسينيون اعتزلوا عالم الناس وأقاموا في شبه عزلة في منطقة تصاقب البحر الميت للجهة الشرقية. ويبدو أن هذه الجماعة أرادت أن تهتدي إلى «سبيل الكمال».

فهي، من الناحية الواحدة، تعتبر نفسها حامية للشريعة (الأصلية) ولذلك كانت تتشدد في قبول الأعضاء الجدد. وكانت ترى نفسها أنها «الجماعة القدسية» (أي الجماعة بالغة الكمال). وكان الكهنة فيها يتصدرون الجماعة [في المرتبة الأولى]

وهؤلاء الكهنة متحدرون من آل صدوق. فهم كانوا فرقة دينية بالمعنى الصحيح. وبقطع النظر عن تقاليدهم ونظمهم، فإن السؤال الأساسي هو لماذا خرجت هذه الفئة الى هذه المنطقة الصحراوية وعاشت بعيدة عن المجتمع؟

يبدو من إشارات في أجزاء من المخطوطات التي عثر عليها أن الجماعة أصابها يأس بسبب التصرفات السياسية الخاطئة التي ارتكبها المكابيون- زعماء الثورة ضد الفساد السلوقي. ولذلك كان خروجها احتجاجاً على أولئك الذين تصدروا للإصلاح فوقعوا في الشر.

فكان الأمر في رأي الجماعة، أن الشر قد عمّ وأن أنواع الظلم والتنكر للمبادئ انتصرت، وأن الناس ابتعدوا عن طريق الله الحق. وعادت إلى الجو فكرة المسيّا (المشيح)[٢] المخلص المنتظر. وجاء المعلم البارّ، الذي وعظ الناس بأن العالم قد اقتربت نهايته، وأنه يجب على الناس اعتزال العصبة الشريرة، وإعداد أنفسهم لليوم الأخير والقيام بعبادة الله عبادة صالحة منتظرين النهاية بقلوب مؤمنة.

انسحب الإسينيون الى صحراء القدس – البحر الميت، وأقاموا هناك من حوالى سنة ١٥٠ ق.م الى حوالى سنة ٦٦م. وفي هذه الفترة دوّنوا هذه المكتبة الكبيرة التي لم نر نهايتها بعد.

يبدو أن الحركة الإسّينية لم تكن ذات صلة بالأحداث السياسية والعسكرية التي قامت في البلاد والتي لم يوافق الإسينيون عليها، بل بالتطورات الفكرية الحضارية التي كانت آخذة برقاب البلاد يومها.

فقد كانت حركة التَهَلّين، كما رأينا، قد قويت جذورها في ذلك الوقت، وفي القدس بالذات. كانت ثمة مقاومة لها، ثم عنفت المقاومة ولجأت إلى السلاح. والحركة الإسينية كانت، في الأصل، نوعاً من المقاومة للحركة الهلينية. لكن أفرادها لم يكونوا إلى جانب العنف واستعمال السلاح للمقاومة. ولما أخفقت في نقل أفكارها وآرائها إلى الباقين تاركة الحرب والعنف جانباً، خرجت محتجة معتزلة. وفي عزلتها دوّنت ما يمكن أن يعتبر المقاومة السلمية الفكرية للهلينية.

في الصفحات السابقة رسمنا الإطار الجغرافي للمنطقة التي انتشرت فيها المسيحيّة في الفترة السابقة للإسلام، وحرصنا على تقصي، وبشكل مقتضب بطبيعة الحال، مَنْ عبرها ومن دخلها من الشعوب والأمم ومن أقام فيها من شعوب، والطريقة التي تعاملت معها هذه المنطقة، والآثار التي خلّفتها، في اللغة وغيرها.

ولما شعرنا بأننا نقترب من زمن ظهور المسيحيّة، رأينا أن نولي العصر الهلينستي شيئاً من العناية تفوق ما أوليناه لغيره. وذلك لأسباب كثيرة: أولها أن وصول اليونان، مقدونيين وغيرهم، إلى المنطقة كان بأعداد كبيرة؛ وثانيها أن هذه الجماعات،

باستثناء أعداد صغيرة، استقرت في البلاد وأصبحت جزءاً من السكان؛ وثالث هذه الأسباب هو أن الإسكندر، وهو الأصل في كل ما حدث، كانت له آراء تتعلق بنشر مدنية بلاده، وكان يرى فيها العلاج لجميع شرور البشرية، في البلاد التي فتحها. وقد قبل بعض خلفائه على الأقل ببعض رأيه. ومن هنا كان إنشاء عدد من المدن اليونانية الصبغة، الهلينية الحضارة لتكون مراكز نشر لهذه المدنية الجديدة. وقد فعلت الكثير في سبيل ذلك.

ومن هذه الأسباب أن العصر الهلينستي كانت له مشاركة في الفكر السياسي وبعض الفلسفة السياسية، الأمر الذي أخذناه بالاعتبار.

ورأينا أن نعير اللغة والعنصر في بعض أجزاء من المنطقة اهتماماً خاصاً. وأخيراً تحدثنا عن القدس بشكل خاص وعن فلسطين بشكل أعمّ عشية ظهور المسيحيّة في تلك البلاد.

هذه جميعها، فيما نرى، أمور ضرورية لفهم التطور الذي نحن مقبلون عليه. فالمسيحيّة لم تنشأ في فراغ، ولم تنتشر في فراغ. وإلا لما كانت ظهرت ولا تفرقت الآراء حول تفسيراتها اللاهوتية.

الهوامش

(١) «مخطوطات البحر الميت» ومكتبة قمران (والأولى تسمى «لفائف البحر الميت») كتابات قديمة تعود إلى زمن المسيح (قبل وبعد) عثر عليها في مغاور تقع شرقي البحر الميت في المناطق الصخرية الوعرة (١٩٤٧). اعدادها كبيرة. وهي الآن موجودة في القدس المحتلة وبعض مكتبات الولايات المتحدة. تعتبر هذه معبرة عن الأسّينيين، الذين اعتزلوا العالم يومها، واقاموا في تلك المناطق الجرداء، ووضعوا لأنفسهم نظاماً للحياة وقواعد للسلوك وفلسفة تفسر وجهات نظرهم. ولأن أول هذه الكتابات، المدونة بالعبرية، عثر عليها في كهف قُمْران، فإنها تسمى «مكتبة قمران». والواقع أن ما عثر عليه ثروة أدبية. وقد كتب الكثير عنها. ولعل أيسر ما قرأت عنها ومنها تناولاً كتاب :
G. Vermes, *The Dead Sea Scrolls,* Penguin Books, (third edition) 1987.

(٢) المسيّا هو المسيح المنتظر عند اليهود الذين لم يعترفوا بمجيء السيد المسيح. والمشيح هو اللفظ الآرامي للكلمة نفسها.

٢- العهد الجديد. كتاب المسيحيّة

يقسم الكتاب المقدس إلي قسمين: الأول، العهد القديم؛ والثاني، العهد الجديد. والعهد القديم فيه أسفار تسمى تاريخية، وهي قد كتبت وحررت وأعيدت كتابتها غير مرة في سبيل إثبات أن الله عقد عهداً مع إسرائيل ـ أي العبرانيين ـ أي اليهود (لا مع الدولة المعتدية الآن) حيث اختير هذا الشعب من قبل الله ليكون الشعب المختار. ولا نبالغ كثيراً عندما نقول إن هذه الناحية (التاريخية) هي في واقع الأمر «تزوير» على الله والناس.

أما العهد الجديد، الذي هو كتاب المسيحيّة بجميع نواحيها، فيتألف من أربعة أناجيل هي التي كتبها كل من متى ومرقس ولوقا ويوحنا. ولا نود الدخول هنا في تفاصيل تتعلق بأزمنة وضع هذه الأناجيل، بل نكتفي بالقول بأن الثلاثة الأولى وضعت بين سنتي (٦٥ و ٩٠ م) وإن الإنجيل الرابع وضع بين سنتي ١١٠ ـ ١٢٥ م.

فضلاً عن الأناجيل الأربعة، فإن العهد الجديد يضم «أعمال الرسل» الذي دوّن في القرن الأول على الغالب. ففيه الأخبار عن الرسل الأوائل، كما يحتوي على نصوص بعض الرسائل التي وجهت إلى المؤمنين في أماكن مختلفة.

ويلي ذلك في العهد الجديد مجموعة من الرسائل، أكثرها للرسول بولس، وبعضها لبطرس الرسول، ثم هناك مجموعة من رسائل بعث بها رسل مختلفون الى المؤمنين في نواح مختلفة من الإمبراطورية. وأخيراً فهناك يوحنا (اللاهوتي).

وتناول المعلمون الأوائل للمسيحية هذه الكتب، لما وصلتهم، للحديث عن المسيحية. لكن الشعور بوجوب إنشاء مجموعة جديدة من الأسفار المقدسة تمثل الحياة الروحية الجديدة لم يبدأ إلا حول سنة ١٥٠م. ولكن لما بدا الشعور بالحاجة الى مثل هذه المجموعة، لم يحتج القوم زمناً طويلاً للتأكد من تنفيذ المشروع. إذ إنه عند نهاية القرن الثاني كان الأمر قد وضع موضع التنفيذ، فيما يتعلق بالأناجيل الأربعة. لكن الشيء الذي احتاج الى مدة طويلة هو الموافقة الرسمية – بقطع النظر عن الجهة أو الجهات التي يجب أن توافق – على القبول بالعهد الجديد (قانوناً) أي (قاعدة) للتاريخ المسيحي والعمل المسيحي والرأي المسيحي. ويبدو أن هذا لم يتم

إلا في القرن الرابع، ولعل آخر القرن أقرب إلى الواقع التاريخي من أوله.

وكل أسفار العهد الجديد، من غير أن يستثنى واحد منها، كتب باليونانية. حتى عندما نمر بتعابير تبدو لنا آرامية (أو سريانية) فقد يكون هذا من أثر ترجمتها فيما بعد عن اليونانية.

هناك أكثر من خمسة آلاف كتاب خط بهذه اللغة. أقدمها كتب على أوراق البردي، وكتب سائرها على الرق. وليس لدينا من البردي سوى أجزاء من العهد الجديد بعضها صغير. وأقدم الكتب الخط التي تحتوي معظم العهد الجديد أو نصه الكامل، كتابان مقدسان على الرق يعودان إلى القرن الرابع، وأجلّهما «المجلد الفاتيكاني» سمي بذلك لأنه محفوظ في مكتبة الفاتيكان. وهذا المخطوط مجهول المصدر، وقد أصيب بأضرار لسوء الحظ، ولكنه يحوي العهد الجديد، ما عدا بعض الرسائل. والعهد الجديد كامل في الكتاب الخط الذي يقال له المجلد السينائي، لأنه عثر عليه في دير القديسة كاترينا... والمجلد السينائي محفوظ اليوم في المكتبة البريطانية «مكتبة المتحف البريطاني سابقاً» في لندن.

جاء المسيح برسالة تتلخص بأن ملكوت الله هو للبشر أجمعين وليس لشعب واحد خاصّ مختار، وإن هذا الملكوت تتم هبته للبشر بإرادة الله. والحصول عليه يتم بالتوبة: الولادة الثانية – والتنازل عن متاع الدنيا. والوصول الى هذا الملكوت هو أمر روحي داخلي ينمو في نفس المؤمن، ولا يتم بالانضمام الى مملكة على هذه الأرض (كما كان اليهود يقولون بأن المسيا – المشيح – المنتظر سيقيم دولة على الأرض مواطنوها هم أفراد الشعب اليهودي).

والذي نعرفه من الكتب المقدسة المذكورة والمعروفة باسم العهد الجديد هو أن المسيح ولد في بيت لحم وذلك سنة ٤ ق.م. وسبب هذا الذي يبدو خطأ يعود الى الذي وضع أسس التأريخ من ميلاد المسيح وهو ديونيسيوس أكسيغوسس من أهل القرن السادس الميلادي (حوالى سنة ٥٦٠ م). قد كان عالماً رياضياً كبيراً ولاهوتياً مرموقاً. لكن ديونيسيوس لما حسب تاريخ ولادة المسيح ربط ذلك بالتاريخ التقليدي لإنشاء مدينة رومة وهو (٧٥٣ ق.م). لكنه أخطأ في حسابه بهذه السنوات الأربع.

جهد كثيرون من الكتّاب والمؤرخين في سبيل التدليل على العناصر اليهودية في المسيحية. وليس من سبيل لإنكار الصلة بين الدينين. فقد قبلت المسيحية بعض الآراء اليهودية شكلاً. ولكن المهم، في النهاية، هو أن المسيحية كانت ثورة روحية على تقيد المجتمع اليهودي. فالمسيحية اهتمت بالطهارة القلبية والإيمان بالروح أكثر من الاهتمام بالطقوس. وقد أشار المسيح الى ذلك مرات كثيرة في تعاليمه. والمسيحية اعتبرت الناس جميعاً سواء، بينما اقتصرت اليهودية على شعب مختار من الله.

واهتمت اليهودية بالهيكل، بينما دعا المسيح الى تنقية القلب وتطهيره حيث يصبح مكاناً لائقاً لأن يعبد الله فيه، في كل مكان وزمان.

والذي عليه الباحثون هو أنه كان للمسيحية اتجاهان بعد انتشارها الأول المحدود في القدس والجوار. فقد كان هناك ما يسميه المؤرخون: المسيحية اليهودية والمسيحية الهلينية. فقد كان المسيحيون، خاصة في بيت المقدس، يعدّون فرقة يهودية جديدة. وكان المسيحيون هؤلاء يتبعون بعض الطقوس اليهودية ويؤمنون بأن المسيح المخلص هو المسيا (المشيح) المنتظر. وكانوا فعلاً يتوقعون المجيء الثاني للمسيح. ولأن اليهود لم يقبلوا المسيح على أنه المسيّا (المشيح) اضطهدوهم واعتدوا عليهم. لكن ذلك لم يفتّ في عضدهم. وهذه الجماعة المسيحية هي التي نظّمت نفسها نسبياً في القدس ومنها خرج الكثيرون من الرسل والمبشرين الأوائل.

أما المسيحية الهلينية فقد بدأت في القدس أيضاً، لكن سرعان ما ظهرت خصائصها في أنطاكية (وفي هذه المدينة سمي المسيحيون بهذا الاسم للمرة الأولى). وأبرز ما في خصائص هؤلاء المسيحيين، أنهم لم يروا أنفسهم طائفة يهودية أو فئة يهودية. هذه المسيحية هي التي اعتبرت نفسها ديانة جامعة عامة. وقد تخلت عن الطقوس اليهودية من أول الأمر. ويعتبر بولس الرسول أكبر منظِّر لها.

والذي يجب أن يذكر أصلاً هو أن النوعين – المقدسي والأنطاكي – كانا متفقين حول الأصول وهي قبول المسيح الذي ولد من مريم العذراء وصلب وقبر وقام من بين الأموات. واعترف الجميع بالروح القدس وقبلوا بالعماد وقبول العشاء السري المقدس (الذي تمثله الشركة) وهي تناول الخبز والخمر باعتبارهما ممثلين لجسد المسيح ودمه، وذلك في أثناء القداس الإلهي.

من المألوف أن يُشار الى القرن الأول الميلادي، من حيث انتشار المسيحية، بأنه عصر الرسل، ذلك أن رسل المسيح أو تلاميذه كان لهم دور كبير مباشر في نشر المسيحية. وفي هذا الدور كانت بيت المقدس المركز الأول للمسيحيّة. هذا، مع العلم بأن بلاد الجليل، شمالي فلسطين كانت الأماكن الأولى التي انتشر فيها رسل المسيح وحيث قضى المسيح أكثر أيامه بعد بدء دعوته. لكن ظلت الجماعة المنظمة في القدس هي الأهم. وهذه الجماعة لقيت كثيراً من العذاب والاضطهاد على أيدي اليهود الذين عدُّوا المسيحيين الأوائل خوارج على اليهودية فآذوهم. لكن ذلك لم يثبط عزيمة المؤمنين؛ فكان قادة هذه الجماعة أول من بشر بالمسيحية خارج القدس أولاً ثم خارج فلسطين. ومع ما كانت تلقاه من اضطهاد وضرر وأذى، فإن الجماعة المسيحية في بيت المقدس كانت تنمو بسرعة، وكان أتباعها يزدادون دوماً. وقد وقع أول اضطهاد على هذه الجماعة المسيحية بعد صلب المسيح ببضع سنوات (٣٤ م؟). وكان اسطفان

أول شهيد للمسيحية، إذ رجم حتى فقد الحياة ثم ألقي به من أسوار المدينة. وهذا الاضطهاد أدى الى خروج جماعة من المؤمنين الى فِحل[1] (بلاّ) ومنها نشروا المسيحية في أواسط شرق الأردن. وفي الوقت نفسه كانت المسيحية تنتشر في ربوع فلسطين في جوار القدس وفي أواسط البلاد وفي جنوبها. ولعل تلحوم (كفر ناحوم) على بحيرة طبرية كانت مركزاً من مراكز التبشير في شمال فلسطين. أما الساحل الفلسطيني فقد قام بالتبشير الأول فيه بطرس.

لم يمض إلا وقت قصير حتى كانت أنطاكية قد أصبحت أحد المراكز الرئيسة للكنيسة المسيحية. ومن المرجح أن بطرس هو الذي أسس الكنيسة في هذه المدينة المهمة التي كانت العاصمة الادارية لبلاد الشام وكانت موطناً من مواطن الحضارة اليونانية والتهلين والهلينة، فضلاً عن أنها كانت أكبر مدينة في المنطقة (إذ بلغ عدد سكانها ربع مليون نسمة أو يزيد) كما كانت ثرية بسبب تجارتها واسعة النطاق.

وفي هذا الوقت عرفت دمشق المسيحية ومنها انتقلت الى بلاد العرب القريبة. ولعل الذي قصده مؤرخ المسيحية[2] من بلاد العرب هنا حوران.

ومن أكبر الرسل أثراً في توجيه الجماعات المسيحية وبيان خصائص الدين الجديد هو بولس الذي تشغل آثاره جزءاً كبيراً من سفر «أعمال الرسل»، والذي يرجع اليه فضل كبير في تقوية كنيسة أنطاكية وإنشاء كنيستي أفسس ورومة.

وبولس، واسمه الأصلي شاول، مولود في طرسوس. كان يهودياً في معتقده رومانياً في هويته، واسع الاطلاع على الدين اليهودي والقانون الروماني بشكل خاص، عارفاً بالعبرية واليونانية واللاتينية (ولعله كان يعرف الأرمنية أيضاً). أُرسل بولس الى بيت المقدس ليتفقه في شريعة اليهود. وهناك تعرف الى أول جماعة من المسيحيين. وبحكم تربيته ونزعاته ونشأته كان في مقدم من اضطهد المسيحيين الأوائل في المدينة المقدسة. واعتزم شاول على اضطهاد المسيحيين أنّى كانوا. ومن أجل ذلك انتقل الى دمشق ليقوم بواجبه هناك. لكن قبل أن يصل دمشق مر به اختبار روحي فتغيرت وجهة نظره. فقد روي أنه رأى المسيح نفسه يدعوه الى التخلي عن مناواته. ومهما كانت قيمة هذا الاختبار، فالمهم أن بولس آمن بالمسيح، وحمل على عاتقه عبء التبشير بالمسيحية وانتهت حياته بالاستشهاد في رومة (٦٨م).

تنقل بولس، كما أصبح اسمه، بين الجماعات اليونانية والرومانية وغيرها المنتشرة في أنحاء الامبراطورية وخاصة في آسية الصغرى واليونان ومقدونية. وقد صرف وقتاً طويلاً في كورنت وأفسس وسلانيك[3] وكتب عدداً كبيراً من الرسائل الهامة.

لكن عمل بولس الأول كان في دمشق وحوران، ثم انتقل إلى جهات أخرى. ولعل بولس بدأ عمله في شمال الامبراطورية الرومانية الشرقي باعتباره رسولاً لكنيسة

أنطاكية، لكنه لم يلبث أن استقل في عمله. على أنه كان طوال حياته يرى أن انضمام الكنائس المسيحية بعضها لبعض واجب على زعمائها وعلمائها. وكان يرى أنها جميعها يجب أن تتبع كنيسة القدس، أم الكنائس.

على أن بولس لم يكن الرسول الوحيد. فهناك برنابا الذي خرج من أنطاكية إلى قبرص. ولعل توما خرج من أنطاكية إلى إديسًّا (الرها) وبشّر فيها بالمسيحية. ومن أنطاكية خرج بطرس الرسول وأبوبولس الإسكندري.

ومن كبار المبشرين بالمسيحية في عصر الرسل مرقس، الذي وضع إنجيل مرقس. هذا هو الذي أدخل المسيحية في مصر. وبحسب التقليد القبطي[٤] كان أول بطريرك لكرسي الاسكندرية.

ومرقس أصل أسرته من برقة (سيرانيكا)[٥].انتقل والداه اليهوديان إلى القدس حيث ولد هو بعيد مولد المسيح. وقد قبل المسيحية عن يد أحد أقاربه، وتعرف الى بطرس وبولس. ثم اتصل بالمسيح الذي أصبح يعنى به. وبعد صعود المسيح الى السماء كانت الجماعة المسيحية تجتمع في بيته. وفي هذا البيت هبط الروح القدس على المؤمنين في يوم العنصرة (موعدها بعد أحد الفصح بخمسين يوماً) فتكلم الموجودون بألسنة مختلفة. والتقليد المسيحي يعتبر هذا الحادث هو بدء تجمع المسيحيين أو نشوء المجتمع المسيحي الأول.

كان مرقس فصيحاً في اللغة اليونانية، وبها كتب إنجيله، وكان يتقن اللاتينية فضلاً عن معرفته الأصيلة باللغة العبرية. وقد زار رومة بصحبة بطرس الرسول، ويرى بعض المؤرخين أنه كان يقوم بالترجمة لبطرس (إلى اللاتينية). وزار قبرص وبرقة موطن أسرته. ثم حمل معه إنجيله واتجه إلى الإسكندرية حيث بشّر بالمسيحية، فأصبحت الإسكندرية، أيامه وبعده، منارة كبرى للمسيحية. وقد استشهد مرقس في سنة (٦٨م).

وإذا نحن ألقينا نظرة عامة على خريطة المشرق العربي في عهد الرومان، حوالى سنة ١٠٠م وجدنا أن المسيحية كانت قد تبّثت أقدامها في فلسطين والساحل الشامي من جهات غزة (إلا غزة نفسها) الى صور وصيدا وأنطاكية (تجوّزاً فهي ليست على الساحل) وفي إديسًّا. وفضلاً عن ذلك في بيثنيا وبنطس وكريت وقبرص وعشرات من المدن. إلى ذلك فقد كانت مصر بدأت تتقبل المسيحية خارج الإسكندرية.

الهوامش

(١) فحْل ـ بلا ـ كانت مدينة مهمة في الجزء الشمالي من غور الأردن في أيام اليونان والرومان، وظلت كَذلك إلى الفتوح العربية. وقد ورد اسمها فِحْل في المصادر العربية. ومن الممكن أن الأصل في التسمية هو فحل، وأن بلا «تغريب» للاسم.
(٢) مؤرخ المسيحية هو يوسابيوس من أهل القرن الرابع ومن سكان قيصرية فلسطين. وكتابه اسمه «تاريخ الكنيسة».
(٣) مدن يونانية.
(٤) التقليد القبطي. الكنيسة القبطية (المصرية) الأرثوذكسية تعتبر مرقس الرسول أول بطريرك.
(٥) برقة هو الجزء الشرقي من ليبيا، وسيرانَيكا هو الاسم اليوناني للمنطقة.

٣- المسيحيون الأوائل

كانت نتيجة النشاط الذي تميز به مبشرو الدور الأول، زمن الرسل، ثروة لا يستهان بها من الوثائق المتمثلة بالرسائل وغيرها، ومع ذلك تظل معرفتنا عن انتشار المسيحية فيها كثير من الفجوات. أما الدور الثاني فوثائقه أقل، ومن ثم فإن معرفتنا به أنقص. لكن الشيء الذي اتفق عليه الباحثون هو أن المسيحية استمر انتشارها، ولو أن الجماعات هنا وهناك لم تكن دوماً كبيرة ولا كانت درجة الانتشار واحدة.

كانت فلسطين بطيئة في قبول المسيحية. ولا شك أن ذلك كان يعود الى المقاومة اليهودية، التي كانت تستطيع أن تستغل السلطة الرومانية عند الحاجة. وحريّ بالذكر أن بعض اليهود كانوا ما يزالون يعدّون المسيحيين يهوداً ضلّوا السبيل، ولذلك فمن الضروري الضغط عليهم كي يعودوا الى سواء السبيل. والذي أظهر للجميع أن المسيحية دين جديد بالمرة هو تدمير الهيكل في القدس على يد تيطس (٧٠م)[١]. فقد أظهر اليهود الثبور وعظائم الأمور لأنه معبدهم. أما المسيحيون فلم يهتموا لذلك، لا في بيت المقدس ولا في فلسطين ولا خارجها، لأنهم ليسوا معنيين بالأمر.

أما خارج فلسطين فقد كان هناك كنائس منتظمة نامية. منها صور التي كان فيها كنيسة كبيرة للساحل الفينيقي. وكانت كنيسة أنطاكية تتجه، في هذا الدور، نحو الشرق. ولعلّ هذا هو سبب اهتمام المبشرين باللغة الآرامية (التي ستسمى السريانية بعد الآن) التي كانت لغة كنيسة إديسًّا، إذ إن هذه المدينة، على ما مر بنا، كانت من مراكز الثقافة الآرامية. وقد انتشرت فيها المسيحية، بسبب المبشرين الذين خرجوا من أنطاكية في آسية الصغرى وأرمينية. ولعل من أهم الأحداث المتعلقة بانتشار المسيحية في الشرق، السرعة التي قبل بها الأرمن ومجاوروهم المسيحية وأقبلوا على تفهّم تعاليمها واتجاهاتها.

وأصبحت الكنيسة القبطية/ الإسكندرانية منطلقاً للتبشير بالمسيحية في برقة وجوارها وفي اتجاه الجنوب، في النوبة.

بعد هذه النظرة الخاطفة على انتشار المسيحية في القرنين الأول والثاني، يجدر بنا أن نتوقف لنتعرف الى بعض الصفات التي تميزت بها الكنيسة المسيحية في تلك الأزمنة.

وأول ما يلفت في الأمر هو أن المسيحية انتشرت في المدن لا في الريف. فقد تركزت حيث كانت حضارة أصيلة أو طارئة مثل الهلينية أو الرومانية. ويتضح أن المسيحية كانت لغتها - على العموم - السريانية في المشرق من شرق سورية شرقاً؛ واليونانية في المناطق التي تأثرت بالتطور الهلينستي. أما في ايطاليا واسبانية وافريقية (قرطاجة خاصة) وبلاد الغال، فقد استعملت اللاتينية سبيلاً لتوضيحها. ولنذكر أن التبشير بالمسيحية كان عمل أفراد لا عمل جماعات. حتى الرسل الذين كانوا «يخرجون» من كنيسة كبرى ولو رسمياً، كان عملهم فردياً في ميادين التبشير. والمسيحية، في العهد الجديد مثلاً، لا نظام لها ولا ترتيب للإدارة. ومع ذلك فقد انتظم المسيحيون من أول الأمر، وزاد هذا الانتظام في الدور (القرن) الثاني. والأساس كان التقسيم الاداري من جهة ونشاط المدينة ومركزها السياسي من جهة أخرى. فكنائس صور وبعلبك ونابلس مثلاً كانت محلية، فيما المدن التي كانت عواصم للولايات الكبيرة كانت فيها مراكز ذات نفوذ في الولاية بأجمعها. ومن هنا فإننا نجد أن رومة والقسطنطينية (فيما بعد) والإسكندرية وأنطاكية كان لكل منها بطريرك. وقد أعيد ترتيب هذه البطريركيات حيث قُدمت القسطنطينية على الإسكندرية. أما بيت المقدس فلم ترفع الى درجة البطريركية إلا سنة ٤٥١ م.

ومع الوقت استعارت الكنيسة حتى تفاصيل الإدارة الرومانية لتسيير أمورها وتنظيمها. فالأسقف، وهو الأعلى دون البطريرك، تولى ترؤس القداس الإلهي وما يتبعه وأشرف على التعليم الديني والقيام بالمعمودية والمحافظة على النظام. وعهد إلى الشماس والمساعدين الآخرين بتوزع الواجبات الأخرى الأقل أهمية.

وليس في الوثائق التاريخية التي وصلت الينا من القرن الأول الميلادي عن الامبراطورية الرومانية، ما يمكن أن يستشف منه الموقف الرسمي من المسيحية. ونعود الى القول بأن الاضطهاد الذي لقيه المسيحيون في عهد الرسل كان من اليهود (في فلسطين).

كان المسيحيون قليلي الاختلاط بالجماعات الأخرى، وكانوا يعقدون اجتماعاتهم في أماكن نائية. فأدى ذلك الى شيوع آراء كثيرة مغرضة عنهم: مثل اتيانهم الموبقات في اجتماعاتهم، وأكل اللحوم البشرية في طقوسهم الدينية، والتآمر على سلامة الدولة. ومن هنا كانوا يعدّون، أمام بعض المسؤولين، كأنهم أعضاء في «جمعية غير مشروعة». من الناحية الثانية كان المسيحيون ينظرون إلى الآلهة القديمة نظرة صغار، وإلى عبادها نظرة احتقار. وكان هذا يغيظ خصومهم فيسعون للنيل منهم وإيذائهم.

لكن القضية تعقدت رسمياً لما رفض المسيحيون تقديم القرابين للإمبراطور وعبادته. فقد جاء وقت كانت فيه هذه العبادة هي العبادة الرسمية للإمبراطورية.

والذي يرفض تقديم القرابين يعد ثائراً على الدولة ومن ثم يحق عليه العقاب.

كان الرد على الموقف المسيحي يتخذ واحداً من ثلاثة اساليب: الأول هو الثورات التي كانت تقوم ضد المسيحيين غيرة من الثائرين على آلهتهم - بما في ذلك الإمبراطور - ودفاعاً عنها. والثاني هو نشر كتب كان المقصود منها الرد على دعاوى المسيحيين. وبعضها كان لا يعدو التسفيه (وسنعود الى نماذج من هذه الكتب فيما بعد). أما الأسلوب الثالث فهو الذي لجأ إليه الأباطرة رسمياً: الاضطهاد والعقاب القاسي لمن يرفض العبادة الرسمية.

أول المضطهدين الرسميين هو نيرون (٥٤-٦٨م) الذي أراد أن يجد من ينتقم منه لإحراق رومة فدُل على المسيحيين فآذاهم وبشّع فيهم. لذلك فنيرون فذ في ذلك. والأباطرة الآخرون الذين كانت لهم أياد حمراء وسوداء في اضطهاد المسيحيين هم دومتيان (٨١-٩٦م) وتراجان (٩٨- ١١٧م) وهدريان (١١٧-١٣٨م) وأنطونيوس (١٣٨-١٦١م) وأوريليوس (١٦١- ١٨٠م).

والمسيحية في الشرق لم تعرف اضطهاداً رسمياً إلا في أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثاني، وذلك على يد بعض الولاة. وهذه الاضطهادات الرسمية لم يكن مخططاً لها لا من حيث ترتيب الزمان ولا من حيث توزيع المكان؛ كانت تظهر فجأة وقد تنتهي فجأة أيضاً. ومن البلاد الشرقية كانت حصة أرمينية أكبر من حصة غيرها. وعلى كل فالباحثون في الموضوع يرون أن عدد الذين قتلوا في هذه الاضطهادات لم يكن كبيراً (الأمر يختلف فيما سيأتي). ومن الأسماء اللامعة التي وقع عليها سيف القصاص في هذه الفترة أغناطيوس (١١٥م). كان هذا أسقف انطاكية ثم صار أسقف رومة؛ والشهيد يوستين (١٦٥م) وهو مشرقي أصله من نابلس لكنه قتل في رومة؛ وبوليكارب (١٦٥م) الذي استشهد في إزمير.

ومع ذلك فلا بد من التساؤل عن هذه الاضطهادات التي تعرض لهاالمسيحيون من حيث أصولها وطبيعتها. وفي سبيل الإجابة عن هذا التساؤل لا بد لنا من تقرير أمور وردت من قبل لكن إجمالها الآن يصبح أمراً ضرورياً.

كانت الخصومة للكنيسة تتجلى في أمور ثلاثة هي: اليهودية والهلنستية والدولة الرومانية. لم يكن الأمر محض خصومة، ولكنه كان في الواقع يدور حول خنق هذه الحركة في مهدها وتدبير الوسائل لذلك. وكان اليهود أشد الناس عداوة للمسيحيين. وقد اتضح هذا بشكل لا يقبل الشك في سنة ٧٠م، وهي السنة التي هدم فيها تيطس الهيكل. فقد نظر اليهود الى المسيحيين على أنهم قبلوا شخصاً مزوراً على أنه المسيا (المشيح) والذي، مع أنه انسان (بشر) سوي ادعى أنه مساو للآب السماوي. وقد أراد أن يعطي الدليل على ذلك. فقد تنطع الى حد أنه عفا عن الخطاة وأباح لأتباعه تخطي

الشريعة وأحكامها. وقيل عن المسيح في الكُنُس إنه قضى على «العهد» الذي كان قائماً بين يهوه والشعب العبري.

وكانت مقاومة الجماعات الهلينستية ذات انتشار واسع أيضاً، لكنها كانت تختلف في طبيعتها عن المقاومة اليهودية. فقد اتخذ هجوم الأمميين (أي الجماعات غير اليهودية كما كانت تسمى يومها) على المسيحية سبيلين، وعلى مستويين مختلفين: إن الطبقات الدنيا كانت تخشى المسيحيين وتبغضهم على أنهم أقلية مثيرة للإزعاج ولا يمكن فهمها. أما الطبقات العليا فقد كانت تحتقرهم لأنهم كانوا، في رأيها، ضيقي العقل ومتعصبين. إن سكان المدن في الولايات الرومانية الشرقية كانت تألف التعددية في العبادات والديانات المحاطة بالأسرار. وقد كان لبعض هذه الفرق والجماعات أماكن خاصة بها للعبادة، التي لم يكن للغرباء الحق في دخولها، لكن حتى أولئك الذين اعتبروا الإلهة مَثرا أو إلهة الأم الكبرى في فريجيا على انها هي الحارسة لأتباعها، كانوا يزورون مثل هذه الهياكل أيام الاحتفالات الدينية الكبرى.

أما المسيحيون فلم يكونوا مثل المتعبدين الآخرين. لم يكونوا من عنصر يختلف عن الآخرين لكنهم كانوا يتجنبون الآخرين، مع أنهم يعودون في أصولهم الى جميع الطبقات والشعوب. لقد رفض المسيحيون أن يقدموا القرابين للآلهة وامتنعوا عن حضور حفلات المجالدة وسواها من المناسبات العامة، دينية كانت أم حتى رياضية. وترتب على هذا كله أن تطرق الشك إلى نفوس عامة الناس فظنوا بهم الظنون على نحو ما مر بنا.

فكان الواقع هو أنه عندما تصيب المجتمع كارثة مهما كان نوعها - هزة أرضية أو حريقاً أو مرضاً وافداً - كان ذلك يعتبر انتقاماً من الآلهة الذين لم ترق لهم معاصي المسيحيين. ولذلك فقد كان «زعران» المدينة جاهزين دوماً للاعتداء عليهم، وجرّهم إلى المحاكم طالبين القضاء عليهم. وفي مقابل تصرف العامة كان هناك تغاض من المثقفين ومن لف لفهم مواز للتصرف المذكور. فقد كان متعلمو الرومان ومثقفوهم الذين تعرفوا إلى الأدب الكلاسيكي والذين سحرهم الشعر والبلاغة، والذين تنوروا بما قرؤوه من كتب الفلاسفة الكبار - كان هؤلاء ينظرون إلى المسيحيين على أنهم جهلة غارقون في أعمال السحر، وكانوا إلى ذلك يعبدون رجلاً من الجليل كان مغموراً، وقد صلب بأمر من الحكومة الإمبراطورية. والطبقات العليا، خشيت المسيحيين واقتنعت بوجوب عقابهم لا لأنهم لم يكونوا يعبدون الآلهة فحسب، بل لأنهم تحدوا سلطة الدولة العليا ونشروا آراء قد تؤدي إلى انهيار النظام السياسي والاجتماعي للدولة. وكان الخصم الثالث للمسيحيّة الدولة الرومانية نفسها. وقد كانت تملك وحدها الآلية اللازمة للقضاء على الدين الجديد. إن الدولة الرومانية كانت تنظر إلى

العبادات والأديان المختلفة التي يعتنقها سكانها نظرة تسامح، بدليل المواقف المألوفة التي كان الحكم يقفها من الجماعات المختلفة. حتى اليهود منحوا امتيازات خاصة إذ سمح لهم باتباع تقاليدهم وتجنب مراعاة ما قد يصطدم مع عقيدتهم. لكن المسيحيّة لم تكن على لائحة الأديان المتسامح معها. ومن هنا فقط كان موقف الأباطرة، في مناسبات كثيرة، موقف من يريد أن يمحوها من الوجود.

من هنا جاءت هذه الاضطهادات الرسمية التي رعاها الأباطرة. بادئ الأمر كانت عرضية من دون أن تكون منتظمة؛ لكنها مع الزمن انتظم ترتيبها واتسع مداها. وقد كان أكبر عدد من الشهداء هُو الذي نتج عن اضطهاد ديوقلتيان (٢٨٤ - ٣٠٥ م) والذين شاركوه في الحكم. وقد مر بنا أن أول اضطهاد كان في أيام نيرون (٥٧ - ٦٨ م). وكان من شهدائه الرسولان بطرس وبولس مع فريق من أتباعهما.

لم يوضع في أيام خلفاء نيرون أي تشريع خاص يتعلق بمعاملة المسيحيين. كان كل مسيحي معرّضاً لإلقاء القبض عليه ونفيه أو إعدامه ومصادرة أملاكه باعتباره من أتباع دين غير شرعي. لذلك كان الاضطهاد شديداً وعنيفاً في أيام دومتيان (٨١ - ٩٦ م)، وكان أخف في عهد كومودوس (١٨٠ - ١٩٢ م). بل إن هناك من الأباطرة من كان يرعى المسيحيين أي يتركهم من دون عقاب مثل إسكندر سفيروس (٢٢٢ - ٢٤٩ م) وفيلبوس العربي (من جبل العرب) الذي حكم من ٢٤٤م الى ٢٤٩م.

وقد حفظ لنا التاريخ مراسلات حول الموضوع بين بليني الابن الذي كان حاكم بيثينيا في آسية الصغرى (١١١ - ١١٣ م) وتراجان الإمبراطور (٩٨ - ١١٧ م). فقد رأى الحاكم أن المنطقة فيها كثير من المسيحيين وأن استمرار اضطهادهم قد ينتهي بنقص في عدد السكان. فاستفتى الإمبراطور الذي كان جوابه يدور حول النقاط التالية: (١) لا يبحث عن المسيحيين في منازلهم أو مخابئهم. (٢) إذا وصلوا إلى المحكمة وأعلنوا مسيحيتهم يعاقبون. (٣) إذا تابوا - حتى ولو توبة عادية وأتبعوها بقبول آلهتنا يعفى عنهم. (٤) لا تقبل شهادة أو أخبار من شخص مجهول الهوية ضد المسيحيين.

لكن النظرة العامة كانت أن المسيحيّة، كنيسة وشعباً، مؤسسة سرية تعمل ضد السلطة. وحتى الإمبراطور الفيلسوف، مرقس أوريليوس (١٦١ - ١٨٠ م) كان يرى المسيحيين جماعة خطرة وأنهم متعصبون في سلوكهم إلى درجة كبيرة.

كان ديسيوس (٢٤٩ - ٢٥١ م) أول من ألح على الجميع - جميع السكان - بوجوب عبادة الإله الإمبراطور. وقد حكم على الذين رفضوا ذلك بالموت أو النفي. وسار البعض، مثل غالوس (٢٥١ - ٢٥٣ م) وفالريان (٢٥٣ - ٢٥٩ م) وأورليان (٢٧٠ -٢٧٥ م) على طريقته. وقد بلغ الاضطهاد أقصاه وأشده أيام ديوقلتيان (٢٨٤ - ٣٠٥ م) على ما نعرفه.

نظّم هذا الإمبراطور حملته تنظيماً جيداً (وقد كان هو منظماً). فأصدر قراره في آذار/ مارس (٣٠٣ م) بوجوب تدمير جميع الكنائس وطرد جميع المسيحيين من وظائف الدولة جميعها، فأصبحوا لا كيان لهم ولا حماية من الدولة ولا حق في الاستئناف، بل قد يحق عليهم العذاب والتمثيل والقتل، بقطع النظر عن مكانتهم في المجتمع أو دورهم في الإدارة. ويبدو أن الإمبراطور كان ينوي تجريد المسيحيين من كنائسهم والاستيلاء على كتبهم المقدسة كي يتلفها. ولعله لم يقصد بادئ الأمر أن يكون الاضطهاد عامّاً - لكن لما بدأت أعمال الاضطهاد، لم يكن سبيل لوقفها. وكان الذين قتلوا في استشهاد ديوقليتيان كثيرين، كما أن أماكن العبادة المسيحيّة التي هدمت متعددة.

ومع كل هذا الذي تم على أيدي خصومها، من يهود وهلينستين وأباطرة رومان، فقد كانت المسيحية تنتشر. وقد نجحت في سيرها نجاحاً كبيراً. ويرى الباحثون أن الذي ساعد على هذا النجاح هو أن المجتمع الذي كانت الإمبراطورية تحتضنه - شرقاً وغرباً - قد كان شارف على الضياع الروحي. فقد ساده التشاؤم وخسرت الأديان القديمة قيمتها الروحية بسبب تنوعها وانتهازيتها. وكانت الفلسفات القديمة قد توقفت عن التوليد الجديد. وفي القرن الثالث أصاب الإمبراطورية أزمة اقتصادية مالية اجتماعية خانقة.

جاءت المسيحيّة برأي جديد رفيع، وإيمان عميق سماوي، وأمل ورجاء في الحياة، حاضرها وقادمها. مع هذا العهد الجديد جاءت الدعوة إلى الولادة الثانية التي جعلت من الناس المتعبين قوماً أقوياء أشداء - روحياً واجتماعياً.

الهوامش

(١) في السنة ٦٩م قام اليهود بثورة ضد الحكم الروماني فجاء تيطس القائد الروماني وأخمد الثورة بعد حصار شديد للقدس، وعاقب اليهود بأن دمّر لهم الهيكل الذي كان قد بناه لهم هيرودس، الآدومي العربي (واسمه الأصلي على ما ورد في النقوش هو حَرَد) الذي كان الرومان قد جعلوه حاكماً على القدس في القرن الأول قبل المسيح.

٤ - طلائع المفكرين المسيحيين

نود أن نذكّر القراء الآن بأمور ثلاثة: أولها، أن المسيحيّة نشأت ضمن إطار متباين النزعات فلسفياً وأدبياً ودينياً. وثانيها، أن الجماعات التي انتشرت المسيحيّة بينها كانت مختلفة الأرومة واللغة. فالسريانية كانت لغة المشارقة، واليونانية لغة الجماعة التي كانت تقطن غرب سورية وما والاها غرباً وشمالاً في غرب. وللغة أثر كبير في توضيح الأفكار أو تعقيدها بالنسبة إلى أبنائها والغرباء عنها. ومن هنا كان من الطبيعي أن تختلف جماعتان حول تفسير معنى من المعاني الواردة في الأناجيل أو في بقية أسفار العهد الجديد عندما ينقل المعنى من لغة إلى لغة. ويبدو هذا بشكل أوضح عندما تكون اللغتان مختلفتين أرومة ألسنيّة واستعمالاً عادياً، ومتباينتين من حيث درجة الثقافة التي تمثلها كل منهما. وثالثها أن محاولة لإحياء فلسفة أفلاطون قد ظهرت في مصر في القرن الثالث. وهذه التي سميت الأفلاطونية الحديثة (أو المستحدثة) كان لها أثر في بعض نواحي المسيحيّة.

من هنا كان من البدهي أن تتسرب إلى المسيحيّة آراء متناقضة يحسب أصحاب كل منها أنهم مخلصون فيما ذهبوا إليه. ولعلّ المؤسف هو تمسك البعض من أصحاب المذاهب والآراء الجديدة بمذاهبهم وآرائهم وتفاسيرهم حيث أصبحوا يعدّون خصومهم - أي الذين يخالفونهم في الرأي - هراطقة. والهرطقة درجة بين البدعة وما يشبه الكفر.

لنشر هنا إلى بعض من هذه الآراء والمذاهب والبدع التي عرفتها الكنيسة في وقت مبكر من حياتها. ولعلّ أقدم هذه البدع هي المحاولة للتوفيق بين المسيحيّة واليهودية. لكن هذه لم تدم كثيراً خاصة لما اتضح أن الهوة بين الكنيسة والكنيس أوسع مما ظن الناس أولاً.

كانت المحاولات التي اتجهت إلى التوفيق بين المسيحيّة والهلينستية أكثر نشاطاً، ولعلها كانت أبعد هدفاً. هذه هي المعروفة باسم الغنوسية. والغنوسية كلمة يونانية تعني المعرفة أو الحكمة. وقد أطلق الاسم على هذه الجماعة لأنها كانت تقيم دعوتها على أساس من المعرفة. قد كان بين الجماعات الغنوسية فروق مهمة من حيث التفاصيل، لكن النظرة العامة كانت متحدة في الأصل. ولعلّ أبسط ما يمكن أن يقال

عن الغنوسية إجمالاً هو أن أتباعها كانوا يرون أن العالم هو أصلاً من صنع إله آلى على نفسه أن يمزج بين الإنسان الأبدي وعناصر الشر، وأن هذا الإله الذي سماه المسيح «أباه» هو القادر على إصلاح العالم . هذا لا يتم إلا متى جمع مبدآن جمعاً تاماً وهما الرأي الهلينستي القائل بأن الكون هو فيض إلهي والتعليم الذي جاء في الأناجيل. وقد ادعى الغنوسيون أن آراءهم تحل مشكلة الحياة والموت. وكانت لغتهم، ومن ثم آراؤهم، مما تستسيغه جماعات متقدمة فكرياً، لكنها لم تكن أمراً يدركه عامة الناس. لذلك فقد كانوا جماعات متفرقة متباينة في التفاصيل.

وجاء مونتانوس في أواسط القرن الثاني للميلاد وهو من فريجيا (في آسية الصغرى). وقد ادعى النبوة وعاش عيشة نسك وتقشف دقيقة، وهو النظام الذي فرضه على أتباعه. وكان من أولهم سيدتان كانتا في نظر الأتباع تتمتعان بهبة خاصة ممنوحة من الروح القدس. وكانت الجماعة بأسرها تؤمن بمجيء المسيح الثاني القريب. وكان بين من قَبِلَ رأي مونتانوس الكاتب الكبير ترتوليان (١٥٠ ـ ٢٢٢ م) وهو من كبار القادة المسيحيين في شمال إفريقية. ولم يَرق تقشفهم للكثيرين، فعزفوا عنهم. كما أنهم هم قاوموا رجال الدين المفرطين في اتباع أهواء العالم. فنجحوا في عزل بولس السميساطي، أسقف أنطاكية، عن أسقفيته بسبب تصرفه (٢٦٨ م). وقد كانت زنوبيا عملت على تنصيبه على الأسقفية.

أما جمهرة المؤمنين من المسيحيين فقد ظلوا على ولائهم للكنيسة الجامعة. وظل اعتمادهم على الأناجيل والرسائل التي بدئ بترتيبها في القرن الثالث، لكنها لم تصبح قانوناً إلا في القرن الرابع. ومما حفظ للمسيحيّة الكنسية الأم مكانتها كان توالي الأساقفة القانونيين. ومما يجب أن يذكر هنا هو أن أسقف أي كنيسة لم يكن يتسلم منصبه إلا متى قبل به ورسمه الأساقفة المجاورون لمركز أسقفيته.

مر بنا شيء كاف لمثل البحث الذي نعده عن التعذيب الذي طال المؤمنين عندما كان الإمبراطور يأمر بعملية الاضطهاد والتعذيب. وكان جواب المسيحيين على هذا، الصمود وقبول الموت حرقاً أو تمزيقاً في مخالب الوحوش الكاسرة الجائعة.

لكن الخصومة بين الوثنيين والمسيحيين لم تقتصر على المجالات التي كانت تتعلق بالسجان أو منفذ أحكام الإعدام. لقد التقى المتخاصمون على الصعيد الفكري . فقد جرّب عدد من الكتّاب المسيحيين أن يوضحوا للمفكر الوثني أسس إيمانهم وعقيدتهم فيما يتعلق بالتجسّد.

وحريّ بالذكر أن الجزء المتأخر من القرن الثاني الميلادي والقسم الأول من القرن الثالث شهدا إحياء قوياً للهلينستية في نواحي الفلسفة. وقد بدا عليها، في حلتها الجديدة، أنها قد تنقبت بنقاب ديني، حيث أن أكبر ممثل للفلسفة الهلينستية

يومها، أفلوطين (المتوفى ٢٧٠ م) كان يعتبر نفسه مفكراً دينياً. وفي الوقت ذاته فقد استأثر التصوف الشرقي ببعض الأدمغة الممتازة. وجاء هذا بشكل خاص عن طريق المفكرين الهنود الذين استقروا في الإسكندرية خاصة، والذين شُغِفَ بهم المفكرون المحليون آملين أن يجدوا عندهم ما ينير سبيلهم. وتركزت القضايا التي أثارها هؤلاء المفكرون - مفكرو الفترة التي أشرنا إليها - حول طبيعة الله والغاية من خلق هذا العالم الطبيعي، وعلاقته بالعالم الروحاني غير المتغير. وقد اهتموا، فضلاً عن ذلك، بمشكلة أصل الشر، وبالنهاية التي تنتهي إليها الروح بعد انفصالها عن الجسم العدمي.

وكانت فكرة التركيب الفلسفي هي الأسلوب الشائع في سبيل الوصول إلى حلول للقضايا والمشكلات. وأهم هذه المحاولات كانت في مجال التوفيق بين العهد القديم (من الكتاب المقدس) وكتابات أفلاطون وأرسطو. ولعلّ الاهتمام بالعهد القديم يعود إلى المدرسة اليهودية القوية التي كانت في الإسكندرية، والتي عرفت فيلون الفيلسوف بين رجالها (٢٠ ق.م - ٥٠ م).

شجع هذا الإحياء الديني والفلسفي خصومة الوثنية للكنيسة. كان بين أولئك الكتاب الوثنيين كِلسوس ونومينيوس- وخاصة أفلوطين وتلميذه فرفوريوس ـ هؤلاء وغيرهم سلّطوا هجومهم على المسيحيين لأنهم تخلوا عن جهابذة الفكراليوناني وقبلوا بآراء جاء بها أناس مجهولون. على أن المسيحيّة لم تعدم، في هذه الفترة، جماعة من أهل الفكر النابهين الذين حموا ذمارها وكالوا للخصوم الصاع صاعين.

وكانت الإسكندرية المضمار الرئيسي الذي تنافر فيه الفريقان. ففيها كانت مؤسسات علمية بطلمية هلينستية هي المتحف والسيرابيوم والسباسطيون[1] التي جذبت إليها الطلاب من أنحاء العالم لدراسة الفلسفة والبلاغة. وكانت فيها جالية يهودية (ومدرسة) من أهلها فيلون ويوسيفوس المؤرخ (٣٧ - ١٠٠ م). وفي الإسكندرية أنشأ المسيحيون لهم مدرسة لاهوتية، وهي، ولا شك، أقدم مؤسسة من نوعها في تاريخ المسيحيّة في القرون الأولى. كان أعضاء هذه المؤسسة - المدرسة اللاهوتية - هم المسؤولون عن صياغة الأفكار المسيحيّة اللاهوتية وعن وضع التفاسير للكتب المقدسة. على أن هذه المدرسة لم تكن تقتصر على اللاهوت المسيحي. فالتعليم فيها دار حول الإنسانيات والعلوم والرياضيات. ولم يستطع الباحثون أن يهتدوا إلى زمن تأسيسها. والذي نعرفه هو أن أول إشارة لها جاءت في حياة بانتينوس المتوفى سنة ١٩٠م. وبعد هذا التاريخ سارت في خط مواز للمتحف الوثني الذي أخذ يتقلص تدريجاً حتى أغلق سنة ٤١٥م.

وكان كبار القادة المسيحيين في الإسكندرية مرتبطين بالمدرسة المذكورة، حيث أن تاريخ المدرسة بالذات يمكن تلخيصه من تراجم الأشخاص الذين تولوا رئاستها،

بدءاً من بانتينوس عبر إقلمنفنس (تو ٢١٥ م) وأوريغون (تو ٢٥٤م). وظلت المدرسة حرة في برامجها وبحوثها إلى سنة ٢٣١ م لما غادرها أوريغون وانتقل إلى فلسطين. عندها أصبحت المدرسة تابعة للبطريركية وأصبحت، إلى درجة كبيرة، تعبّر عن آراء البطريرك في الشؤون الدينية.

كان أسلوب الحوار هو المتبع يومها في الجدل والمناقشة. لذلك فقد اتخذ بعض الكتب الموضحة للمسيحية شكل حوار بين وثني ومؤمن. من هؤلاء أرسطو الفحلي (البلّي) من مدينة فحل في غور الأردن.

أحسب أن هؤلاء الذين نافحوا عن الإيمان يستحقون منا بعض العناية. ومن كبارهم الشهيد يوستين (تقريباً ١٠٥-١٦٥م) وهو نابلسي المولد وثني الأرومة. خرج من بلده ساعياً وراء اكتساب المعرفة. فزار أنطاكية وتحلّق حول معلمي الفلسفة – من الرواقية إلى الفيثاغورية إلى المشائية (أرسطو) إلى الأفلاطونية الحديثة، فلم يجد في أي منها ضالته. وحدث أنْ لقي مسيحياً متعلماً فأرشده سواء السبيل. وتثقف بعد ذلك مسيحياً واستقر في رومة وأخذ على عاتقه تعليم المسيحية والفكر الفلسفي فيها. ولما رفض أن يقدم رسوم العبادة للإمبراطور حكم عليه بالموت، واستشهد بين سنتي ١٦٣ و١٦٧م.

وقد اهتم يوستين بالدفاع عن المسيحية على جبهات ثلاث: ضد اليهود وضد الوثنيين وضد أصحاب البدع. وكان في جميع أعماله مبرزاً. وهو الذي لفت الى أن المذاهب المحرفة والبدع خطر كبير على المسيحية. وقد كان غزير الإنتاج واضح الأسلوب وكان له فضل في دفع عجلة انتشار المسيحية في العالم اليوناني الروماني.

وعندنا تَتيان السوري، الذي لم يستطع الباحثون تحديد مكان ولادته في سورية. فبعد أن جمع ما كان موجوداً في محيطه من شؤون العلم والمعرفة اتجه غرباً إلى رومة حيث التقى يوستين، وهناك اعتنق المسيحية. ولم يلق القبض عليه مع يوستين فعاد الى بلاده. وحول سنة ١٦٠م نشر كتابه الموجه إلى اليونان وكان هجوماً عنيفاً على كل شيء يوناني وثني.

ومن أعمال تَتْيان الكبيرة كتابه المسمى باليونانية: دياتسرون[2]، والذي كان دمجاً تاماً للأناجيل الأربعة حيث أخرج منها رواية تامة. وقد وضعه باليونانية ثم نقله الى السريانية. واستعمله الناس حال الفراغ منه. وظلوا على ذلك الى أوائل القرن الخامس. ومن هنا ثمة من يرى في تَتْيان أحد كبار مؤسّسي المسيحيّة السريانية. ولنذكر هنا أيضاً بار ديصان (١٥٤-٢٢٢م) الذي وضع، مع تتيان، المسيحيّة في تلك المنطقة وذلك الزمن، على الخط السرياني لغوياً، والآرامي فكرياً.

وثمة سوري آخر هو هيغِسِبس، وهو من أهل القرن الثاني. ولد مسيحياً وذهب إلى

الغرب ليستكمل دراسته وأقام في كورنث وورمة لكنه عاد إلى الشرق حيث أتم كتابه: «المذكرات» (في خمسة أجزاء). والكتاب فيه القليل جداً من التاريخ، إذ إنه أصلاً جدل حول المسيحية ودفاع عنها أمام خصومها من الداخل (المذاهب والبدع) والخارج (الفلسفة اليونانية والتعاليم اليهودية).

في سنة ١٩٥م قاد الإمبراطور سبتيموس سفيروس (١٩٣- ٢١١م) حملة ضد منطقة إديسا (الرها) على الفرات الأعلى. وكان في عدد ضباطه شخص اسمه يوليوس أفريقانوس، ولو أنه مولود في إيليا كابيتولينا (بيت المقدس). بعد عودة الإمبراطور بقي يوليوس في إديسًا سنوات في صحبة ملكها أبجر الثاني وأمرائها ونبلائها. بعد ذلك عاد الى فلسطين واستقر في عمواس (على مقربة من بيت المقدس). وزار رومة أيام الإمبراطور ألكسندر، سفيروس (٢٢٢- ٢٣٥م) حيث خطط مكتبة جميلة للإمبراطور. وزار الإسكندرية، لكنه قضى آخر أيامه في عمواس منصرفاً إلى الدرس والتأليف. وفي كتابه «الأخبار» (في خمسة مجلدات) عرض لتاريخ العالم إلى أيامه. وهذا الكتاب أصبح أساساً لما يسمى التاريخ المسيحي.

وكان مغرماً بكتابة الرسائل التي يوضح فيها آراءه. لكن رسائله ضاعت.

وأنجبت مدرسة الإسكندرية اللاهوتية (المسيحية) عدداً من الذين نافحوا عن المسيحية بقواهم المختلفة وبأساليب بلغت الغاية في الدقة والجدل. وعندنا اثنان يحتلان الصدارة بالنسبة الى جميع رجال الفكر المسيحي لا في أيامهما فحسب، بل على طول المدى الزمني وهما: أقلمنضس الإسكندري (١٥٠ – ٢١٥م) وأوريغون المصري (١٨٥ – ٢٥٣م).

كان أقلمنضس أثينياً وهو مولود، على الراجح، سنة ١٥٠م وقد نشأ وثنياً في مدينته. برع الرجل في الآداب والفكر والفلسفة الكلاسيكية. وفي سن الثلاثين رحل الى الاسكندرية. ولم تمض عليه سوى عشر سنوات حتى كان على رأس المدرسة المذكورة. وبسبب الاضطهاد الذي أوقعه سبتيموس سفيروس ترك المعلم مصر فمر بفلسطين حيث علّم بعض الوقت في مدرسة قيصرية، ثم اتجه الى قبادوقية (في آسية الصغرى) حيث كان أحد طلابه قد تولى الأسقفية فيها، وقضى السنوات الأخيرة من حياته هناك.

كان أقلمنضس ذكي الفؤاد ناصع البيان واضح الأسلوب، يتمتع في كتابته بنفحة شعرية كانت تمكنه من تجويد ما يخطه يراعه. وبحكم تعمقه في الأدب الكلاسيكي والفكر اليوناني وإحاطته الدقيقة والشاملة بالتعاليم المسيحيّة، استطاع أن يضع بين أيدي تلاميذه وقرائه، آراء جديدة واضحة بيّنة. ولعل خير ما يقال عنه هو أنه نظر في القضايا والمشكلات الفكرية المجردة والفلسفية الحياتية، وبحث في الأسئلة التي

طرحها رجال الفكر اليوناني ثم بحث عن الأجوبة لجميع هذه القضايا فوجد أن القدامى أجابوا عنها من قبل عن طريق الأسطورة. ولكن هذه الوسائل لم تعد صالحة. الوثنية كانت موجودة وكانت تقاوم المسيحيّة، لكن حيوية الأولى امتصّها ما كان في أساليبها من تناقض وفي طرق بحثها من تضارب. لذلك يجب أن يلجأ (الفكر) إلى مصدر جديد وأسلوب جديد للإجابة عن أسئلة القدامى والجدد وقضاياهم. والمصدر الجديد هو المسيحية التي هي تتويج لأفضل ما عرفته المدنية الهلينستية.

وضع أقلمنضس أسس الدفاع الفكري عن المسيحية. لكن الذي خطط لذلك ونظّمه بحيث أصبح منهجاً علمياً هو أوريغون (١٨٥-٢٥٣م). وهو مصري المولد، أبوه يوناني وأمه مصرية، وكان الاثنان مسيحيين. وقد أتيح له، في صباه وشبابه، خزانة كتب عامرة في البيت، إذ يبدو أن هذا البيت كانت تعقد فيه حلقات للمناقشة. وظهرت على الصبي مواهبه غير العادية ونضجه المبكر ونهمه في طلب المعرفة، حتى أنه أصبح، وهو في السابعة عشرة من عمره، يدرّس في المدرسة المسيحيّة في الإسكندرية.. وحدث أن استشهد أبوه حينئذ، وصودرت أملاك الأسرة والمكتبة العامرة، واضطر الشاب إلى العمل كي يعيل أمه وستة أخوة وأخوات، فكان يدرّس إلى جانب العقيدة المسيحية، الفلسفة والأدب الوثنيين. ومع ذلك فقد استمر في دراسته. وأخيراً تولى رئاسة المدرسة حيث قضى تسع سنوات. وقد أحنق نجاحه منافسيه وخصومه، وكان الاضطهاد قد تجدد في مصر، فاضطر إلى مغادرة البلاد. ولقي في قيصرية (الساحل الفلسطيني) ترحيباً كبيراً، حيث نقل عمله التعليمي المسيحي إليها. فكان هو، في الواقع، منشئ مدرسة قيصرية، التي استمرت مدة طويلة بعد أيامه. وكان كثير الرحلات. لعله كان يدعى لإلقاء محاضرات. وقد سجن وعذب وأخيراً توفي في صور سنة ٢٥٣م. وكان يومها رجلاً مريضاً متعباً مكسور الخاطر.

كان أوريغون طلعة بشكل غريب. وكان له جلد على العمل. والمهم أن الرجل كان مبتكراً في آرائه ونظراته. وبحكم معرفته الواسعة والعميقة للتيارات الفكرية والروحية، القديمة والحديثة، كان باستطاعته أن يوضح الأمور وأن يضيف الكثير الى ما يتناوله. وقد انصرف انصرافاً كبيراً إلى دراسة مقارنة لأسفار العهد القديم، بحيث يمكن اعتبار الرجل أول باحث توراتي في التاريخ.

كتب اوريغون كثيراً. وكل كتاب سدّ ثغرة في تاريخ المسيحية. لكن من أطرف ما كتبه رده على كلسوس. وكان هذا أحد كبار الخصوم الذين كتبوا ضد المسيحية. وكان قد كتب سنة ١٨٠م كتاباً شنّع فيه على المسيحيين والمسيحية. فقال إن انتشار المسيحية زعزع أسس الإمبراطورية، ووصف المسيحيين بأنهم قومٌ محتالون يعملون في الخفاء للتخريب، وأنهم يغشون بيوت الأغنياء كي ينشروا تعاليمهم الخبيثة بين

النساء والأولاد. وقد رد عليه أوريغون، في رسالة كتاب، داحضاً كلامه مشيراً إلى أن الديانة التي تعلّم الأخلاق الرفيعة السامية والتي تحمل أتباعها على تحمّل العذاب والسجن والشهادة في النهاية لا يمكن إلا أن تكون صحيحة صادقة. كان كلسوس قد دعا المسيحيين الى التخلي عن «خزعبلاتهم» والعودة الى حظيرة المواطنة الصالحة، فرد عليه أوريغون بأن تمنى بأن يهدي الله أباطرة روما فينضموا إلى أتباع التعاليم الجديدة. وقد قال زرنوف عن أوريغون: «إن الجماعة المسيحية في الشرق نضجت عقلياً وفكرياً بقيادة أوريغون الحية. وقد هيأها - مسبقاً - للدور الذي كان ينتظرها لما اعترفت الإمبراطورية بالكنيسة».

نود ان نشير هنا على سبيل التقديم (إذ سيعالج الموضوع في ما بعد) إلى أمور تتعلق بإديسًا. منها أن هذه المدينة كانت المركز الأول للمسيحية في العالم الآرامي، ومنها أن مدرسة إديسًا اللاهوتية كانت ذات شأن كبير في عالم المسيحية. لكن الذي كتب عنها في القديم كان أقل مما دوّن عن مدرسة الإسكندرية مثلاً، لذلك لم تشتهر؛ ومنها أن معلمي مدرسة إديسًا وخريجيها، الذين سنتحدث عن أثرهم في القرن الرابع، هم الذين أغنوا المسيحية بالكثير من الآراء القيّمة.

وهنا موضع ملاحظة هامة. إن السلطة الرسمية والمجامع الإقليمية والمسكونية واللاهوتيين الذين كتبوا باليونانية، جميع هذه المؤسسات وجميع هؤلاء الأفراد هم الذين اعتبروا الآخرين أصحاب مذاهب وبدع. وهذا ما كان يحدث دوماً عندما تستطيع فئة ما، أن تحيط التفكير والتنظير في حدود معينة، فتفقد الفكر مجال العمل الحر.

الهوامش

(١) هذه كانت المؤسسات العلمية في الاسكندرية. انشئت في العصر البطلمي، واستمرت موجودة في أيام المسيحية، وظلت أماكن لدراسة الكلاسيكيات ومجمّعاً ضخماً للكتب ومكتبة للعمل.

(٢) Diatessaron

الفصل الثالث

القـرن الـرابـع الميـلادي

١- النيقاوية

تولى قسطنطين عرش الإمبراطورية سنة ٣٠٥م واستمر في المنصب حتى ٣٣٧م. إلا أنه قضى نحو عشرين سنة وهو يتقاسم الحكم على نحو ما كان قد تم التقسيم الإداري للإمبراطورية في عهد سلفه ديوقليتان (٢٨٤-٣٠٥م). ولم يستقلّ بالسلطة نهائياً إلا في ٣٢٤م.

وفي عهد قسطنطين، على ما مر بنا، تم للمسيحية أمران مهمان: الأول اعتبارها واحداً من أديان الإمبراطورية، أي إنها أعطيت الغطاء الشرعي الرسمي؛ هذا تم في ٣١٣م - (تصريح ميلان). أما الثاني فهو أن قسطنطين بدأ من سنة ٣٢٤م يدخل الآراء والنظرات وبعض العقائد المسيحيّة في الكثير من تشريعاته.

لما تولى قسطنطين العرش كانت المسيحيّة قد انتشرت انتشاراً واسعاً في المشرق وفي المغرب. وقدّر أن ثلث سكان الإمبراطورية الرومانية قد كانوا اعتنقوا المسيحيّة في القرن الرابع. وإذا نحن اقتصرنا على القسم الشرقي من الإمبراطورية وجدنا أن العناصر التي تكوّن منها هؤلاء المسيحيون كانت منوعة عرقاً وحضارة ولغة. وقد أشرنا إلى ذلك من قبل. والذي نود أن نضيفه الآن هو أن الجماعات المختلفة التي كانت تؤلف المجتمع المسيحي الواسع أصبحت، في القرنين الثالث والرابع، تعرف نفسها أكثر من ذي قبل، وعملت على تفهّم المسيحيّة على الأسس التي ترتكز إليها نفسيتها، وتوضيح ذلك لنفسها باللغة التي تستقيم أمورها بها.

ومن هنا، على ما يرى سبنسر ترمنغهام، كان ظهور هذه المؤلفات الكثيرة (بين سنتي ١٤٠م. وحول ٢٥٠م) التي تتناول حياة المسيح والتي تحاول تفسير تعاليمه وتوضيح المعاني الظاهرة والمستترة في المسيحيّة. ومع أن هذه الكتب بدأت على ما يبدو، قصصاً تروى مشافهة قبل أن تودع بطون المخطوطات، ومع أنها لم تحظ في النهاية بمكان في العهد الجديد (القانوني) فإنها تشير إلى أمرين: الأول هو أن هذه الكتب ظهرت باللغة السريانية وأكثرها وضع في إديسَّا وحولها أي شرقي الفرات. والأمر الثاني هو أن الكثير من هذه الكتب، وقد وصلت إلينا في صيغة قد تختلف كثيراً عن الأصل، تبين الموقف العربي (عنصراً) والآرامي/ السرياني (لغة) من القضايا التي كانت تشغل الناس وأهمها طبيعة المسيح بين تفسير يوناني وتفسير آرامي. الأول

عقلي منطقي حيث أصبح المسيح، في عرف الجماعة التي لم تَتَهَلّين، على ما تركه هؤلاء، شيئاً مجرّداً. أما الجانب الآرامي فكان يرى الأمور أبسط من ذلك، لأنه كان يعرف، من تجربته الطويلة جداً، شيئاً اسمه الدين الطبيعي الذي رافقه وتطور معه. فلا التفسير اليوناني لقي إقبالاً بين أفراد المجتمعات الآرامية، ولا النظرة الآرامية كان يمكن أن يَقبلها سكان المدن الذين غبّوا من الهلينية، بشكلها الهلينستي، شبعهم.

ومن هنا اختلف الشارحون. واختلاف الرأي لا يجب أن يفسد للودّ قضية؛ لكن الذي حدث أنه أفسد. ذلك بأن أولئك الذين كانوا يستطيعون استعداء السلطان، استطاعوا أن يصفوا خصومهم بأصحاب المذاهب الضالة أو أصحاب البدع. مع أن الواقع هو أن الأمر كان خلافاً في الرأي له هذه الأسباب النفسية الاجتماعية الفكرية اللغوية التي عرفتها المجتمعات المختلفة.

«وكان لعطف قسطنطين على الكنيسة وقع عظيم في جميع الأوساط النصرانية، فاشتد الحماس له، وعظمت الثقة به حتى أصبح ملجأ النصارى ونصيرهم. فشكوا أمورهم اليه ورجوا تدخّله. وكان هو حبر الدولة الأعظم ورأسها، فشعر أنه من واجبه أن يحافظ على الأمن وحرية العبادة. فتدخل في شؤون الكنيسة وسجّل بتدخله سابقة خطرة أدت فيما بعد الى مشاكل ومشاكل بين الدولة والكنيسة. وما الانشقاق العظيم الذي شطر الكنيسة الجامعة في القرن الحادي عشر شطرين، إلا نتيجة محتملة لتدخل الدولة في شؤون الكنيسة وربط السياسة الدينية بالسياسة السياسية» (أسد رستم).

في هذه الفقرة كلمتان تحتاجان إلى تفسير خاص وهما «الحبر الأعظم» للدولة. هذا منصب كان يشغله آباطرة الرومان منذ أيام أغسطوس. وبهذا يكون الامبراطور الكاهن الأعظم أي الأول للأديان المنتشرة في الإمبراطورية. وهو من المناصب التي ضمّها أول إمبراطور إلى مناصبه كي تتم له السيطرة على نواحي السلطة بأجمعها. ومع أن قسطنطين اعتنق المسيحية، فقد ظل الكاهن الأعظم «الحبر الأعظم» في الإمبراطورية لجميع الأديان الوثنية التي كانت معروفة. وبحكم هذا الأمر، وأهمية هذا المنصب المتوارث، رأى قسطنطين أنه يجب أن يكون له في الكنيسة مركز مماثل. فكل منطقة لها بطريركها وأساقفتها، شيوخها وشماسوها، لكن قسطنطين كان يعتبر نفسه «الحكم» الذي يجب الرجوع إليه. وقد اتخذ هذا الموقف منذ انعقاد أول مجمع مسكوني (٣٢٥م) وكان ذلك في عهده.

كانت الآريوسية وما دار حولها مشكلة الكنيسة المسيحية الرئيسية في أوائل القرن الرابع. وآريوس (٢٥٦-٣٣٥م) كان ليبي الأصل إسكندري النشأة والدراسة. وبعد خلاف بسيط مع الكسندروس أسقف الإسكندرية، سيم شماساً ثم كاهناً، وجعله

الأسقف خادم كنيسة. وقد كان آريوس عالماً ضليعاً في شؤون الدين والآراء الفلسفية، كما كان متكلماً فصيحاً يجيد الوعظ والإرشاد فالتف حوله كثيرون.

كانت الفكرة (اللاهوتية) التي دارت تعاليم أريوس حولها هي أن الأب وحده (من الأقانيم الثلاثة) استحق لقب الإله. أما الابن فلم يكن سوى إله ثانوي منخفض الرتبة، لكنه تميز عن بقية المخلوقات في أنه كان صورة الأب في جوهره وما إلى ذلك. وقد اعترض على تعاليم أريوس كثيرون.

يخيّل إلينا أن آريوس قد نفذ إلى الكثير مما كانت مصر تقول في شؤونها الدينية القديمة التي هي نتيجة تطور امتد آلاف السنين.

كانت في مصر مجموعة آلهة تدور حولها عبادة وطقوس ومعان. المجموعة هي حوروس وإيزيس وأوزيريس. ومن هذا الثلاثي كان لواحد فقط موضع خاص هو حوروس. لسنا نستبعد أن يكون لآريوس هذه النظرة. وهذا يعيدنا إلى ما ذكرناه قبلاً وهو أن أموراً كثيرة اختلف المسيحيون بشأنها لاهوتياً يعود الأمر فيها إلى الجذور البعيدة لنفسية البلد والجماعة، أو هذا الذي نسميه نحن الطبقة الجيولوجية الاجتماعية التي تستمر في تغذية الطبقات التي تليها، ومن ثم تستمر في التأثير فيها.

دعا ألكسندروس (أسقف الإسكندرية) آريوس وخصومه إلى مناقشة علنية كانت، على ما روي عنها، ممتعة جداً. لكن أسقف الإسكندرية، بعد أن أثنى على جميع المتكلمين منع آريوس من تعليمه وطلب منه أن يكرر قوله هو، وهو أن الابن مساوٍ للأب في الجوهر. وقد عقد الأسقف مجمعاً من المتقدمين من كهنة مصر، وعرض عليهم القضية لأن آريوس رفض أمر سيده. فدان ٩٨ من أصل ١٠٠ من الحاضرين آريوس، فقطعه (حرمه) المجمع مع بعض مؤيديه.

خرج أريوس إلى قيصرية فلسطين الساحلية وكان أسقفها يوسابيوس عالماً كبيراً. وكان يميل الى آريوس فشجعه. ثم انتقل آريوس إلى نيقوميدية فأيده أسقفها. وكتب إلى الكثيرين مدافعاً عنه، بل ودعا إلى مجمع نصر آريوس وكتب المجمع إلى أسقف الإسكندرية ليرفع القطع (الحرم) عنه.

وبقدر ما نشط آريوس وأصدقاؤه هبّ ألكسندروس، أسقف الإسكندرية، للدفاع عمّا سماه الإيمان القويم. ويبدو أن أسقف الإسكندرية كتب إلى نحو سبعين أسقفاً، بينهم أساقفة رومة وأنطاكية وقيصرية(فلسطين) وبيت المقدس وصور وحلب وغزة وعسقلان.

تجاوزت الأريوسية الجماعة الأولى وانتشرت في أوساط المسيحية الشرقية. وقد أيد بعض الأساقفة التابعين لبطريركية الإسكندرية آريوس فمنحوه (في اجتماع تم في قيصرية فلسطين) وجماعته حق الرجوع إلى ممارسة الأسرار. ومعنى هذا أنهم هم

ألغوا الحرمان. لكن كان يجب أن يقبل أسقف الإسكندرية بمثل هذا القرار قبل أن يسمح لآريوس بالعودة إلى عمله.

عاد آريوس إلى الإسكندرية متسلحاً بقرار قيصرية فلسطين، ونظم الأغاني والأهازيج الروحية التي تحوي أفكاره فعمّم آراءه على الناس الذين حفظوها وأعادوها في الأماكن والساحات العامة.

هذه القضية أقضت مضاجع قسطنطين. فالرجل كان قد بذل الجهد الجهيد في سبيل الوصول إلى العرش وتوحيد الإمبراطورية. لذلك غضب لما بلغه هذا الخلاف بين قطبين من أقطاب المسيحية. وكان لقسطنطين صديق اسمه هوسيوس شيخ تقي (أسقف قرطبة في إسبانية) فاستشاره في الأمر. المهم، على ما يرى أسد رستم، هو أن هوسيوس «لم يدرك أهمية النزاع العقائدي وصلته بألوهية السيد المسيح المخلّص. ولا غرو في ذلك، فإن معظم أساقفة الغرب كانوا ما يزالون بعيدين عن تفهم هذه الأمور لقلة تضلّعهم في الفلسفة واللاهوت».

استمر الأخذ والعطاء والنصح والإرشاد والتشاور والتنابذ ومحاولة المصالحة والخصومة وقتاً لا طائل تحته. وعندئذٍ دعا قسطنطين جميع الأساقفة من جميع أنحاء الإمبراطورية إلى التشاور وتبادل الرأي. وعيّن مكان الاجتماع في نيقية، وعقد في ٣٢٥م أول مجمع مسكوني.

ولعله من المناسب، قبل أن نتحدث عن هذا المجمع المسكوني، أن نحدد معنى المجامع المسيحية. فقد كانت المشكلات التي تواجه أساقفة الكنيسة تعرض على مجمع يعقد في الأبرشية (أنطاكية أو القسطنطينية أو الإسكندرية أو القدس - بعد ٤٥١م). هذا يدعو إليه رئيس الأبرشية أو مجموعة من الأساقفة. هذه المجامع كانت تسمّى إقليمية. لكن القضايا الكبرى كانت تحتاج الى مجمع مسكوني يحضره الأساقفة من جميع أنحاء العالم المسيحي.

دعا قسطنطين إلى أول مجمع مسكوني، فأصبح التقليد، فيما بعد، أن يدعى المجمع المسكوني من قبل السلطة المدنية (وقد يدعو اليه الأساقفة الكبار).

عقد المجمع المسكوني الأول في نيقية في ٣٢٥م. وقد وصلنا وصف لحفلة الافتتاح من قلم يوسابيوس المؤرخ الكنسي، نرى في نقله فائدة لأنه يعطينا الصورة التي أرادها قسطنطين لنفسه كمحام للكنيسة والإيمان المسيحيين. قال يوسابيوس:

«واجتمع الآباء الأجلاء في اليوم العشرين من أيار (مايو) من شهور السنة ٣٢٥م في بهو كبير في البلاط، وجلسوا في الأماكن المخصصة لهم إلى اليمين وإلى اليسار وباتوا ينتظرون وصول الإمبراطور منصتين. ثم أعطيت الإشارة بوصوله فانتصبوا احتراماً وإجلالاً. ودخل قسطنطين بالأرجوان والذهب ووراءه بعض أفراد الحاشية من

المسيحيين. ولما وصل الى المكان الذي أعد له، شاء ألا يجلس قبل جلوس الأساقفة. وأمرهم فامتثلوا.

«وتوسط الإمبراطور مجلس الآباء على كرسي من ذهب. ونهض رئيس المجمع (لعله كان أسقف أنطاكية) فشكر للإمبراطور عنايته بالكنيسة. فرد عليه الإمبراطور شاكراً لملك الكون نعمه الكثيرة، ولا سيما تلك التي أتاحت له أن يرى الأساقفة مجتمعين بفكر واحد وقلب واحد... وأكد أنه يعتبر كل شغب في داخل الكنيسة مساوياً في الخطر لحرب كاملة».

عقدت فيما بعد مجامع مسكونية في القسطنطينية (٣٨١م) وفي أفسوس (٤٣١ م) وفي خلقدونية (٤٥١ م) ومجمع القسطنطينية الثاني (٥٥٣ م.) ولم يحضر من الأساقفة الشرقيين أحد بشكل رسمي بدءاً من مجمع رومة (٦٤٩ م) ولا بعده، لأن العرب احتلوا بلاد الشام ومصر فانقطعت الصلة بين الأساقفة الشرقيين والمجامع المسكونية التي عقدت في الغرب أو في القسطنطينية.

ولنذكر أمراً آخر يتعلق بالمجامع المسكونية: إن القضايا التي دعيت المجامع المسكونية من أجلها، لم تحلّ. وكثيراً ما كان الإمبراطور يلجأ إلى فرض الحل الذي يرتئيه أو الذي قد يتوصل اليه المجتمعون بأكثرية. لكن ذلك لم يعنِ أن حل الإمبراطور أو رأي الأكثرية كان يقبل بالضرورة. إن الأقلية قد تزداد عناداً أو تخرج غاضبة من المجمع. وقد يعرّضها موقفها لاضطهاد رسمي.

ولنعد إلى نيقية.

اختلفت الروايات في عدد الأساقفة المجتمعين. فقد راوحت الروايات بين أن يكون العدد مئتين وسبعين أو ثلاثمئة.

اتخذ مجمع نيقية قراراً بإصدار قانون الإيمان، الذي أصبح فيما بعد هو القانون النيقاوي، ولو أنه لم يتخذ بشكله النهائي إلا فيما بعد.

وهذا هو نص القانون النيقاوي (وقد يختلف نصاً بين كنيسة وأخرى لكن المعنى المقصود واحد):

«أومن بإله واحد آب ضابط الكل، خالق السماء والأرض، كل ما يرى وما لا يرى. وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الآب قبل كل الدهور. نور من نور، إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق، مساو للآب في الجوهر، الذي به كان كل شيء، الذي من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا، نزل من السماء وتجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء وتأنس. وصلب عنا على عهد بيلاطس البنطي. وتألم وقبر وقام في اليوم الثالث على ما في الكتب. وصعد إلى السماء، وجلس عن يمين الآب، وأيضاً يأتي بمجد عظيم ليدين الأحياء والأموات. الذي لا فناء لملكه.

«وبالروح القدس الرب المحيي المنبثق من الآب، الذي هو مع الأب والابن، مسجود له وممجد، الناطق بالأنبياء وبكنيسة واحدة جامعة مقدسة رسولية. وأعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا. وأترجى قيامة الموتى والحياة في الدهر الآتي. آمين».

ختم المجمع أعماله في شهر حزيران/ يونيو من سنة ٣٢٥م. لكن هذا المجمع لم يتمكن من استئصال بذور الخلاف. فقد شعر الكثيرون من الأعضاء، بعد عودتهم إلى أبرشياتهم، بشيء من الحرية. فعادوا إلى الحديث والبحث في قضية المساواة في الجوهر. و كان بين الذين تناولوا هذه المسائل جماعة من كبار العلماء بقطع النظر عن مناصبهم، ولو أن بعضهم كانوا أساقفة.

توفي قسطنطين في ٣٣٧م من دون أن تحل القضية. والمهم أن الآريوسية ضعف شأنها في المشرق تدريجياً لأن خلافاً جديداً ظهر وكان أقوى منها وأعنف. لكنها انتقلت الى الغرب وشغلت المؤسسات الدينية والسلطوية هناك. أما في المشرق فقد ظلت لها آثار، لكنها كانت بهتت شيئاً فشيئاً حتى اختفت في القرن السابع.

أدرك قسطنطين أنه لن ينجح بالضغط والإكراه. وجرّب وسائل الإقناع فلم يفلح. فالخلاف كان قد استحكم. وكان خلفاؤه أقل نجاحاً. فقد اتبعوا سياسة تأييد لمن يحبون من أتباع الآريوسية أو خصومها. وقد تقلب خلفاؤه بين الأرثوذكسية[1] والآريوسية.

في هذه المعمعة اللاهوتية وما لابسها من مشكلات لم يكن لها حلّ، كان الشخصية البارزة، والتي طبعت الفترة بقوتها، هو أثناسيوس الكبير بطريرك الإسكندرية (٣٢٧ - ٣٧٣ م) الذي تولى المنصب ستاً وأربعين سنة. وقد كان خصماً عنيداً للأريوسية، وقاومها بعنف ومن دون رحمة. وقد بدأ الدفاع عن اللاهوت النيقاوي ساعة تولى منصبه. فوضع كتباً وكتب نشرات، واتصل بالأباطرة كتابة وشخصياً، وكافح في سبيل آرائه بكل ما يمكن من قوة وعلم. كافح في مصر وخارجها، ولذلك، وبسبب عنفه وإخلاصه، كسب أصدقاء ونصّب الأعداء ضده. وقد نفي أربع مرات بأوامر إمبراطورية، وقضى نحو خمس عشرة سنة إما في المنفى أو في المخابئ في البلاد. وطالت حياته بحيث توفي أكثر خصومه قبله، بما في ذلك ستة عشر إمبراطوراً.

كان أثناسيوس قائداً مسيحياً من نوع فذ. فقد فرض طاعته على الكثيرين، وكان نفوذه لا يقل عن نفوذ أهل الحكم. وكثيراً ما اعتبر أثناسيوس على أنه منقذ للأرثوذكسية، الذي نجح في انقاذ الكنيسة من براثن الآريوسية. وقام بالحملة منفرداً.

على أننا، مع اعترافنا بقدرته وتفرده بالعلم والنشاط والمثابرة، يجب أن نتذكر أن المشكلة بالنسبة الى المسيحيين وكنيستهم، هي أن الأساس الذي اتبع للوصول الى الأغراض كان الترويض والإكراه. ولعل أثناسيوس، المدافع عن الأرثوذكسية، كان نفسه

واحداً من رموز الإكراه.

ولا بد هنا من وقفة للمقابلة بين المسيحية قبل نيقية وبعدها. في القرون الثلاثة الأولى بدت الكنيسة والجماعة المسيحية وكأنها محافظة على الوحدة، وبذلك ربحت المعركة ضد الأباطرة. ولكن الكنيسة نفسها بدت في أواسط القرن الرابع وكأنها قد فقدت تساوقها الداخلي، واستعاضت عنه بانقسام الى فئات متنافرة. إن المسيحيين الذين كانوا من قبل يرفضون الخضوع لأوامر الأباطرة، أصبحوا الآن يَسْتَعْدُون القوة الإمبراطورية كي تقفل معابد خصومهم وتلقي القبض على كهنتهم. وكان السبب المباشر لهذا هو هذا المزج بين الكنيسة والإمبراطورية. كانت حياة المجتمع المسيحي قبل نيقية تقوم على الحرية، وكانت عضوية الكنيسة تقتضي التضحية في سبيلها. لكن نيقية بدّلت هذا المبدأ الأساسي إذ أصبحت الكنيسة مؤسسة ذات امتيازات. وقد تعهدت الدولة بالحفاظ على وحدتها وعلى الأرثوذكسية. وأصبح الذين يخالفون أنظمتها وقوانينها يعاقبون كما يعاقب مخالفو الأنظمة المدنية.

كان الاعتراف بالإيمان قضية خاصة من قبل، فأصبح الآن قضية عامة، حيث أن من يخالفها، رجل دين كان أو انساناً عادياً (وخاصة الأول) يتعرض للعقوبة الصارمة. وأصبح زعماء الكنيسة، الذين كانوا قبلاً يتمتعون بسلطة روحية أخلاقية، يرون أنفسهم موظفين امبراطوريين، يتمتعون بالسلطة القاهرة التي لا يمكن أن تقاوم، عندما يشاء صاحبها ذلك. ولنذكر، على سبيل المثال، أن الأسقف جورجيوس الذي أرسل الى الإسكندرية سنة ٣٥٧م ليحل محل الأسقف أثناسيوس (في واحدة من فترات نفيه) تصرف بقسوة بالغة بالنسبة إلى أولئك الذين لم يعترفوا به، الى حد أن رعيته طردته من المدينة. على أن هناك أمثلة أخرى على تخلي الأساقفة عن حرية الكنيسة والجماعة المسيحية في سبيل الحصول على تأييد الدولة: أثناسيوس نفسه وسلفستر أسقف رومة وهوسيوس أسقف قرطبة (في اسبانبة) ويوسابيوس.

في سنة ٣٨١م عقد مجمع مسكوني في القسطنطينية. و قرر هذا المجمع القبول نهائياً بالنص النيقاوي كقانون للإيمان. كما أنه رفع منصب أسقف القسطنطينية الى درجة البطريركية، وجعلت مرتبته الثانية بين البطريركيين الأربعة: رومة والقسطنطينية والاسكندرية وأنطاكية. (القدس أصبحت بطريركية في سنة ٤٥١م). وفي ٣٨٣م أصدر تيودوسيوس (٣٧٩- ٣٩٥م) أمره بوجوب التقيد بالنص النيقاوي.

الهوامش

(١) الارثوذكسية كلمة يونانية الأصل معناها الطريق المستقيم. والكنيسة الارثوذكسية سميت كذلك لأنها كنيسة الاستقامة في الإيمان. وفي ذلك الوقت كان الارثوذكس هم الذين قبلوا قانون الإيمان الذي أقره المجمع المسكوني المنعقد في نيقية ٤٢٥م.

٢- يوحنا الذهبي الفم

على ما مر بنا، وعلى ما سيمر بنا بعد، تعرضت المسيحية لخلافات مذهبية وعقائدية متعددة ومتنوعة. وما أكثر ما كانت ساخنة عنيفة! فتختلط فيها السلطات الرسمية الإمبراطورية ومؤيدو واحد من أصحاب الأفكار المخالفة، فيكون فيها مناوشات وقتال وما إلى ذلك. لكن ثمة ناحية تظل هي الناصعة بالنسبة الى الفكر المسيحي، وهي الاجتهادات التي كان يتقدم بها رجال العلم والمعرفة، في حقل اللاهوت والفلسفة واللغة، لتوضيح آرائهم. هذه الاجتهادات هي ثروة كبيرة. ولسنا ننوي أن نتحدث عن هذه الجهود التي بذلت، لكن لا بد من التحدث حديثاً مقتضباً عن بعض هؤلاء الأعلام، على أن نسمح لأنفسنا أن نتحدث عن واحد من هؤلاء حديثاً أكثر من مقتضب.

هناك ثلاثة من رجال الدين الرهبان - النساك هم: باسيليوس الكبير (ح ٣٢٩ - ٣٧٩م) وأخوه غريغوريوس النسّاي (ح ٣٣٥- ٣٩٦م) وغريغوريوس النازيانزي (ح ٣٣٠- ٣٨٩م). ويسمى عادة هؤلاء الأخوة (بمعنى قرابة الرهبنة والنسك) القبادوقيين، لأنهم جاءوا من تلك المنطقة[1] ونشأوا فيها. ويطلق البعض عليهم اسم الآباء القبادوقيين من حيث علاقتهم المباشرة بالعمل في سبيل الكنيسة.

كان الدور الرئيسي الذي قاموا به هو أنهم نظّموا معلوماتهم وأفكارهم اللاهوتية حيث أنها استوعبت الرسالة المسيحية ومنحتها الوعاء الصالح اللازم لها. هذا فيما كان خصومهم ومناوئوهم مستعدين لقَوْلَبَة آرائهم اللاهوتية كي تستوي مع المقولات الفلسفية المعاصرة، رغبة منهم في التقرب من البلاط. أما الآباء القبادوقيون، وهم أهل خلق سليم وأصحاب شجاعة وجراءة، فلم يتقربوا من البلاط، ولا طلبوا منه شيئاً. كان هؤلاء القوم ثابتين في مواقفهم من دون أن يؤذوا الناس بتصرفهم. كانوا نساكاً لكنهم لم يكونوا متعصبين، على نحو ما عرف عن آخرين. كانوا أرثوذكسيين - أي مستقيمي الرأي - لكنهم كانوا حريصين على أن يسود السلام في الكنيسة، وكانوا يعملون في سبيل ذلك. وكم بذلوا من الجهد في سبيل إعادة الوفاق بين الفريق النيقاوي والأكثرية المحافظة من المسيحيين الشرقيين. (والشرقيون هنا تعني أتباع بطريركيات القسطنطينية والإسكندرية وأنطاكية، والقدس فيما بعد). وقد كان كل

منهم عارفاً بعمق، مثقفاً باتساع، مدركاً القضايا التي كان يوليها عنايته، سواء في شؤون اللاهوت أم بإقصاء السلطة عن التدخل في القضايا الكنائسية العقائدية.

وعندما ندخل في ناحية صميمية من أعمالهم نجد أنهم، مثل يوحنا الذهبي الفم، «سكّوا» كلمات جديدة تستطيع ان تفسر الرؤيا المسيحية لله. ذلك بأن اللغة اليونانية التي كانت الفلسفة القديمة، واليونانية خاصة، تستعملها لتبيان آرائها كانت أحد الأسباب الرئيسة في ما طرأ على الفكر اللاهوتي المسيحي، وفي أيامه الأولى خاصة، من اضطراب فيه، ومرارة بين المشتغلين به.

ولعلّ من أطرف ما وصلنا عن هؤلاء العاملين في حقل اللاهوت المسيحي في تلك الأيام السحيقة نسبياً، هو الذي قاله أحد مؤرخي الكنيسة سقراط (٣٧٩ - ٤٤٥م) وهو، إن الأساقفة كانوا، وهم يتناقشون في المشكلات التي لا نهاية لها، أشبه ما يمكن بأولئك الذين يتقاتلون في الظلام، اذ لم يكونوا يدركون مواقع الخصوم العقائدية بأيّ درجة من الدقة.

هذا مع العلم أنهم لم يتمنعوا عن قبول مناصب كنسية كبيرة. فقد تولى باسيليوس الكبير أسقفية القسطنطينية. وكان لأخيه غريغوريوس النسّاي، فضل في إنجاح القانون النيقاوي سنة ٣٨١م.

وقد كانت كتاباته اللاهوتية تنعم بمسحة من اللطف والتفاؤل. ومما كُلِّفَه زيارة الكنائس في بلاد العرب وجنوب أرض الرافدين والتحقق من أوضاعها وأحوالها. ومما يدل على مكانة الرجل الفكرية هو أنه في ٧٨٧م لما عقد المجمع المسكوني السابع منح لقب أب آباء الكنيسة.

أما غريغوريوس النازيانزي فقد قبل، بضغط من باسيليوس الكبير، أن يتولى اسقفية صغيرة، وأقام فيها. لكن لما توفي باسيليوس الكبير جاء القسطنطينية، وأخذ يعظ الناس ويعلمهم في غرفة في بيت يخص أحد أصحابه. ولم يلبث أن أصبح أكبر خطيب واعظ في العاصمة. ويبدو أنه في هذه الفترة ألقى خطبه الخمس حول التثليث المسيحي. ويقول زرنوف عن هذه الخطب إنها تمثل واحداً من أعظم الانجازات في لاهوت الكنيسة الشرقية.

لم يكن هؤلاء الوحيدين بين علماء اللاهوت في القرن الرابع. إذ عندنا يوحنا الذهبي الفم وعدد من الرهبان والنساك الموارنة وغيرهم في مناطق إديسًا (الرها) وغيرها.

ولد يوحنا الذهبي الفم في أنطاكية سنة ٣٤٥م. كان أبوه قائد القوات الرومانية في سورية، وكانت أمه مسيحية. وكان ليوحنا أخت، وهما من أنجبته الأسرة لأن الوالد توفي شاباً.

درس يوحنا اللغة والبيان في مدرسة ليبانيوس، الذي كان من كبار البلغاء في عصره. فأجاد الطالب اليونانية وما تحويه هذه اللغة من بيان وأدب. وتتلمذ يوحنا على أندروغاثيوس الأنطاكي في الفلسفة. ولما اشتد عوده امتهن المحاماة فبرز فيها وجلّى بسبب مهارته في الخطابة التي يعتبر من رجالها الأفذاذ عبر التاريخ. ثم ترك هذه المهنة.

وعكف بعدها على الإنجيل يستقي منه معرفة. وكان مرشده في هذا ملاتيوس، أسقف أنطاكية. وانتهى الأمر به ان قبل المعمودية وهو في سن الثالثة والعشرين. وهنا انصرف الشاب الى المطالعة والتأمل والصلاة. ثم أنشأ مع صديقه باسيليوس (الكبير) أخوية نسكية صغيرة العدد، لكنها كانت معروفة بتقوى أفرادها. كان هؤلاء ينهضون مبكرين لتلاوة صلاة الصبح، وبعد ذلك يصرفون ساعات الصباح الأولى في التأمل في الأسفار المقدسة أو في التأليف. وكانوا يقضون ساعات النهار في القيام بالأعمال اليدوية كحراثة الأرض وحياكة السلال والمسوح وخياطة الثياب للفقراء وجمع الحطب وإصلاح الأطعمة. كانوا يعتبرون جميع الناس ضيوفهم.

كانوا يتناولون الوجبة الوحيدة عند زوال النهار، وكانت هذه قوامها الخبز والملح وبعض الزيت نادراً. وبعد صلاة المساء وصرف الوقت في التأمل والتفكير ومراجعة النفس، كانوا يلقون بأنفسهم على الحصر المفروشة على الأرض كي يعطوا أجسامهم قسطاً من الراحة.

رسم أسقف أنطاكية يوحنا قارئاً، وتجنب رسامة أخرى ،ولكن موقتاً، إذ إنه أصبح في نهاية المطاف أسقف (بطريرك) القسطنطينية.

وحدث أن كان الإمبراطور والنس (٣٦٤-٣٧٨م) ذا ميول أريوسية فغضب على الأرثوذكسيين (٣٧٣م) وأجبر نساكهم ورهبانهم على خدمة الدولة حيثما تطلبهم، أي في الجيش أو في الوظائف المدنية. وسخر الناس من النساك لأنهم كانوا يعدّونهم مجانين. وبلغ السرور بالوثنيين الحد الأعلى إذ رأوا هؤلاء المسيحيين يعاقبهم إمبراطور مسيحي، ويقوم جنوده بتطبيق الأوامر عليهم بكثير من الشدة والامتهان. فخرج يوحنا من أنطاكية بعد الذي خبره الى وادي العاصي وأوى الى مغارة على مقربة من مصبّه. لكن لم يقو على هذا النوع من التقشف، فرجع الى أنطاكية (٣٨١م). ولقيه أسقف أنطاكية ملاتيوس فرسمه شماساً. وبذلك دخل الخط الكهنوتي. وبعد مدة جعله كاهناً وواعظاً.

عندها تبدّت مقدرة يوحنا في وعظه. ومن هنا جاءت تسميته يوحنا الذهبي الفم (يوحنا فم الذهب – والأول أنسب). وانصرف الواعظ الجديد إلى مرابض الرذائل في المدينة فسلّط عليها الأنوار، ثم عمل على تخفيف آلام الفقر والرقيق في المدينة.

ولعل من اهم ما تم على يده هو تحريك غيرة الأغنياء وكرمهم حيث أنهم مدوا للكنيسة يد المعونة، فعملت هذه على إنشاء المستشفيات والمآوي.

ووضعت هذه جميعها برئاسة الأسقف. أما العاملون فيها فقد كانوا الشمامسة والشيوخ وبقية رجال الكهنوت.

كان الاحتفال بعيد الميلاد قد بدأ في الكنيسة الغربية (أي في بطريركية رومة) وكان قد اتفق هناك على يوم ٢٥ كانون الأول/ ديسمبر تاريخاً لعيد الميلاد. في سنة ٣٧٦ م بدأت الكنيسة الأنطاكية تحتفل بهذا العيد. ولم يكن الناس يعرفون عنه ما فيه الكفاية للاحتفال به. كانوا يحتفلون بأعياد الغطاس (لارتباطه بعماد المسيح) وبعيد الفصح (وهو يوم قيامة المسيح من الأموات) ويوم العنصرة (احتفالاً بنزول الروح القدس على تلاميذ المسيح بعد صعوده الى السماء). أما عيد الميلاد فقد رأى فيه الناس شيئاً جديداً في الدين، ولم يكن الناس يحبون أن تضاف الى احتفالاتهم وطقوسهم الدينية أشياء جديدة (وهم لا يحبون حتى يوم الناس هذا). فألقى يوحنا موعظتين حول الموضوع: الواحدة في ٢٠ كانون الأول/ ديسمبر ٣٨٦م والثانية يوم العيد. شرح في الأولى أهمية العيد إذ هو ذكرى ميلاد السيد. ومما جاء في عظته يوم العيد قوله: «ولئن كان ظهور هذا اليوم الشريف ومعرفتنا إياه من مدة لا تنوف على عشر سنوات فمع ذلك بما أظهرتموه فيه أيها المسيحيون من الجد والنشاط قد ازدهى وأضاء كأنه مسلّم به قديماً. وقد كان معروفاً من البدء بين الشعوب القاطنين في الغرب ودخل بيننا حديثاً، ومع ذلك أينعت ثماره الدانية القطوف بغزارة، تظهر لكم بما تشاهدون من احتشاد الشعب في الدار وما حولها، فضلاً عن ان الكنيسة ضاقت بالذين وافوا إليها».

أرادت حكومة الإمبراطور ثيودوسيوس (٣٧٩- ٣٩٥م) أن تحتفل بمرور عشر سنوات على توليه السلطة. وهذا كان يعني نفقات طائلة يترتب على جمهور الانطاكيين أن يدفعوها. وقد كانت الإدارة تلطخت بكل أنواع الرشوة. فوقع خبر هذه الترتيبات على السكان وقع الصاعقة (بدء المطالبات والترتيبات كان سنة ٣٨١م). فطلب الأنطاكيون رفع العبء الذي يثقل كاهلهم، فلم يصغ الحاكم وأساء الجباة التصرف في جمع المطلوب، فثار سكان أنطاكية: لعنوا الامبراطور وأسرته وحطّموا التماثيل النحاسية في المدينة، وجروا تماثيل الامبراطورة في الوحل. ثم تنبهوا الى غلطتهم وخافوا العاقبة، فهجر بعضهم منازلهم ومدينتهم ولجأوا الى المناطق المجاورة.

ذهب أسقف انطاكية الى الامبراطور ليهدئ باله ويشفع للسكان الذين جُنُوا فجنَوا على أنفسهم. وأخذ الأسقف معه من يساعده وترك المدينة في عهدة يوحنا (الواعظ). وكان الإمبراطور قد غضب على أهل أنطاكية وقرر عليهم عقاباً شديداً

وأرسل قائدين لتنفيذ العقوبات. لكن يوحنا كان يهدئ روع الموجودين بوعظه ومظاهر تصرفه التقي، الى أن نجح الأسقف في استعطاف الإمبراطور الذي عفا عن أهل أنطاكية، متبعاً في ذلك خطى المسيح الذي عفا حتى عن قاتليه.

ولما فرغ منصب أسقف (بطريرك) القسطنطينية سنة ٣٩٦م بوفاة شاغله، انتهى الأمر باختيار يوحنا الذهبي الفم لهذا المنصب الخطير (٣٩٨م). وعندها عمل يوحنا على تطهير الكنيسة ومؤسساتها من فساد رجالها. ومنها أنه خفّض نفقات الأسقفية، وحمى المؤمنين من الأريوسيين؛ وهؤلاء كانوا من الجنود الإمبراطوريين الذين كانوا يجندون من السقّاط وغيرهم إذ إن الأريوسية انتشرت بينهم. وقد بدا تفوقهم لما أصبح القائد القوطي[٢] غانياس صاحب نفوذ في العاصمة. وقد قتل غانياس بعد أن خسر مركزه في العاصمة لما خرج منها.

وكان من الطبيعي أن يكون ليوحنا الذهبي الفم خصوم بسبب تصرفه النظيف الدقيق، وأن يزداد عدد الخصوم ويظهروا عندما يختل الأمن في المدينة؛ فضلاً عن ذلك فقد كان أسقف الإسكندرية ناقماً على يوحنا لأنه كان هو يود أن يشغل هذا المنصب. لذلك تكاتف الخصوم وتكالبوا على الرجل الطيب واجتمعوا (٤٠٣م) واتهموا يوحنا بتهم لا تعد ولا تحصى، وطلبوا منه أن يدافع عن نفسه. وأبى أن يحضر أمامهم فقرروا خلعه (وهذا كان عملاً غير قانوني). ولم يعترف يوحنا بقرارهم أولاً. ولم يجرؤ أصحاب الأمر أن ينفذوا الحكم بالقوة خشية غضب الجمهور. لكن يوحنا سلم نفسه منعاً للشقاق في الكنيسة فنفي.

وغضب الشعب في اليوم التالي لما افتقد أسقفه. وهاجت المدينة. لكن الذي شفع بيوحنا في القصر هو هذا الزلزال الذي ضرب القصر وهز أركانه. فخافت الإمبراطورة وترك لها الإمبراطور حرية التصرف فكتبت الى يوحنا معتذرة له راجية منه العودة السريعة؛ فعاد معززاً.

لكن الخصوم قد كانوا تكاثروا وتقووا عليه. وحتى الإمبراطورة عادت فنسيت خوفها. خاصة لما أقام الإمبراطور لها تمثالاً من الفضة وضع أمام أبواب كنيسة الحكمة الإلهية. ولما احتفل الشعب بذلك اليوم رقصاً وغناء ومصارعة أمام باب الكنيسة تكلم يوحنا عن ذلك لائماً مقرّعاً. فغضبت الامبراطورة. ونظم مجمع كنسي للنظر في المسألة. لكن لم يقطع بها بسبب موقف الذين اجتمعوا المتذبذب.

وفي يوم سبت النور (١٧ نيسان/ أبريل سنة ٤٠٤م) طرد يوحنا من الكنيسة بأمر الإمبراطور وطلب منه أن يلزم قلايته، أي الغرفة الخاصة به. وطرد جميع الكهنة الذين كانوا في شركة يوحنا الأسقف الكبير.

وبعد عيد العنصرة ببضعة أيام أوغر خصوم يوحنا صدر الإمبراطور من جديد،

فأرسل هذا الى الأسقف طالباً منه أن يغادر المدينة محافظة على راحة الناس عموماً. فقبل القديس ذلك وخرج الى نيقية. لكنه حمل قسراً على السير ستة وخمسين يوماً دون انقطاع حتى وصل منفاه في جبال طوروس. وقضى هناك نحو ثلاث سنوات. وعندما توفي بطريرك القسطنطينية الذي عين مكان يوحنا، أمّل الناس أن يعود رجلهم إليهم. لكن المتآمرين الذين خشوا أن يلين الإمبراطور أسرعوا فانتخبوا أسقفاً (بطريركاً) جديداً. غير أن الشعب تنحى عن هذا الرجل الجديد، فاغتاظ وظهرت نذالته في أنه طلب من الإمبراطور نقل يوحنا الى منفى جديد على ساحل البحر الأسود الشرقي. وكان الإمبراطور يومها أركاديوس، ابن ثيودوسيوس، وكان ضعيفاً من اليسير التلاعب به. ولذلك منح الأسقف الجديد الأمر الذي طلبه. وحمل يوحنا على الانتقال مشياً من جنوب غرب آسية الصغرى الى شمالها الشرقي من دون راحة أو رحمة. ولما اقترب الموكب من كومانة كان القديس قد أصبح عظماً وجلداً فتوفي وهو على بعد نحو عشرة كيلومترات من كومانة[٣]. كان ذلك في ١٤ أيلول/ سبتمبر ٤٠٧م.

يعتبر يوحنا الذهبي الفم، الى مقدرته في الوعظ الى درجة كان يحسد عليها، لأنه كان يحرك الصخر كما وصفه أحد معاصريه - كونه واحداً من كبار الكتّاب المسيحيين في العصور المسيحية الأولى.

ويوحنا يمثل الاتجاه اليوناني في الكتابة والتأليف المسيحيين. فهو أصلاً طالب أدب ولغة يونانيّين، وهو معنيّ بالفلسفة اليونانية. فهو من هذه الناحية هلينستي من الصف الأول. ودرس الكتب المقدسة في ترجمتها (أو في أصولها) اليونانية. فليس عندنا ما يدل على أنه كان يعرف الآرامية/ السريانية، بل نحن لا ندري فيما اذا كان يعرف حتى اللاتينية.

وهو الى ذلك من أعمدة الأرثوذكسية بالنسبة الى ذلك العصر. ومعنى هذا أنه خصم لجميع الاتجاهات التي كانت تنأى عمّا استنه مجمع نيقية (٣٢٥م).

في موعظاته كان يوضح قضايا الإيمان وقواعد الحياة المسيحية للذين يستمعون اليه. وكان يحارب الشر في شخص إبليس، فكانت له ثلاث خطب وثلاثة كتب (رسائل) حول هذه القضية بالذات. هذا مثل على محاربته بسبب موقفه السلبي من الأبالسة.

وفي النواحي الإيجابية مثلاً كان كثير العناية بأهمية التوبة والمحبة. هذا كان موجهاً للمؤمنين. أما الوثنيون فكان يردّ عليهم اتهاماتهم مفسراً لهم الوضع شارحاً الأمر على وجه الصحة. فهؤلاء كانوا يرون في تجسد ابن الله شيئاً بعيداً. فشرح يوحنا لهم ذلك في أكثر من خطبة واحدة. وقيامة المسيح شغلت يوحنا بسبب جهل البعض الفكرة ومعناها. لذلك تقدم بتفسير وشرح لها.

ويفسر لقرائه (ومستمعيه) سبب تكريم الشهداء وأهمية الصوم وقيمة التوبة ومعنى

طهارة القلب.

كان يوحنا يعظ ويكتب وهو بعد في أنطاكية. فمعروف أنه ألقى في كنيسة بولس بأنطاكية ثماني وثمانين موعظة في إنجيل يوحنا!

وكانت المؤسسات الكنسية أو الدينية تشغله فكان يوضحها للناس. ولنذكر أن أموراً كثيرة كانت قد بدت في القرن الرابع (أو نضجت فيه) وكان لا بد من تفسيرها للأتباع والخصوم. من هنا كانت هذه الكتب المتعددة التي أوضح فيها شؤون الكهنوت رتباً وواجبات وخدمات، وتلك التي دافع فيها عن الرهبنة والرهبان. ففي القرن الرابع انتشر الرهبان في منظمات مختلفة في مصر وبلاد الشام وأرض الرافدين وآسية الصغرى. وكان لا بد من أن تدرس هذه الظاهرة الغريبة. ويوحنا كان خير من يمكن أن يفعل ذلك، فقد جربها، ولو أنه لم يتنسك خارج أنطاكية.

وكما كان يرد على الوثنيين فقد رد على اليهود. وقد ألقى إحدى وعشرين خطبة لمناسبة ثورة أنطاكية المار ذكرها، أظهر فيها أن المدينة أثمت فتخلى عنها، لكن يترتب على أهلها أن يعودوا الى الله، لأن الله لا يتخلى عنهم.

ويعتبر يوحنا الذهبي الفم واحداً من المفسرين الأوائل للكتاب المقدس. فسفر التكوين بقي من تفسيراته له ثمان وخمسون خطبة. هذا فضلاً عما وضعه لتفسير إشعيا وإرميا ودانيال. ونال العهد الجديد منه حصة كبيرة، منها ١٧٦ خطبة في انجيل متى ورسالة بولس الى أهل رومة ورسالة بولس الأولى الى أهل كورنث.

كان يوحنا موضع اهتمام كبير عند المحدثين، فنشر المصلح أراسموس مصنف يوحنا في الكهنوت سنة ١٥٢٥م في بازل باليوناتية. وقد نشرت مؤلفات الذهبي الفم باليونانية واللاتينية في ثلاثة عشر مجلداً في باريس على أيدي الآباء البندكتيين سنة ١٧١٣م. وأعيد طبعها في البندقية سنتي ١٧٣٤-١٧٤١م وفي باريس سنتي ١٨٣٤-١٨٣٩م. وظهرت طبعتان في السنوات ١٨٥٩-١٨٦٣م في ثلاثة عشر مجلداء وهذه نقلت الى الانكليزية على يد شاف ومساعديه.

(راجع أسد رستم، كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى، الجزء الأول، بيروت ١٩٥٨، وذلك للحصول على تفاصيل عن هذا القديس).

الهوامش

(١) قبا دوكيا منطقة تتوسط آسية الصغرى، وكانت يونانية اللغة والثقافة في ذلك الزمن.

(٢) القوط (أو الغوط) واحدة من القبائل الجرمانية التي هاجمت الامبراطورية الرومانية في القرن الرابع ميلادي واستقرت في أنحاء مختلفة من أوروبة. وكان القوط الشرقيون هم الذين دخلوا منطقة البلقان التي كانت جزءاً من الامبراطورية الرومانية الشرقية (الامبراطورية البزنطية). وقد كان ضغطهم على الامبراطورية البزنطية كبيراً بحيث أنهم كانوا عاملاً من عوامل اضطرابها المالي وضعفها في المنطقة.

(٣) كومانة بلدة تقع في شمال شرق آسية الصغرى في جوار البحر الأسود.

٣. الرهبنة -أ

يبدو أن المناطق المعزولة في فلسطين وبلاد الشام ومصر وسواها كانت دوماً تصلح ملجأ لأولئك الذين قرروا أن ينبذوا الحياة الدنيا، ويتنسكوا ويتعبدوا ويتهجدوا بعيدين عن الناس. ويتضح من تتبع تصرف الجماعات على اختلافها، والديانات على تباين وجهات نظرها، أنها كانت تتعرض دوماً لأن تنفذ حركات التنسك إليها فتجذب بعض الأتباع بعيداً عن الدنيا. وقد تزداد الرغبة (أو قد تحمل الجماعات على مثل هذا التصرف) نتيجة ضغط سياسي، أو اضطهاد ديني، أو خيبة أمل جماعية تسيطر على فئة من الناس، فيخرج هؤلاء إلى حيث يستمتعون بحريتهم في العبادة والتأمل، بعيدين عن أيدي السلطة والجماعة. وقد مر بنا خبر الاسينيين الذين ابتعدوا عن العالم وعاشوا على هامشه.

عرفت المسيحية الرهبنة، أي الابتعاد عن العالم، إما تنسكاً فردياً في خلايا خاصة قد تكون كهفاً أو كوخاً أو حتى أقل من ذلك؛ وإما انقطاعاً جماعياً حيث يعيش كل في جحر خاص به ثم يجتمعون في أوقات مقننة للمشاركة في الصلاة والعبادة؛ أو حتى في أديرة أقيمت إما في المدن أو بعيدة عنها، حيث عاشت الجماعة معاً وتعاونوا على البر والتقوى.

قويت هذه النزعة في القرن الرابع الميلادي، إذ إننا نجد أن النسّاك المنفردين أو الرهبان المجتمعين يخرجون الى الأماكن القصيّة احتجاجاً على تبدل في شكل العلاقة بين المؤسسات المسيحية والدولة. فقد تنازلت الكنيسة عن حريتها بعض الشيء لما تقدم قسطنطين (وتبعه خلفاؤه) بوضع الكنيسة تحت حماية الدولة.

على كل، يجب أن يتذكر الواحد منا أنه ليس من اليسير التعميم في تفسير مثل هذه الحركات. فما أكثر ما يكون تقليد الآخرين عاملاً أساسياً في مثل هذه التصرف! شأننا في الكثير من تصرفاتنا.

تعتبر مصر المنطلق الأول للتنسك ثم للرهبنة. فقد بدأت الحركة على يد أنطونيوس الكبير (٢٥١- ٣٥٦م) لما انسحب من الحياة (حوالى ٢٧٠م) وانصرف الى التنسك وحياة الزهد في الصحراء الشرقية في منطقة بني سويف شرقي النيل. وظل يتوغل في هذه المنطقة حتى أصبح يقيم في كهف يطل على البحر الأحمر. ولحق به

كثيرون. وكان كلٌّ يتنسك في كهفه أو كوخه أو ما يشبه ذلك منفرداً.

لكن هذا تبدل حتى في حياة أنطونيوس نفسه. ذلك بأن آخرين قلدوا المتنسك الكبير لكنهم أخذوا يعيشون على مقربة الواحد من الآخر، ثم انتقل الأمر فأصبحوا يعيشون معاً.

ليس من اليسير أن نتحدث عن جميع النساك الذين قلدوا أنطونيوس وأصبحوا زعماء للحركة، ولكن لا بد من التوقف عند باخوميوس الكبير (٢٩٠-٣٤٦م). كان باخوميوس جندياً في جيش قسطنطين. وقد تعرف بالمسيحيين في أثناء الحملات التي شارك فيها. وتأثر بالذين لقيهم وأعجبه تصرفهم، مما دفعه لاعتناق المسيحية. وانضم الى الناسك باليمون، الذي أدبه مسيحياً ودربه نسكياً. وقد فهم هذه الأمور. لكنه أدرك أيضاً أن النسك الفردي والزهد المجرد ليس هو ما تسعى المسيحية إليه. وأنه من الممكن تشويق عدد أكبر من الناس للانضمام الى صفوف هؤلاء المتعبدين اذا أعيد تنظيم المعيشة بحيث تكون جماعية - فردية في وقت واحد. وهكذا ولدت رهبنة القديس باخوميوس.

كان باخوميوس محباً للنظام الذي تعلمه من الجندية. وكان مدبراً حاذقاً. وكان يؤمن بالتعلم والتعليم. وقد أنشأ عدداً من الأديرة. وقيل إنه لما توفي كان عدد الرهبان في المؤسسات التي أقامها يقارب ٢٢ألف راهب!

إن النظام الذي وضعه باخوميوس كان دقيقاً حيث شغل الرهبان كل الوقت وبشكل منظم ونافع. فإنه، فضلاً عن تقنين ساعات النهار والليل بين العمل والصلاة والخدمة العامة، اقتضى من الرهبان الإيمان والعفة والفقر والطاعة. لكن أهم ما أدخله هذا الراهب الكبير في أديرته هو العمل. فالرهبان كانوا يقومون بالخبز والطبخ والنجارة والحدادة وصنع السلال وفتل الحبال والبناء ونسخ المخطوطات وحتى التأليف. فقد كان في كل دير - وكل دير كان قلعة - مطعم ومستشفى ومطحنة ومخبز ومطبخ ومخازن للحاجات الأساسية. كان الدير مستقلاً في أموره مكتفياً ذاتياً (وكانت ثمة بقعة في الساحة الكبيرة مخصصة لدفن الموتى).

كانت الأمية محرّمة في الدير. فالذي ينضم الى الرهبنة عليه أن يتعلم قدراً معيناً. وكان في الدير مكتبة غنية. وقد روي أن دير بانوبوليس، مثلاً، كان فيه خمسة عشر خياطاً وسبعة حدادين وأربعة نجارين وخمسة عشر قصّاراً (للقماش) واثنا عشر جمّالاً.

وكان ثمة مكان لاستقبال الضيوف.

كانت الأديرة التي أنشأها باخوميوس مراقبة بسبب اتصالها بعضها ببعض وتنظيم ادارتها. فكل ثلاثة أديرة أو أربعة، عندما تكون قريبة بعضها من البعض الآخر، كانت

لها إدارة واحدة، وكان يشرف على شؤونها رئيس ينتخب من بين رؤسائها. وكان الرهبان يجتمعون بانتظام لبحث المشكلات العامة. وكان هناك رئيس أعلى لمجموع الوحدات، وهو رئيس أكبر دير. وكان المسؤولون يعقدون اجتماعين سنوياً لبحث جميع القضايا واتخاذ القرارات المناسبة.

كانت هذه الأديرة تقبل بين الرهبان، فضلاً عن الأقباط (المصريين) وهم الأصل، اليونان والرومان والليبيين والنوبيين والسوريين والأحباش (الأثيوبيين) والقبادوقيين.

وقد زار هذه الأديرة وأقام فيها بعض الوقت عدد كبير من آباء الكنيسة. منهم يوحنا الذهبي الفم الذي أقام في دير بمنطقة طيبة (في جنوب البلاد) من ٣٧٣م الى ٣٨١م. وكان بين زوارها كذلك إيرونيموس (جيروم) وروفينس الايطالي المؤرخ الكنسي. والقديس باسيليوس الذي أدخل الرهبنة الى قبادوقية بعد تعرفه الى النظام هذا. وكان أيضاً بين الذين أقاموا في أحد الأديرة يوحنا الكاسياني من الغال الذي قضى سبع سنوات في منطقة طيبة وفي صحراء النطرون. وكان بين من جاء الأديرة زائرين سيدتان هما أثيرا وميلاني.

قام في القرن الخامس نظام آخر أسسه القديس شُنوت أتريبي (أتريب تقع على ضفة النيل الغربية قرب سوهاج). كان شنوت واعظاً لا يكل ولا يمل وكاتباً غزير الانتاج. وقد كان له فضل في تأصيل القبطية الجديدة حيث أصبحت لغة الكتابة، وهي أكثر أناقة من الإخميمية السابقة. وكان خصماً عنيداً للوثنية والهلينية. وقد كان في الأديرة التي أنشأها ما يزيد على ألفي راهب وما يقرب من ألفي راهبة.

زار كثير من المؤمنين الأديرة المصرية وتعلموا من قوانينها، وبعضهم عاد إلي بلاده وأنشأ أنظمة رهبانية على غرار ما وجد في مصر.

من هؤلاء هيلاريون الغزّي (حوالى ٢٩١ ـ ٣٧١ م). ولد هيلاريون من أبوين وثنيين في تَبَثَه، وهي قرية تبعد نحو ثمانية كيلومترات إلى الجنوب من غزة. ذهب إلى الإسكندرية طلباً للعلم. فقد كانت مدرسة الإسكندرية يومها المرجع للدراسة (كان في الإسكندرية، على ما مر بنا، مدرستان: الواحدة، القديمة، وهي لليونانية والفلسفة وما إلى ذلك ـ السرابيوم والمتحف، والثانية لدراسة المسيحيّة). وهناك بدأ اهتمامه بالمسيحيّة فاعتنقها والتحق بالقديس أنطونيوس الكبير. وبعد أن تزود من مؤسس حركة التنسك ما حسب أنه كاف عاد إلى فلسطين (٣٠٧ م) واعتكف في برية غزة. وقد تقاطر الكثيرون لزيارته لأن المسيحيّة كانت قد تغلغلت يومها في النقب وأدوم (ولو أنها لم تنتشر في غزة بالذات). وزواره الكثر أخذوا عنه ونسجوا على منواله، فكثرت بيوت التنسك في ذلك الجزء من فلسطين. وكان هو يقوم بزيارات منظمة لمجموعات الرهبان والنسّاك المقيمين في صحراء غزة. وكانت زياراته تنتهي

بتظاهرات يصرخ فيها الناس قائلين بالعربية باركْنا باركْنا. وقد روى ذلك القديس إيرونيموس (جيروم) في وصفه لزيارة قام بها لمَنطقةَ ألوسا (الخلَصَة) (٣٧٥ م). وبسبب هذا الضغط الشديد الذي كان يتعرض له لأن الناس كانوا يحبونه ويحترمونه، ترك هلاريون الجماعة وشأنها وعاد إلى الصحراء المصرية. ولما قام يوليان الجاحد (أو المرتد) الذي حكم (٣٦١ ـ ٣٦٣ م) بهجمته الوثنية مع اضطهاد المسيحيين، نزح هيلاريون إلى ليبيا ثم انتقل إلى صقلية وأخيراً استقر في قبرص الى حين وفاته في سنة ٣٧١ م.

دمرت أبنية النساك والأديرة في فلسطين أيام يوليان. وبعد زوال هذه الغمة قام أحد أتباع هيلاريون بتنظيم الرهبنة من جديد. وكان رهبان هيلاريون يستعملون اللغة السريانية، ومن ثم فقد كانوا خصوماً للفئة التي استعملت اللغة اليونانية. وكان الكثيرون من رهبان هيلاريون مثله يعظون بالعربية أيضاً.

قامت في المنطقة الصحراوية وشبه الصحراوية التي تمتد من بيت المقدس والخليل في اتجاه شرقي نحو البحر الميت رهبنات وأماكن للنساك. وكان النوع السائد هنا هو التنسك الجماعي أي أن يعيش الرهبان (النساك) كل في مكانه (صومعة أو كوخ أو كهف). ولكنهم كانوا يجتمعون في أوقات العبادة. وكان خريطون أول من تنسك في فلسطين، وأقام أولى مؤسساته في مكان حمل اسمه يومها ولا يزال، ويقع الى الجنوب الشرقي من بيت لحم. ويبدو أن هذه المحاولة الأولى هنا كانت سريانية أيضاً.

لكن يوتيميوس، أحد أتباع باسيليوس الكبير (حوالى سنة ٣٢٩ - ٣٧٩م) الذي أسس أول رهبنة في قبادوقية، أنشأ فرعاً لهذه الرهبنة (٤٠٥ م) في مكان الى الشرق من مدينة الخليل. وهذه كانت أول رهبنة (أو مكان تنسك) يونانية في فلسطين.

وأقام الراهب رومانوس بعد أن أخرج هو وجماعته من بيت المقدس (على ما سنرى) جماعة جديدة تركزت حول طقوع. وكان هذا في سنة ٤٨٤م.

وما دمنا قد دخلنا في قضية الرهبنات والأديرة في فلسطين، فلنشر الى حركة من نوع آخر. إن الحجاج الغربيين الذين أخذوا يتوافدون على فلسطين منذ حوالى سنة ٣٠٠م كانت أعدادهم تتزايد، لذلك أخذ البعض منهم يقيمون أديرة في القدس وبيت لحم وما اليهما لإقامة الحجاج. ثم أصبحت هذه الأديرة مقراً لرهبان وراهبات يقيمون في البلاد إقامة دائمة، مثل القديس جيروم والسيدة التقية باولا.

كان جيروم (إيرونيموس) ايطالياً. ولد في سنة ٣٤٧م وتوفي ٤٢٠م في بيت لحم بعد أن قضى فيها آخر ٣٥ سنة من عمره. وكان في شبابه شديد العناية بالدراسات الأدبية واللغوية. فتعلم البلاغة والبيان في رومة، وقبل سر المعمودية على يد أسقفها. وزار الشرق وقضى ثلاث سنوات في القسطنطينية يدرس العبرية واليونانية واللاهوت.

وتنسك في برية قنسرين (خلقيس). وعاد الى رومة سنة ٣٨٢م فعينه أسقف (بطريرك) رومة كاتباً له، وطلب منه أن يُعد ترجمة لاتينية للكتاب المقدس. ولما توفي دماسوس، أسقف رومة، كان جيروم مرشحاً لخلافته. لكن ذلك لم يتم. فخرج جيروم من رومة ومعه مكتبته وانضم اليه أخوه والتقية باولا وصديقتها يوستوكيوم. ووصل الجميع الى فلسطين. وبعد زيارة لمختلف الأماكن المقدسة استقروا في بيت لحم. هناك شاد جيروم ديراً للرهبان وبنت باولا ديراً للراهبات. وقد أدارت هذا الدير بنفسها. وجاءت بعد ذلك ميلاني وبنت ديراً للراهبات في جبل الزيتون (القدس).

انصرف جيروم الى الكتابة والتأليف، فوضع شروحاً مفصلة ومفيدة جداً لأسفار الكتاب المقدس. ولكن أهم عمل قام به هو أنه أتم رغبة رئيسه السابق أسقف رومة، فنقل الكتاب المقدس الى اللغة اللاتينية، في ترجمة بليغة سميت: «فولغات». وهذه الترجمة هي أساس النص اللاتيني الذي تستعمله الكنيسة الكاثوليكية، بعد أن أدخلت على النص الأصلي تعديلات طفيفة، ووافق عليها الكرسي الرسولي في القرن السادس عشر.

ذكرنا من قبل أن يوتيميوس الذي أنشأ الرهبنة اليونانية في فلسطين كان من أتباع باسيليوس الكبير. ولأن رهبنة القديس باسيليوس كان لها أثر كبير في رهبنات مشرقية سنعنى بها، فإنه من الضروري أن نخص الرجل وأعماله بكلمة هنا.

ولد القديس باسيليوس (٣٢٩- ٣٧٩م) في قيصرية قبادوقية (في آسية الصغرى). وذهب الى أثينا حيث تثقف وعاد الى بلده فعلّم البيان والبلاغة، ونجح، فأكرمه الناس واحترموه. لكنه كان يخشى أن تصيبه الكبرياء فوزع ماله وسار الى البرية متعبداً ناسكاً.

كان رئيسه الروحي يحبه، فاقترح عليه أن يرحل الى مصر وسورية وأرض الرافدين حيث كانت تقوم جماعات كبيرة من النسّاك والرهبان. ففعل وعاد سنة ٣٥٩م فأنشأ ديراً للرهبان وعاش معهم عيشة تقشف شديد. كان يأكل مرة واحدة في اليوم، مكتفياً بالخبز والماء. ولم يترك مجالاً لقهر الجسد إلا اتبعه وسار فيه شوطاً بعيداً.

وعمل على إنشاء الأديرة - الواحد بعد الآخر - ووضع لرهبانيته القوانين المناسبة. وشدد على النذور الثلاثة: الطاعة والفقر والعفة.

هذه الرهبنة كانت يونانية. لذلك فهي التي اعترفت بها السلطة الرسمية لما تدخلت الدولة في شؤون الكنيسة. ولذلك فقد قامت رهبنات كثيرة كرد فعل على هذه. أما في فلسطين فانقسم الرهبان واقتتلوا (على ما سنرى).

٤- الرهبنة -ب

كانت أرض الرافدين، وخاصة الأجزاء الشمالية منها، هي التي لم تنجح الهلينية فيها في هَلْيَنة المجتمع إلا في أمور سطحية، لكن الجذور ظلت آرامية. وهذا ينطبق على المدن كما ينطبق على الريف؛ ففيما نجد مدن سورية، مثل أنطاكية، هي جزر هلينستية في جو ظل في معظمه آرامي الثقافة، نجد أن أرض الرافدين لم تتطور حتى على هذا النحو. ومن هنا فإن المسيحية، لما تجذرت في تلك المنطقة، كانت تختلف عن تلك التي عرفتها سورية الغربية. فقد كانت حرة وقد اكتشفت طريقها ورسمت خططها على أسس محلية/ وطنية غير مستوردة. فلما وقعَت أورهاي (منطقة إديسًّا/ الرها) تحت النفوذ الروماني سنة ٢١٦م كانت الفئات المسيحية قد انتشرت في المنطقة. وكانت قد نظمت أناشيدها وترتيباتها بلغة القوم المواطنين. وأصبحت المسيحية دين الأسر العربية الحاكمة. ولم تتعرض المسيحية أو الأديان الوثنية للاضطهاد الذي تعرض له الفريقان في الإمبراطوريّة الرومانية قبل انتصار المسيحية أو بعده. ولما استولت القوات الرومانية في أيام ديوقلتيان في سنتي ٢٩٧ و٢٩٨م وجدت أن المسيحية كانت منتشرة هناك، وكانت مزدهرة الى الشرق من نهر دجلة. وفي أيام يوليان المرتد (٣٦١-٣٦٣م) انتشرت الحركة النسكية حتى جبل طور عابدين، الذي اتخذ اسمه يومها بسبب كثرة العباد (المتنسكين) في المنطقة.

وبسبب هذا التجذر الوطني – لغة وثقافة – فإن التطور العام كان أيضاً وطنياً أصيلاً. وكان في وسع المسيحية أن تخاصم المسيحية اليونانية في منطقة ظل لها الطابع المحلي، أي الآرامي/ السرياني. وقد تطورت اللغة السريانية على أنها لغة المسيحية، وكانت إديسًّا (الرها) مركز هذا التطور. وظلت هذه لغة المسيحية الشرقية حتى بعد الفتوح العربية الإسلامية لمدة طويلة قبل أن تقبس هذه اللغة العربية، وهي لغة قريبة من الأولى، كما نعرف.

وقد حفظت الرواية أن أول من بشّر بالمسيحيّة في «بيت آرامية» كان ماري الذي جاء من إديسًّا وجمع حوله فئة من الأتباع التي عملت على نشر المسيحيّة في الأجزاء الغربية من الإمبراطورية الساسانية.

وقد انتشرت المسيحيّة بين البدو. ويعود ذلك إلى الرهبان والنساك الذين عملوا

بين هذه الفئات المتنقلة.

ولنعد الى أورهاي وإديسًّا العاصمة، التي منها انطلق التبشير بالمسيحية في أرض الرافدين. وكانت اللهجة الأديسية من اللغة الآرامية قد أصبحت وسيلة أدبية لنشر المسيحيّة بين الناطقين باللغة (أو اللغات) السامية بما في ذلك العرب. وكان تفسير الإنجيل هنا يختلف عما كان عليه في أنطاكية والإسكندرية وإفريقية وروما، فكراً وأسلوباً. ومع أن بعض الأعمال اليونانية كانت تترجم الى السريانية لمصلحة الجماعات المتنصرة، فإن الأعمال الأساسية كانت توضع أصلاً بالسريانية. ولعله كان في هذه ناحية خاصة هي إدخال العنصر الميثولوجي في الكتابات المسيحيّة. فقد ورد في المؤلفات التي تعود الى القرن الرابع ما وضعه أحد كتاب المسيحية باللغة المحلية وهو إفراهاط الذي كان راهباً وأسقفاً. فقد نظم اثنتين وعشرين أنشودة (بين سنتي ٣٣٧ و٣٤٥م) ضمّنها وجهات نظر لاهوتية تختلف تماماً عما عرفه اليونان في تلك الأزمنة.

ويعزى الى بار ديصان أنه وضع أنشودات ليستعملها المسيحيون، لم تكن مما يمكن أن يقبل به الفريق اليوناني.

وبسبب أن المؤرخين للمسيحية وانتشارها ركّزوا اهتمامهم على أنطاكية والإسكندرية وروما، ظلت كنيسة إديسًّا في الظل. لكن الواقع هو أن انتشار المسيحيّة في تلك المناطق كان بحد ذاته عملاً كبيراً. وهناك أسماء كثيرة مرتبطة بهذا العمل. ومع أننا لا ننوي الدخول في تفاصيل الموضوع فإنه لا بد من الإشارة الى أن عدداً كبيراً من المبشرين كان له يد كبيرة في هذه الأعمال، إنْ من حيث التبشير وإن من حيث «سَرْيَنَة» اللغة وحملها على التعبير عن أمور كانت بعيدة، نسبياً، عن اللغة الآرامية.

وفي مقدمة العاملين اثنان: تتيان وبار ديصان (١٥٤-٢٢٢م). وقد تحدثنا عن تتيان من قبل، فلنذكر هنا بار ديصان الذي سماه أفرام «الفيلسوف الآرامي». ويبدو أن هذا الرجل أُدخل إلى الأسرار الوثنية في منبج (هيرابوليس) ثم اعتنق المسيحية في سنة ١٨٠م. وكان صديقاً لأبجر التاسع، ملك إديسًّا. ولعلّ الفضل في اعتناق هذا الملك المسيحية يعود الى بار ديصان. وكان للرجل أيد بيضاء في الدفاع عن المسيحيّة في كتاباته بالسريانية. لكن بار ديصان لم تحتضنه كنيسة إديسًّا، فخسرت بذلك عمل واحد من كبار الكتّاب بالسريانية. لكن الرجل ظل له أتباعه ومريدوه، الذين كوّنوا بالنسبة الى ذلك الوقت، خطّاً مستمراً لنظرته وآرائه ولغته، حيث أنه، في القرن الخامس، أصبح منارة للمسيحيّة السريانية التعبير.

وقد كانت نصيبين مسيحيّة في شكل عام في أواسط القرن الرابع. وكان لمدرستها

دور هام سنتحدث عنه فيما بعد.

إن الرهبنة السورية تختلف أصلاً عن الرهبنة المصرية أو الرهبنة القبادوقية (ومنها الفلسطينية). ويبدو أن نوعاً أو شكلاً من أشكال التنسك أو الرهبنة كان معروفاً قبل المسيحيّة أصلاً. وقد كان النحو الأول الذي اتبع هو المتنسكون المتجولون (ويعرفون بالسريانية باسم الأكْسِنايون) وكان هؤلاء رجالاً ونساءً.

كان أفرام (٣٠٣ - ٣٧٣م) البار، كما تسميه الكنيسة، آرامياً أصيلاً. لم يكن أفرام عالم لاهوت، ولم يكن عارفاً بالقضايا والأصول الهلينية الفلسفية. كان هذا الرجل من مواليد نصيبين من أبوين مسيحيين. وقد تتلمذ على أسقفها يعقوب، فغرف من ينابيع معرفته وتقواه. ترك الدنيا وتنسك. كان أحد معلمي مدرسة نصيبين. لكن هذه سقطت بأيدي الفرس (٣٦٣م) فانتقل منها الى آمد ثم إلى الرها (إديسّا). وهناك عهد إليه بالإشراف على مدرستها، حيث قاوم أهل البدع، وزار عدداً من النساك الذين كانوا منتشرين في برية الرها.

«ويرى غبطة البطريرك أغناطيوس أفرام الأول أن هذا القديس البار هو إمام اللغة السريانية الأكبر، وفارس ميدانها الذي لا يجارى. ويضيف غبطته أن أبرز مصنفات هذا القديس ميامر الشعرية... في أسرار ربنا ومخلصنا وفي البتولية والتوبة والإيمان والحياة المسيحية والكهنوت». (أسد رستم).

وقد كان الاتجاه في الرهبنة نحو تمجيد العزوبة والتنسك. ومن هؤلاء متنسك اسمه أميانوس الذي اتخذ لنفسه مأوى (٣٧٥م) على رأس جبل الى الغرب من بوريا (حلب). ولما انتقل من هذه الحياة تولى مكانه أحد تلاميذه المدعو يوسابيوس. وقد تجمع حول هذا، كما تجمع حول معلمه من قبل، عدد من الأتباع، حيث أن أسقف كورش (على مقربة من قنسرين) وجد نحو ١٥٠ راهباً متنسكاً في دير هناك. وكان بين هؤلاء عرب وآراميون ويونان. وقد تفرع عن هذا الدير عدد من الأديرة في المنطقة.

كانت الرهبنة قد أصبحت أمراً مألوفاً في المنطقة، وكان الرهبان يقومون بنشر المسيحية ومع أرائهم. وقد قام ربّولا (أسقف إديسّا ١١٤- ٤٣٥م) بوضع نظام لرهبنة تلك المنطقة، وهذا الذي التزم به بعض الرهبان في سورية الشمالية خاصة. ولعلّ من خير ما استنه ربّولا هو أن يسمح للرهبان المرسومين كهنة أن يقوموا بالخدمات الكنسية في القرى المختلفة.

ولعله من المناسب هنا الإشارة الى أن الرهبنة السورية كان فيها شيء من ردة الفعل ضد المسيحية اليونانية. وأهم من ذلك أن هذه الرهبنة السورية كانت الأشد والأعنف بين الرهبانيات التي عرفتها المنطقة. فقد تفرد بعض النساك مثلاً، بالإقامة فوق عمود مثل سمعان العمودي (٣٨٩- ٤٥٩م) وهو سيد هؤلاء النفر. وقد بدأ هذا

تجوله وهو بعدُ حدَث، وقُبلَ في دير، لكنه لم يكتف بذلك. إذ إنه أراد أن يقتل الجسد. وأخيراً استقر على رأس عمود. وكان الناس يجدّون في طلبه ليسمعوا وعظه وآراءه وليتبركوا به. وكان مكان هذا الرجل الى الغرب من حلب. وما يزال هناك دير كبير بآثاره هو دير سمعان العمودي.

لكن الذي أنشأ أول دير في شمال سورية كان ناسكاً اسمه أستيريوس. كان ذلك في غنداروس الى الشمال الشرقي من أنطاكية. ويبدو أن ذلك كان في أواسط القرن الرابع. فإن المتعارف عليه أن أقَق، الذي تولى أبرشية حلب (٣٨٠ - ٤٣٣م) كان قد تبتل في هذا الدير.

وكان بين مشهوري النساك في المنطقة السورية الشمالية مار مارون، المتوفى سنة (٤١٠م) والذي انتبذ من دون الناس مكاناً قصياً في الكورشية، وهي منطقة تقع الى الجهة الشمالية الشرقية من حلب، على بعد نحو ثمانين كيلومتراً. والمرجح أن إقامة هذا الناسك الكبير كانت في جبل سمعان، في المكان الذي أقام فيه فيما بعد سمعان العمودي. وقد كان اسمه في الأزمنة السابقة للعمودي: جبل نبو، ولعلّ ذلك بسبب معبد للإله نبو (نابو) الآشوري. وكان ممن زار مار مارون القديس يوحنا الذهبي الفم.

وقد كان مار مارون يعنى بالزراعة. لذلك فقد أنشأ بستاناً رهبانياً كان يشرف عليه بنفسه. والوصف الذي وصل الينا عن معيشة مار مارون هو الذي وضعه ثودوريطس في ترجمته له. قال: «هذا (مار مارون) أيضاً زين مصاف القديسين. فإنه إذ اختار المعيشة في العراء احتل قمة جبل كان موضوع إكرام لدى الكفار بعد أن طهره من الشياطين مكرساً إياه لله، وأقام فيه منشئاً هنالك خيمة ما استعملها إلا نادراً.

«ولم يقتصر على الأعمال النسكية المعتادة لكنه اخترع أعمالاً أعظم لكي يجمع غنى الحكمة الكاملة. فإن جزاء المحارب يقاس بعمله. ووهبه الله مواهب الشفاء حتى اشتهرت أخباره بين الناس في جميع الآفاق فتقاطروا اليه من كل صقع ومكان. وكانوا جميعاً قد علموا بالاختبار أن ما اشتهر عنه من الفضائل والعجائب صحيح. لأنه كان يخمد عنهم اضطرام الحمى المتوقدة بندى البركة وظل النعمة. وكانت الشياطين تفر من هول سطوته. فإذا كان الأطباء الحذاق يعالجون الأدواء المختلفة بأدوية مميزة، فهذا العظيم القدر كان يعالج الأمراض كافة بدواء واحد خاص وهو الصلاة... وما كفى أنه كان يبرئ الداء الجسداني فقط بل الروحاني أيضاً. كان يداوي الأنفس بما يوافق شفاءها. يشفي واحداً من داء البخل، وآخر من داء الغضب، وآخر يصف له دواء القناعة، ويعلّم آخر قانون العدل، وآخر يُحذره من الشر، وآخر يشفيه من الضجر، ويوقظ آخر من غفلة الفتور، الى غير ذلك من الأدواء النفسانية». (الأب بطرس ضو).

وقد أطلنا في نقل هذه العبارة لأنها في رأينا تضع بين أيدينا وصفاً يكاد ينجر على

جميع هؤلاء النساك. وقد يكون الفرق بين الواحد والآخر فرقاً بسيطاً. إذ النية والفكرة والرغبة كانت واحدة عند الجميع.

والمدرسة النسكية السورية هي التي تميزت عن غيرها من طرق التنسك في الأقطار المجاورة بالإقامة في العراء، لا في بيت مسقوف. ويقال إن أول من مارس هذه الطريقة في سورية هو القديس مارون، وعنه أخذ بعض رهبان القورشية ثم العموديون. وقد تكشف الدراسات عن هذا الرأي. وعلى كل فقضية السبق أو الأولية ليست قضية مهمة أبداً.

المهم هو أن هذه الطريقة، أي التنسك بالعراء شاعت بين السوريين.

والمرجح أن مار مارون لم يكن ناسكاً فحسب، بل كان كاهناً أيضاً، أي انه مسح بحيث كان يستطيع أن يمارس الطقوس الكنسية. فقد أشار الى هذا يوحنا الذهبي الفم في رسالته اليه اذ سماه «مارون الكاهن الناسك». وقد كرس الهيكل الوثني معبداً لله. وتكريس المعبد هو عمل كهنوتي لا يقوم به إلا رجل قد أعد لذلك بأن رسم كاهناً.

وكان مار مارون، مثل غيره من المتنسكين، يعمل على هداية السكان الذين كان الكثيرون منهم لا يزالون على الوثنية. وقد نجح الكثيرون من هؤلاء المتنسكين في محاولاتهم فعملوا على نقل الناس من الوثنية الى المسيحية.

وقد كان لمار مارون عدد كبير من الأتباع والتلاميذ، شأنه في ذلك شأن كبار النساك والرهبان، منهم إبراهيم الناسك الكورشي الذي وصل الى لبنان، ويبدو أنه أقام في جرود جبيل مع بعض من مريديه ونشروا المسيحية هناك. وبعد أن قام بواجبه هذا عاد الى صومعته في الكورشية. وترك هناك ابراهيم الذي عمل في منطقة أفقة والعاقورة.

وعدد أولئك الذين يمكن أن يوصفوا بأنهم تلاميذ مار مارون كبير جداً. فقد اعتبر بعض الكتاب كل من أصابه بصيص من إيمان مار مارون، ولو عن بعد، تلميذاً له. وقد انتشر هؤلاء في لبنان وأواسط سورية عاملين على نشر المسيحية حيثما أمكنهم ذلك.

والمهم أن هذه المدرسة التي أنشأها مار مارون استعملت اللغة السريانية أساساً للتبشير ومن ثم الكتابة عن المسيحية وفيها.

أقيم دير مار مارون الرئيسي في افامية (الى الشمال الغربي من حماة) الذي بُني سنة ٤٥٢م تكريماً لذكرى مار مارون. والبيئة الأولى للحركة المارونية كانت شمال سورية في منطقة الكورشية وجبل سمعان وحلب وجوارها. ومن هناك، ثم من دير مار مارون بالذات، انطلق المبشرون، وأكثرهم من النساك والرهبان، الى المناطق اللبنانية. فتلاميذ مار مارون هم الذين بشروا بالمسيحية في منطقة الجبة، وإبراهيم وجماعته نشروا المسيحية في منطقة العاقورة وأفقه أي في جرود جبيل. كما عمل آخرون على

التبشير في جهات أخرى. والعمل الكبير الذي تم بزعامة دير مار مارون كان دفاعاً عن الخلقيدونية[1].

أصاب الحركة الرهبنية ما أصاب المسيحيين بأجمعهم لما عصفت بالعالم المسيحي الخلافات بين أصحاب الطبيعتين والقائلين بالطبيعة الواحدة بالنسبة الى

الهوامش

(١) في سنة ٤٥١ عقد المجمع المسكوني الثالث في خلقيدونية، في آسية الصغرى. وهذا أقر ما كان قد تم الاتفاق عليه في مؤتمر نيقية (٣٢٥) الذي ثبت في سنة ٣٨١ أيضاً. وأصبحت كلمة الخلقيدونية تعني القبول بقانون الإيمان الأصلي، ويمكن القول إجمالاً إنها كانت تساوي الأرثوذكسية معنى.

الفصل الرابع

المسيحية حتى الفتوح العربية الاسلامية

١. القرن الخامس

المسيح. فاشتد العداء، وقد وصل الأمر، في بعض المناطق الى القتال بعد التنابذ والخصومة.

أشرنا من قبل الى أن القرن الرابع كان عصر تفجر، إذا صح استعمال الكلمة، بالنسبة الى انتشار المسيحية. ونحن مع اعترافنا بأن لقسطنطين (٣٠٥-٣٣٧م) فضلاً كبيراً في ذلك، فإننا لا نستبعد أبداً أن يكون للخلافات المسيحية المذهبية اللاهوتية التي قامت في القرن الرابع أثر في لفت الانتباه الى المسيحية، ومن ثم إثارة حب الاستطلاع عند الناس كي يتعرفوا الى هذا الشيء الجديد. ثم لا يجوز أن ننسى أن هذا القرن شاهد بناء الكنائس الكبيرة وسمع أخبارها. وخاصة الكنائس المرتبطة بميلاد المسيح (بيت لحم) وصلبه ودفنه وقيامته (كنيسة الجلجلة في بيت المقدس) وغيرها. وقد يكون الناس - بعض الناس على الأقل - قد تعبوا من هذه الأنواع من العبادة التي طالعهم بها أباطرة رومة من مثل عبادة رومة والإمبراطور وعبادة الإله الشمس على أنها أديان رسمية يتحتم على الناس أن يقبلوها.

وعلى كل، فقد أقبل الناس على المسيحية إقبالاً شديداً في القرن الرابع. صحيح أنه حتى في المناطق التي عرفت المسيحية أصلاً، لأن صاحب هذه الدعوة الجديدة منها، أو من بلد قريب عليها، ظلت هناك جهات امتنعت على المسيحية واحتفظت بعباداتها الأصلية الوثنية. وهنا نرى أن هذه المعتقدات التي ظلت مقبولة حتى القرن السادس وما بعده كان من تلك الأديان التي فيها حياة والتي تبعث في أتباعها حياة، إما بسبب الهياكل الجميلة أو بسبب الطقوس الشهية أو بسبب ما فيها من أساطير جذّابة أو أغان أو تسابيح منعشة. إذ لا نجد، على الأقل في ما قرب من ديارنا، عبادة «لرومة والإمبراطور» تجذب اليها العباد.

أثارت المثل العليا التي كان الرهبان والنساك يبدونها في تصرفهم رغبات عند الكثيرين في تقليدهم. ويبدو أن الناس كانوا، في ذلك القرن، يتحدثون عن الشؤون المسيحية حديثاً عاماً وعادياً. فقد كتب غريغوريوس النسّاي يصف هذا الانغماس في الأمور الدينية، على ما بدا له عند أصحاب الحوانيت في القسطنطينية، قال: «إذا طلبت من رجل أن يصرف لك قطعة نقد فضي، فإنه سيخبرك عن أن الابن يختلف عن الآب (من وجهة النظر المسيحية)؛ وإذا استفسرت عن سعر رغيف من الخبز فإن الجواب يأتيك بأن الابن هو دون الآب؛ وإذا استفهمت فيما إذا كان الحمام جاهزاً فإن

الجواب الجدي يأتيك بأن الابن مصنوع من لا شيء».

المهم هو أن هذا الانتقال السريع الى المسيحية بدّل في تركيب المجتمع المسيحي. فإن ما يمتاز به صوت السوق المألوف وما يراه المرء فيه من حركة ونشاط، اخترق المجالات الهادئة للهيكل المسيحي الكنيسة. وما كان يرافق المعمودية قبلاً من استعدادات اقتضتها الظروف الأولى، اختصرت الآن. وقد خففت متطلبات النظام حيث أن الحواجز بين المسيحيين وغيرهم من السكان قُصِّرت. وما فقدته الكنيسة من الصفاء ربحته الإمبراطورية في تحسين معاملتها للمواطنين. وقد تأثرت العلاقات الاجتماعية، الرسمي منها والعادي، بما علّمته الكنيسة من مبادئ: منها عنايتها بالمواطنين أكثر من ذي قبل؛ ومنها الاهتمام بالمجرمين بشكل فيه نوع من المواساة. ولعلّ أكثر تغيير كان ذلك الخاص بالإمبراطور بالذات: فقد أصبح يتصرف، ولو لم يكن ذلك دوماً، وفق قواعد سلوكية تتطلبها المسيحية من جميع أتباعها. مثل هذا التبدل المفاجئ الذي انتقل فيه الامبراطور من رجل أوتوقراطي مستبد إلى إنسان يتصرف على الأسس نفسها التي يتبعها أي مسيحي.

أفاد المجتمع المسيحي من هذا كله. فقد انتقل الأمر كلّه من حالة العداء الإمبراطوري للمسيحية الى وضع الصديق لها. والواقع يتضح لنا عندما نستعرض هذا التاريخ في القرنين الرابع والخامس، الذي يبدو لنا في أنصع مآتيه في التواريخ التي دونت تصرفه وتطوره. فالفكر اللاهوتي نضج وتعمّق، وازدهر الفن وتحسن وضع المؤسسات المهتمة بعمل الخير.

أما الكنيسة فقد أصابها، الى جانب الخير الذي ذكر، أن الكثيرين وضعوا أموالهم تحت تصرفها تبرعاً، وترتب على ذلك أنها أثْرت. وبان هذا أولاً في أنها أصبحت قوة يحسب لها حساب، وثانياً في أن عدداً من الأساقفة أخذ يعيش عيشة الأرستقراطيين. ومن هنا تعرض الكثيرون من أتباع الكنيسة الأتقياء للأذى، الجسمي والروحي، لأنهم قاوموا هذا التصرف. ومن هؤلاء الذين أوذوا، يوحنا الذهبي الفم، وهو، على ما مر بنا، أعظم وعاظ هذه الفترة وواحد من الذين جربوا الإصلاحات الاجتماعية الكبرى.

ومن الأمور التي تمت في القرن الرابع رفع درجة القسطنطينية الى بطريركية سنة ٣٨١م وفي الوقت ذاته تقرر تقديمها رتبة على الاسكندرية. فأصبح ترتيب البطريركيات هو: رومة ثم القسطنطينية ثم الاسكندرية ثم أنطاكية. ولما عقد مؤتمر سنة ٤٥١م في خلقيدونية، رفعت بيت المقدس الى درجة البطريركية وأعطيت المكان الخامس.

ومما تم الاتفاق عليه وإقراره رسمياً هو أن القانون النيقاوي هو أساس الاعتراف بالإيمان.

أما من الناحية الرسمية، أي تحديد العلاقة بين الإمبراطور والكنيسة، فيمكن القول إن العقود الأولى من القرن الرابع هي التي حددت هذه العلاقة. إن قسطنطين (٣٠٥ - ٣٣٧م) وضع قاعدتين مهمتين: الأولى، أن الأساقفة ومساعديهم هم المكلفون بتفسير القضايا اللاهوتية. أما الثانية، فهي أن الامبراطور بحكم منصبه هو الذي يقوم حكماً في حالة الخلاف بين فئتين. ومن هنا مثلاً أقر ما توصل اليه مجمع نيقية، مع أنه كان هناك مخالفون.

وقد كان لتصرف ثيودوسيوس (٣٧٩-٣٩٥م) في هذا الأمر، أنه خطا خطوة أخرى إذ سمح لنفسه أن يختار المذهب أو المدرسة التي يشاء، ويفرض ذلك على سكان الإمبراطورية. وهاتان الخطوتان، وإن تردد بعض الأباطرة في سبيل تطبيقهما، كان فيهما أذى للكنيسة وللإمبراطورية وللشعب، خاصة عندما كان المنتصر في خصومة عقائدية أو طقسية أو كائنة ما كانت، قوياً. فإنه عندها لا يتأخر عن معاقبة الخصوم المخذولين بكثير من العنف، حيث إن بعض ما وقع على المهزومين في هذه الميادين من الاضطهاد لا يقل عما تلقاه المؤمنون على أيدي بعض الأباطرة الوثنيين.

الخلافات العقائدية والانشقاقات التي كانت تعصف بالكنيسة لم تكن تنتهي عند قرار مجمع أو اتفاق يوقعه أساقفة في مجلس إقليمي. ذلك أن كل واحد من أصحاب الآراء كان يرى أنه هو وحده على حق وأن الآخرين على خطأ. وإذا أصدر مجلس أو مجمع قراراً بأن الفئة الفلانية هي من أهل البدع أصبح أعضاؤها، في نظر الخصوم، لا تجوز معاشرتهم. فضلاً عن ذلك، فقد كان القوم يلجأون الى قتال أحياناً. وهذا كان يزيد الطين بلّة.

كانت الأريوسية أول خلاف جدي حدث بين الكنائس الشرقية. ومع أن حدّته خفّت فإنه ظل يجرر أذياله حتى القرن السابع. والواقع أن الذي خفف حدته في الشرق هو أنه وجد له متنفساً وأتباعاً في الغرب وخاصة بين جماعات من القبائل الجرمانية التي كانت تعتنق المسيحية في القرن الرابع.

ومع أن قانون الإيمان النيقاوي ثبت نهائياً في سنة ٣٨١م فقد ظل البعض يعتبر بعض ما فيه بقية من بدعة وضلالة. لذلك فإن الخلافات استمرت على ما كانت عليه. وكانت الاسكندرية، وهي أقدم بطريركية والثانية بعد رومة تتنافس على زعامة المسيحية في الشرق مع القسطنطينية. فلما رقيت هذه بطريركية وقدمت على الاسكندرية (٣٨١م) أصبحت المنافسة بين الكرسيين أشد وأعنف.

والخلاف العقائدي كان يقويه ويضيف اليه العنف والقتال، كثرة الدساسين والدسائس السياسية والمحلية والإقليمية.

في أوائل القرن الخامس اختير نسطوريوس، وهو راهب أنطاكي وعالم وخطيب

وواعظ، بطريرك القسطنطينية (٤٢٧م). وهو في هذا شبيه بسلفه يوحنا الذهبي الفم الذي شغل هذا المنصب (٣٩٨م). والرجلان كانا يحملان رغبة في إصلاح الكنيسة ورجالها الذين أصبح تصرف الكثيرين منهم معرة على الكنيسة وعلى المسيحية والمسيحيين. وفي مقدمة هؤلاء كان بطريرك الإسكندرية الذي كان يعيش كالسلاطين.

ومثل ذلك كان بعض من كبار رجال الكنيسة في القسطنطينية. فأخذ يوحنا على عاتقه وعظهم وإرشادهم. ولما وجد أن الخصومة له قد اشتدت، وأن البلاط، ممثلاً بالامبراطورة يودوكسيا، وقف ضده، وأن بطريرك الاسكندرية استدعي الى العاصمة لإدانته، وحكم المجلس عليه غيابياً وبتهم باطلة، أخرج من المدينة وأُتعب وأُضني وعذب ومات قبل أن يصل الى منفاه.

وقف نسطوريوس من الفئات الخارجة على الكنيسة كما كان هو يفهم الكنيسة والمسيحية، موقفاً عنيفاً إذ اعتزم القيام بحملة تطهير واسعة. فضلاً عن ذلك، فقد كانت له آراء خاصة بألوهية المسيح وإنسانيته. وعمل على توضيح وجهة نظره بكل ما أوتي من علم ومعرفة ومقدرة على الخطابة والإقناع. وكان مؤيدو نسطوريوس يوحنا بطريرك أنطاكية والأساقفة الشرقيين أي الذين يتبعون هذا الكرسي ومجاوريهم.

وكان كيرلس بطريرك الإسكندرية (٤١٢-٤٤٤م) خصم نسطوريوس في آرائه. والخلاف بين الرجلين كبير. كان كيرلس عالماً لاهوتياً كبيراً وزعيماً لا للكنيسة القبطية فحسب، بل يكاد يكون زعيم البلد، إذ إنه كان هو الذي يسيّر أو يقود الحركة الوطنية المصرية يومها. وكان كيرلس يرى أن المسيح له الصفة الإلهية الكاملة، وهي التي اتحدت معها الطبيعة البشرية.

يرى بعض من الباحثين بأن الخلافات كان من الممكن أن تحل بالمناقشة الهادئة واعتماد الألفاظ الدقيقة، أو بعد جعلها دقيقة لتتفق مع المعاني الجديدة التي حُمِّلتها. لكن القضية لم تكن قضية خلافات لاهوتية فحسب، بل كانت هناك أطماع ومنافع فضلاً عن خلافات مجتمعية.

أراد ثيودوسيوس الثاني (٤٠٨- ٤٥٠م) أن يضع حداً لهذه الخلافات والمهاترات والدسائس التي رآها تعصف بالكنيسة، فدعا، على عادة أسلافه وخلفائه، الى مجمع يعقد في أفسوس سنة (٤٣١م). جاء كيرلس ومؤيدوه، واستطاع أن يستميل ممنون أسقف أفسوس إلى جانبه، وتأخر أنصار نسطوريوس وهم يوحنا بطريرك أنطاكية وأساقفته (أو لعلهم أعيقوا في الطريق عمداً) عن الوصول في الوقت. وتعمد كيرلس أن يفيد من ذلك فأصدر مع ميمون قراراً بقطع (أو حرمان) نسطوريوس. فلما وصل يوحنا الأنطاكي قطع (أي حرم) كيرلس وممنون. وقد وافق تيودوسيوس على القرارين

وطرد الثلاثة من مناصبهم.

قبل نسطوريوس أمر الإمبراطور وخرج من العاصمة عائداً الى ديره، ثم نفي الى البتراء وأخيراً نفي الى ليبيا حيث قضى بقية عمره في واحة نائية (توفي في سنة ٤٥٢م).

وتبع هذا المجمع الذي ظلت قراراته (عدا ما خص نسطوريوس) معلقة في الهواء، هدنة. فقد عاد كيرلس الى الاسكندرية وصرّف شؤون بطريركيته وجماعته. وظل ممنون في أفسوس. ويبدو أن الجميع قد تعبوا بعض الشيء فكان هناك هدنة عقائدية استمرت بضع عشرة سنة. لكنها تحركت ثانية.

وكان أوطيخة راهباً زاهداً ورعاً محترماً. وكان البلاط يجلّه. وقد رأى أوطيخة رأي كيرلس، ولعله تقدم حتى على كيرلس فقال إن الطبيعة الإنسانية في المسيح امتزجت بالطبيعة الإلهية حتى تلاشت فيها «تلاشي نقطة خمر وقعت في ماء». فالمسيح كان، في رأيه الواضح، أقنوماً واحداً وطبيعة واحدة. ونشر أوطيخة آراءه في العاصمة. ووقف لأوطيخة في المرصاد دومنوس الذي كان يقول بغير ذلك. وبعث الى الامبراطور بشكوى ضد أوطيخة. وكان دومنوس قد أصبح أسقف أنطاكية (٤٤١م) وظل في المنصب حتى سنة ٤٤٩م.

أصدر الإمبراطور (٤٤٨م) إرادة حرّم فيها تعاليم نسطوريوس وجميع المصنفات التي تخالف نصوص نيقية وأفسوس وقراراتهما. وهنا بدأت الدسائس ونشرت الأكاذيب حول مختلف رجال الكنيسة، وقد كان ديوسفوروس خلف كيرلس بطريركاً على الإسكندرية (٤٤٤- ٤٥١م). وهو لم يكن أقل مقدرة على الدس ونشر الإشاعات من غيره. فضلاً عن أنه كان أعنف من سلفه كيرلس.

ارتأى الإمبراطور أن يدعو الى مجمع ثان في أفسوس (آب/ أغسطس ٤٤٩م). واختار الإمبراطور بعض الأشخاص لحضور المجمع ومنع آخرين من الحضور. وقد اجتمع هذا المجمع «الهزؤ» بمئة وثلاثين من الأساقفة (بل لعل العدد تجاوز هذا الرقم). وكانت القرارات تصدر عشوائياً كما يبدو. لكن كل شيء كان قد دبره ديوسفوروس ومحازبوه. واغتنم هذا بلبلة أحدثها هو وصحبه فاستعان بممثلي الإمبراطور. «ففتح هؤلاء أبواب الكنيسة وأدخلوا إليها الجند والرهبان والبحارة المصريين وغيرهم من عناصر الغوغاء. وعبثاً حاول فلابيانوس (أسقف القسطنطينية) الالتجاء إلى قدسية المذبح، فإن الرهبان جروه جراً فوقع على الأرض فداسه ديوسفوروس وجماعة برصوم وأخرج خارجاً وسجن وتوفي بعد ثلاثة أيام وهو في طريقه الى المنفى. واتهم ديوسفوروس بقتله فعلاً» (أسد رستم).

سمي هذا المجمع «بالمجمع اللصوصي» بسبب ما جرى فيه من أضاليل وأكاذيب

وما مررت به من قرارات مبنية عليها.

ووقف ثيودوسيوس من هذا كله موقف الموافق لأنه رفض طلب كثيرين، ومنهم الأسقف الروماني، في وجوب عقد مجمع مسكوني لإعادة النظر وتصحيح الأوضاع. لكنه كان يقول إن ما جرى كان كافياً وإنه لا حاجة إلى عقد مجمع آخر.

ولما تولى العرش مرقيان (٤٥٠-٤٥٧م) دعا الى مجمع مسكوني، كان هو الرابع، الذي عقد في خلقدونية سنة ٤٥١م. وقد لبى دعوة الإمبراطور خمسمئة أسقف (وقيل إن العدد كان أكبر من ذلك إذا حسبنا بعض الشيوخ والشمامسة الذين انضموا اليه). وانعقد المجتمع في خلقدونية. وكان مندوبو البابا[١] ليون الكبير (٤٤١- ٤٦١م) متوجهين الى الحضور، وهؤلاء حملوا معهم «الرسالة» (المعروفة باسم طومس[٢]) التي حررها البابا (أصلاً الى فلابيانوس أسقف القسطنطينية الذي عُذب وضُرِب وأهين في مجمع أفسوس الثاني ٤٤٩م).

وهذه الرسالة تلخص التفكير اللاهوتي الغربي (الذي كان يتفق مع تفكير القسطنطينية وأنطاكية أصلاً) وقد صيغ باللغة اللاتينية. وخلاصة ما فيها أن المسيح شخص (أو أقنوم) واحد له طبيعتان. ويبدو أن استعمال اللغة اللاتينية كان أوضح وأصفى من اللغة اليونانية التي بلبلتها الفلسفة كثيراً، وزاد في بلبلتها، بالنسبة الى اللاهوت، النقلة التي اضطرت اليها بسبب التطور الفكري العقائدي المسيحي.

على كل، كانت الرسالة واضحة وهي تتفق مع وجهة نظر القائلين بالطبيعتين في المسيح. وقد يكون هناك خلاف في أسلوب التعبير.

كان القصد الأصلي من مجمع خلقدونية تصحيح الأخطاء التي آل اليها المجمع اللصوصي (٤٤٩م) كما سمي. فتقرر خلع ديوسفوروس من منصبه، وطلب من رجال الدين الأنطاكيين أن يدينوا نسطوريوس.

على أن مندوبي الإمبراطور ألحوا على المجمع بوجوب وضع وثيقة عقائدية واحدة - سواء قبل المجمع فكرة الطبيعة الواحدة أم رأى الطبيعتين بالنسبة الى المسيح. واستجابة لهذا الإلحاح وضع المجمع، على يد لجنة مثلت جميع الآراء، مشروع اعتراف هذا نصه (مترجماً): «إننا نعلّم جميعنا تعليماً واحداً تابعين الآباء القديسين. ونعترف بابن واحد هو نفسه ربنا يسوع المسيح. وهو نفسه كامل بحسب اللاهوت، وهو نفسه كامل بحسب الناسوت. إله حقيقي وإنسان حقيقي. هو نفسه من نفس واحدة وجسد. مساو للأب في جوهراللاهوت. وهو نفسه مساو لنا في جوهر الناسوت مماثل لنا في كل شيء ما عدا الخطيئة. مولود من الأب قبل كلّ الدهور بحسب اللاهوت. وهو نفسه في آخر الأيام مولود من مريم العذراء والدة الإله بحسب الناسوت لأجلنا وأجل خلاصنا. معروف هو نفسه مسيحاً ابناً ورباً ووحيداً واحداً بطبيعتين بلا اختلاط ولا تغيير (أو لا تمازج) ولا انقسام ولا انفصال من غير أن يُنفى فرق الطبائع بسبب الاتحاد، بل إن خاصة كل واحدة من الطبيعتين ما زالت محفوظة، تولفان كلتاهما شخصاً واحداً أو أقنوماً واحداً لا مقسوماً ولا مجزّءاً الى شخصين. بل هو ابن ووحيد

واحد هو نفسه الله الكلمة الرب يسوع المسيح كما تنبأ عنه الأنبياء من البدء، وكما علمنا الرب يسوع المسيح نفسه وكما سلمنا دستور الآباء» (أسد رستم).

رمى مارقيان من وراء ذلك إلى وضع نص يمكن أن تقبل به الكنائس جمعاً، وبذلك يعيد الى المسيحية والكنيسة وحدتها. لكن ذلك لم يتأت له، ولم يتأت لغيره.

فالذي حدث بعد ذلك هو ما عرف بالانشقاق الخلقيدوني. يمكن تلخيصه بثورة قام بها الرهبان الآراميون/ السريان (السوريون) المترهبون في فلسطين. وقد رافقها شغب كبير احتاج الى الاستعانة بالجند لوضع حد له. وقامت في الاسكندرية حركات دينية وطنية وأخذت كنيستها بقاعدة الطبيعة الواحدة. ولم تكن الاسكندرية أو بيت المقدس (وجنوب فلسطين) الوحيدتين في ذلك. وسنتحدث عن كنيسة الطبيعة الواحدة وانتشارها في المنطقة العربية (وخارجها) في الفصول التالية.

وقد تأنى الأباطرة البزنطيون في فرض رأيهم هذه المرة. إذ تركوا الأمور تستقر بشكل من الأشكال. ومع ذلك فإن زينون (٤٧٦-٤٩١م) نشر وثيقة سماها أوتوطيقون، وذلك سنة (٤٨٢م) وهي التي يمكن أن تسمى (وثيقة الوحدة). كانت الوثيقة معتدلة وصحيحة ولم تشر الى التطرف قط. ويبدو أنها قبلت لأن المسؤولين من رجال الدين، أو البعض على الأقل، تعبوا من الجدل والمناقشة والخلافات.

وقد وضع حداً لهذه الفترة من السلام تدخل بابا رومة فيلكس الثالث (٤٨٣-٤٩٢م). فقد قطع (أي حرم) أكاسيوس بطريرك القسطنطينية، لأنه تجنب استعمال الحدود الخلقدونية. فشجع هذا جميع خصوم الوثيقة ومؤيديها على التخلي عنها. وهذا الذي كان يحدث دوماً. فإذا تقدم المعتدلون في القسطنطينية بقبول آراء أصحاب الطبيعة الواحدة، تصدت رومة لهم وحرمتهم؛ فإذا تصالحوا مع الغرب قامت قيامة الإسكندرية ومن ورائها مصر بكاملها[٣].

الهوامش

(١) لما أخذت المسيحية تنظم شؤونها إدارياً، اتبعت التقسيم الإداري الذي كان متبعاً من أيام الرومان. فكانت الاسكندرية (ومصر) أسقفية وكانت أنطاكية أسقفية كما كان ثمة أسقفية في الغرب هي رومة. ومنذ أوائل القرن الرابع أصبح المشرف على شؤون الأسقفية يسمى بطريركاً. وكان الترتيب على النحو التالي: روما فالاسكندرية فانطاكية. ولما أصبحت المسيحية ديناً رسمياً لبزنطة، أضيف إلى هؤلاء الثلاثة بطريرك القسطنطينية. وأصبح الترتيب على ما يلي: بطريرك رومة فبطريرك القسطنطينية فبطريرك الاسكندرية فبطريرك أنطاكية. وفي وقت متأخر من القرن الرابع اتخذ بطريرك رومة لقب «البابا» باعتبار المنطقة التي كانت تحت سلطته كانت تشمل غرب أوروبة وشمال أفريقيا. وكانت البابوية تنشط في سبيل نشر المسيحية في مختلف المناطق الوثنية في غرب أوروبة، حتى الجزر البريطانية. ولذلك أصبح بطريرك القسطنطينية يشغل المرتبة الأولى ويتبعه بطريركا الإسكندرية وأنطاكية على التوالي. وفي مجمع خلقدونية المسكوني (٤٥١) رُفعت القدس إلى درجة البطريركية وجعلت الرابعة بعد الثلاث المذكورات سابقاً.

(٢) the Tome وهي رسالة بابوية أعدها البابا أصلاً لترسل إلى فلابيانوس أسقف (بطريرك) القسطنطينية، فوصلت متأخرة، إذ إن هذا كان قد أرغم على التنحي عن منصبه.

(٣) Shahid, Irfan, *Byzantium and the Arabs in the Fifth Century*, Waschington D. C. 1984; *Byzantium and the Arabs in the Sixth Century*, Washington D. C. 1984.

٢. القرن السادس

كانت قضايا المسيحية والكنيسة معها، مرتبطة، في الفترة التي عرضنا لها والتي تلتها، بموقف الإمبراطور من القضايا بأجمعها. ويمكن أن نقول أيضاً إن نشاط الإمبراطور بالذات كان يؤثر في سير الأمور مسيحياً وكنسياً.

من هنا كان اعتلاء يوستنيان العرش (٥٢٧-٥٦٥م) فاصلاً زمنياً هاماً في هذه الأمور. خاصة أن زوجته، الإمبراطورة ثيودورا، لم تكن أقل منه نشاطاً واهتماماً بشؤون الكنيسة.

كان ليوستنيان غرضان أساسيان في حياته: إحياء الإمبراطورية الرومانية وإحلال السلم والوفاق في الكنيسة. وقد نجح في المهمة الأولى الى درجة كبيرة، فأعاد أجزاء من الإمبراطورية الغربية (التي سقطت رسمياً سنة ٤٧٦ م) في أوروبة وإفريقية. لكنه أجهد موارد الدولة البزنطية في المال والقوى العاملة وأنهك الناس في سبيل ذلك. وكانت النتيجة موقتة. فقد انتهى الأمر حتى في أيامه تقريباً الى ما كان عليه من قبل.

أما فيما يتعلق بإحلال السلم والوئام والوفاق في الكنيسة، فلعل الأمر كان مخفقاً بالمرة. فقد كانت سياسته الدينية تقوم على أساسين: الأول أن استتباب الأمن في الدولة وازدهارها يقومان على القبول بالرأي الديني الذي يعترف به الإمبراطور وشعبه. والأساس الثاني أن واجب الإمبراطور الأول هو أن يرعى وحدة الكنيسة وصحة المعتقد. ولذلك فقد كان هم الإمبراطور (والإمبراطورة) أن يفرض على الشعب بكامله ما توصل هو إليه من رأي وعقيدة. وكان هو يقف الى جانب الخلقيدونيين أي القائلين بالطبيعتين. ومع أن يوستنيان لم يدمغ المونوفيستيين (القائلين بالطبيعة الواحدة) بالهرطقة، فإنه لم يقبل حتى ببعض لاهوتييهم الذين قد كانوا عاشوا وكتبوا وبشروا في القرن الخامس، وكانوا توفوا قبل أيامه بمدة طويلة.

ومع أن يوستنيان استعمل جميع وسائل الإقناع والشدة، فإن المونوفيستيين لم يقبلوا بآرائه. فهم، مثل القائلين بالطبيعتين، ما كان يرضيهم إلا عودة الفريق الآخر عن رأيه ويرجع الى الصواب. ووقف كل فريق على سلاحه: وكان سلاح الإمبراطور أقوى وأشد لكنه لم ينجح.

ولم تكن لخلفاء يوستنيان الذين حكموا فيما تبقى من القرن السادس سياسة

واحدة؛ إذ كان الواحد يؤيد الخلقيدونيين فيما كان الآخر ينحاز الى خصومهم.

نود أن نشير هنا الى ثلاثة رجال كان لهم يد كبرى في المحافظة على المونفيسية وهم يعقوب البرادعي وثيودور وبطرس المصري (وسنتحدث عنهم فيما بعد). وجميعهم كانوا من رجال القرن السادس.

والذي انتهى اليه الأمر أنه في نهاية القرن السادس كانت الكنيسة الشرقية قد انشطرت وحدتها السابقة. فقد قبل بطاركة القسطنطينية والجماعات اليونانية (لغة وثقافة) في المناطق الساحلية من سورية المبادئ الخلقيدونية. وكان لها في مصر حفنة من الأتباع. أما مصر وفلسطين والأجزاء الداخلية من سورية وأرض الرافدين فقد كانت تقول بالطبيعة الواحدة. وكان الموارنة من القائلين بالمذهب الخلقيدوني.

ويمكن القول إجمالاً إن التدخل القوي للدولة في شؤون الكنيسة والمسيحية كان سبباً أساسياً في الانفصال والانقسام. وقد تداخل في هذا الأمر شعور قومي قوي ضد الإمبراطورية البزنطية. فأصبح اعتناق المونوفيستية دليلاً على الوطنية.

يبدو أن المسيحية وصلت الى العربية بعيد انتقال المسيح ببضع سنوات، ويبدو أن ذلك كان على يد بولس. وبعد أن استولى الرومان على البتراء وجدت المسيحية سبيلها الى بلاد الأنباط. ونحن نعرف انه بعيد احتلال البتراء أحدث تراجان ما سمي باسم «الولاية العربية» وجعل بصرى العاصمة. وقد انتشرت المسيحية بشيء من السرعة في تلك المنطقة، وبعضها كان بلاد أدوم من قبل (وظلت تحتفظ بالاسم طويلاً). والطريف أن انتشار المسيحية كان في الضواحي المحلية للمدن الهلينية والهلينستية، وهي في طبيعتها تتكون من السكان الآراميين، أقوى وأسرع منه في المدن نفسها.

ومع انتشار المسيحية انتشرت وجهات النظر المختلفة حول تفسير العقيدة، وهو ما أسماه أصحاب السلطان يومها البدع (أو حتى الهرطقات). فالمارقونية (صاحبها مارقيون ٩٠-١٦٥م) كانت معروفة في سورية الداخلية وفلسطين والولاية العربية، وظلت على ذلك حتى القرن الرابع. لكنها كانت تجتاز فترة انزواء في غرب سورية.

على أنه لا انتشار المسيحية ولا حركات الانقسام التي رافقت ذلك، كانت متسقة. فقد ظل الفلاحون في أدوم وثنيين حتى القرن الرابع، وعندها تنصروا على أيدي الرهبان. ومع ذلك فإن سكان غزة نفسها، وهي قريبة من المكان الذي بدأ فيه هيلاريون حركته التنسكية، ظلت على وثنيتها حتى في القرن الخامس.

وما يجب تذكّره هو أن سورية، بسبب تمكن الهلينستية من بعض مدنها، كانت أقرب الى التفسير اليوناني منها الى التفسير الآرامي. وقد عملت الاسكندرية على ضرب الاتجاه غير اليوناني، لأنه كان يدل على محاولة للتحرر من النير اليوناني.

والجماعات المستقرة في الولاية العربية وفي منطقة دمشق وفي أواسط فلسطين

وجنوبها كانت عربية العنصر مع أنها كانت تتكلم الآرامية – ولعلها كانت تستعملها لغة ثانية لأهميتها بالنسبة الى المنطقة بأجمعها. ومن الطريف أن الطقس الكنسي والخدمة الإلهية كانا يقامان باللغة اليونانية على يد الأسقف أو مساعده. لكن الإنجيل والعظة كانا يترجمان شفوياً الى اللغة الآرامية على يد شيخ من شيوخ الكنيسة. ويبدو أن بعض الترانيم كانت ترنم بالعربية!

كانت تقوم بين الرومان من جهة وخصومهم الى الشرق (الساسانيين) منطقة عربية. وقد كان سكانها، في أغلب الأحوال، مستقلين، كما كانوا أيام الحروب بين السلوقيين والفرثيين. إنهم قوم عنوا بالتجارة وكان في مصلحتهم ومصلحة الجيران المتخاصمين ان يدعوهم وشأنهم ليقوموا بدور التاجر.

هذه المنطقة واسعة، وليس لها في الواقع حدود معينة. كانت القضية قضية من يمنح هؤلاء البدو امتيازات ويقبل بعملهم أكثر مما كانت قضية حروب وفتح وسيطرة مباشرة. وفي هذه المنطقة التي كانت ألصق بالفرات تجارياً منها بدجلة، انتظمت شؤون مدن ممالك هي البتراء وتدمر والحيرة، فضلاً عن قبائل ظلت لها صفة التنقل في منطقة أوسع. من هؤلاء الصفويون الذين أقاموا في منحدرات حوران الشرقية حتى دورا وتدمر.

زعماء هذه القبائل كانوا يسمون فيلارك. وكانوا يرتبون أمورهم مع الرومان ثم مع البزنطيين في الجهة الواحدة، أو مع الفرس، فرثيين أو ساسانيين في الجهة الأخرى. في هذه الجهة كانت الحيرة هي النقطة الرئيسة. وكان زعماؤها، أو ملوكها، المناذرة أحلافاً لكتيسيفون (المدائن فيما بعد). أما الجهة الغربية فقد تقلب على التحالف فيها مع الرومان والبزنطيين قبيلة سَليح التي أقامت شرقي بُصرى. وفي الوقت الذي كان بنو سليح فيه المتزعمين في المنطقة التي وصلها بنو غسان (القرن الثالث) وكان للضجاعمة صلات بالبزنطيين. وتقوى بنو غسان وأصبحوا (منذ سنة ٥٢٩م) حلفاء البزنطيين الرسميين. لكن تنوخ كانت تقيم (أو تظعن) في منطقة تقع بين نهر الفرات وخط من المدن يمتد من قنسرين الى حمص عبر حماة.

فضلاً عن ذلك، فقد كانت تقوم، بين الحين والآخر، تجمعات بدوية أفرادها مسيحيون فكان لهم أساقفة خاصون بهم. ففي سنة ٤٢٧م رسم جوفنال، أسقف القدس، بطرس، وهو زعيم بدوي متحضر، أسقفاً على المضارب (التجمعات البدوية). كانت القدس حتى ذلك الوقت أسقفية. وفي سنة ٤٥١م في مجمع خلقدونية، بدّل جوفنال أسقف القدس موقفه فانضم الى الحزب المؤيد للخلقيدونية أي القائل بالطبيعتين، فكوفىء على ذلك بأن جعلت القدس بطريركية واختير هو أول بطريرك مستقل.

في القرن الخامس الميلادي كانت ثمة خرجة عربية قوية (من الجزيرة) انتشرت عشائرها وقبائلها في سورية وفلسطين وأرض الرافدين. ويبدو أن هذه الجماعات كانت ذات قوة وعدد، لذلك فقد احتاجت الى حملة بزنطية قوية أرسلها أنستاسيوس الإمبراطور سنة ٤٩٨م. وقد تغلب البزنطيون على حجر بن الحارث بن عمرو رأس كندة وحلفائها. وفي هذا الوقت بدأت محاولات بني غسان لإزاحة بني سليح عن مكانتهم. لكن بزنطية كانت ما تزال متمسكة ببني سليح، ولأن أنستاسيوس عقد سنة ٥٠٢م معاهدة مع الحارث بن عمرو الكندي، كان على بني غسان أن ينتظروا حتى سنة ٥٢٩م ليصبح لهم ما أرادوا. على أنهم بدءوا بداءة صحيحة لما عهد الإمبراطور البزنطي للحارث بن جبلة الغساني بحماية معابر وادي السرحان، الذي كان يصل أواسط الأردن بالمناطق الشمالية من الجزيرة عن طريق تيماء ودومة الجندل (الجوف اليوم).

ولعل من الطريف أن نذكر هنا أن مجمع خلقيدونية حضره أساقفة عرب هم يوحنا (أسقف العرب في أورهاي – إديسّا)؛ ويوشاسيوس أحد خلفاء الأسقف موسى. وموسى هذا هو الذي اختارته ماوية[1] التنوخية التي خلفت زوجها أمير تنوخ المعاصر لفالنس الإمبراطور (٣٦٤-٣٧٨م) والتي هاجمت الدولة البزنطية ونجحت في المعارك ضدها على نحو ما فعلت زنوبيا. والغريب أن زنوبيا عينت أسقفاً على أنطاكية هو بولس السميساطي، وماوية اختارت أسقفاً على شعبها.

كان بين الأساقفة العرب في مجمع خلقيدونية يوحنا أسقف المضارب (التجمعات القائمة بين القدس والبحر الميت). ويوحنا أسقف العرب البدو ومركزه في حوّارين (بين دمشق وتدمر). وقد كان هذا من القائلين بالطبيعة الواحدة (مونوفيستي).

كانت أرض الرافدين، وخاصة الأجزاء الشمالية منها، هي المنطقة التي تميزت بأن الصدام بين تفسيرين للمسيحية تطور فيها. وكان معنى هذا تصميم عالم الآرامية على التحرر من المسيحية اليونانية. إن الهلينية مسّت السطح في الحياة الآرامية لكنها لم تتغلغل في الصميم. وقد كانت أكثر المدن السورية، على ما مر بنا، مثل أنطاكية، جزراً هلينستية في جو ثقافي آرامي طبيعي. ويدل على هذا أن ضواحي مثل هذه المدن اليونانية التي كان يقيم فيها العمال كانت آرامية الأسماء والصفات الاجتماعية. ومع الزمن، ولما استقر الرهبان في المنطقة وأخذوا على عاتقهم تفسير المسيحية للمؤمنين ونشرها بين الوثنين استطاعوا أن يحولوا الشعب عموماً من المسيحية التي تناصرها الدولة الى المونوفيستية.

أما في أرض الرافدين فقد كان تطور الحركات المسيحية مختلفاً تماماً. فقد سار المسيحيون هناك في مسارات خاصة بهم، من دون أن يكون للهلينية معوقات لذلك. وكانت المسيحية دين زعماء القبائل العربية. ولم يحدث أن عرفت أرض الرافدين

الاضطهاد الديني الذي عرفته المناطق الرومانية قبل اعتراف الدولة بالمسيحية أو بعده.

لما استولت رومة على أرض الرافدين على عهد ديوقلتيان، سنتي ٢٩٧-٢٩٨م، وجد أصحاب الأمر أن المسيحية كانت منتشرة في المنطقة هذه، وفي الولايات الأخرى التي تنازل عنها الساسانيون المغلوبون للرومان. كانت الجماعات المسيحية قائمة في شمال أرض الرافدين وفي منطقة بابل وبين الأرمن في الجهة الشرقية من نهر دجلة. والمعروف أنه في أيام يوليان الجاحد (٣٦١-٣٦٣م) أصبح دير طور عابدين، على ما مر بنا، عامراً بالنساك والمتعبدين، كما كان قد أصبح مصدراً من مصادر التنوير المسيحي.

كانت المسيحية هنا، كنيسة وجماعة، قليلة الاحتفال بالسلطة الرسمية، وقد اتبعت المسيحية هنا الطريق الطبيعي خاصة فيما يتعلق باللغة. وكان القوم يحسون أنهم ظلوا، من الناحية الاجتماعية والنفسية، على ما كانوا عليه. والسبب الأصلي هو أن اللغة لم تتغير. فالسريانية، نعود ونكرر القول، هي الآرامية بعد أن تنصرت.

ولم تكن لا المناطق العربية عنصراً ولغة ولا الآرامية لغة أصلاً، محددة تماماً، ولا كانت منعزلة. وكانت إديسّا المركز الفكري والأدبي والديني واللغوي.

انتشرت المسيحية في غرب الإمبراطورية الساسانية الفارسية. لكن الأتباع لم يكونوا فرساً، بل عرباً استقروا في تلك الجهات من أقدم الأزمنة. وفي الأثر أن رجلاً اسمه ماري، وهو من إديسّا، كان أول من جمع حوله فئة من الشباب المتعلم المتحمس وأخذ ينشر المسيحية في المنطقة: بيت غارماي وبيت أرامياي. وقد أصبح أحدهم، واسمه بابا بار عجّاي (الآرامي) أول أسقف في العاصمة الساسانية كتيسفون بين سنتي ٢٧٥ و٢٩٨م.

جذبت المسيحية البدو الكثيرين في المنطقة. ويعود الفضل في ذلك للرهبان الكثر الذين عمّروا تلك الجهات، على نحو ما كان الأمر عليه في المناطق الغربية.

ومع أن إديسّا كانت المركز الأكبر للمسيحية وآدابها، حيث كانت بعض الأعمال المسيحية المكتوبة باليونانية تنقل الى السريانية، فقد كان ثمة مراكز أخرى أهمها نصيبين. وقد مر بنا أخبار تتيان وبار ديصان من قبل، فلا حاجة الى التحدث عنهما هنا ثانية.

حريٌّ بنا أن نتذكر دوماً أن أجزاء كثيرة من هذه المنطقة الواسعة التي نتحدث عنها هي مناطق انتقالية - يقيم الفلاحون في أجزاء منها، وينتقل البعض بين البادية والمزروع، لأنهم يسوقون أنعامهم سعياً وراء الكلأ والماء. وقد يكون فيهم البدو دائمو التنقل والحركة. والجميع يتعاونون في سبيل العيش، لكن ذلك لا يمنع خصومتهم

وتقاتلهم. ولم تخرج الأجزاء الحدودية، إن صح التعبير، السورية والبابلية والميزوبوتامية عن ذلك. والشعوب التي تعمر هذه المناطق هي عربية النجار، ولو أن بعضها أخذ باستعمال الآرامية بسبب العمل المستمر مع المتكلمين بهذه اللغة، التي كانت لغة التخاطب والتكاتب والتجارة والمعاملات الرسمية فترة طويلة. والواقع أنها لم تفقد صولتها إلا بعد انتشار اللغة العربية في المنطقة الأوسع بدءاً من القرن السابع للميلاد. (على أنه يجب أن نذكر أنها ظلت تستعمل في نواح كثيرة حتى بعد ذلك - إما بصيغتها الآرامية أو بثوبها السرياني).

ومن اليسير أن يتعرف المرء، ولو من قصص أيام العرب، إلى الخلافات الصغيرة المستمرة التي كانت تقوم بين فئات بدوية. لكن الذي كان يبدل الأوضاع تبديلاً كاملاً، كانت الهجرات الكبيرة كمثل هجرة بني تنوخ في القرن الثالث أو مجيء بني تغلب في القرن السادس. عندها كانت الخريطة البشرية يعاد رسمها لأن القوي كان يطرد الأضعف، وهذا ينتقل الى مكان آخر، وقد يُخْرِجُ غيره من بلده ليستقر فيه.

ومن الطبيعي أنه عندما تدخل فكرة جديدة الى منطقة مثل الذي ذكرنا، والتي تحوي هؤلاء الناس مختلفي الأسس الاقتصادية والاجتماعية - من فلاحين الى بدو متنقلين مع حيواناتهم وأنعامهم الى بدو متنقلين بلا أنعام لكنهم يحملون المتاجر والسلع - من الطبيعي أن تكون ردود الفعل عندهم مختلفة. وهذا ما حدث بالنسبة الى انتشار المسيحية في هذه المنطقة الانتقالية. فضلاً عن ذلك فهناك الوضع السياسي المترجح بين الفرس والبزنطيين، الذين كان القتال يغلب عليهم وعلى حياتهم.

انتشرت المسيحية بين السكان على درجات متفاوتة، ولكنها في القرن الرابع كانت أصبحت أمراً مألوفاً بين الناس. وقد روي أن مَسْكَنه في جنوب أرض الرافدين، كان لها أسقف (٢٤٤م). وقد حضر مراقب باسم أسقف عرب أرض الرافدين الشمالية مجمع خلقدونية سنة ٤٥١م. وبين السنتين نقف على أسماء أساقفة أو كهنة سيموا للقيام بالأعمال الكنسية للطوائف المسيحية المختلفة، ولو أنها اخبار، هي الى النتف أقرب.

ومن هذه النتف استطعنا أن نكوّن بضعة أخبار متآلفة. ومن هذا يبدو أن المسيحية وصلت الى مدن كثيرة آرامية الثقافة واللغة من التي كانت تحت النفوذ الساساني، وكان ذلك في القرن الثاني للميلاد. فمنها كركا (كركوك) التي كان لها أسقف في وقت مبكر نسبياً. ومنها الحضر التي حظيت بأسقف سنة ٢٤١م. ومنها كشكر (واسط فيما بعد). وقد كان لأساقفتها أدوار في حضورهم مجامع النساطرة كما يبدو من توقيعاتهم. ومثل ذلك يقال عن الأنبار التي كانت مدينة عربية الوجه واللسان، وكان أهلها ينتسبون الى معدّ وتكريت التي أصبحت مركزاً من مراكز الكتابة

والتأليف في المسيحية.

ولو كنا نكتب تاريخاً مفصلاً لانتشار المسيحية بين العرب في المنطقة المذكورة لتوجب علينا أن نؤرخ لعدد من القبائل والزعماء من مثل الأزد واللخميين. لكننا لا يمكن أن نغفل الحيرة لأنها أصبحت مع الوقت مركزاً مهماً انطلق منه كثيرون للتبشير بالمسيحية في مناطق من الجزيرة تبدو نائية، لكن الآراء والأفكار لن تعدم من ينقلها.

والرواية تعزو الى عمرو بن فهم اتخاذه الحيرة عاصمة له. ولما استقر الأمر للحيرة عاصمة ودار أمارة ومركز تجارة، عرف سكانها باسم «العِبَاد»، والمقصود بذلك المسيحيين، سواء كانوا من أهلها أم من الطارئين عليها.

وقد استقر أسقفها النسطوري فيها سنة ٤١٠م وهو حوزيا، واستمرت الحيرة وفيها أساقفتها حتى وقت متأخر. وقد كانت الأسرة اللخمية الحاكمة في الحيرة محايدة بالنسبة الى المسيحيين. أما أعضاء الأسرة فلعلهم لم يعتنقوا المسيحية، بل إن المعروف أنهم ظلوا يعبدون العزّى.

هنا موضع ملاحظة. أشرنا هنا وهناك الى أسقف نسطوري هنا وآخر مونوفيستي هناك. فهل كان ثمة صورة عامة أو خريطة ولو جزئية لتوزع هذه الفرق المختلفة في المناطق البعيدة عن المدن الرئيسية؟

نعم. وسنعرض لها في الفصل التالي.

٣. الخلافات

إن الخلافات اللاهوتية التي عرفها القرن الخامس، والتي استمرت بعد ذلك، يمكن ان تلخص في الأمور التالية:

أولاً: إن أتباع الخلقيدونية، الذين عرفوا بالملكيين لأنهم وافقوا الملك (البزنطي) على رأيه تمثلهم بطريركة القسطنطينية وبطريركية أنطاكية (اليونانيو الاتجاه منها) والفئة اليونانية في مصر.

ثانياً: هناك المونوفيستيون (أتباع الرأي القائل بالطبيعة الواحدة) وهم، في غالبيتهم، من سكان الأجزاء الشرقية من سورية.

ثالثاً: كان هناك النساطرة، وهم السوريون الشرقيون. هؤلاء هم الذين أخرجوا من الإمبراطورية البزنطية، فامتدوا شرقاً.

قامت بين الفئات المتباينة خلافات ذات قيمة، لا من الناحية اللاهوتية فحسب، بل من الناحية التنظيمية والاجتماعية أيضاً. فقد حسبت الفئات الناطقة باللغة الآرامية/ السريانية أن المسيحيين الناطقين باللغة اليونانية هم «غرباء» عنها. والشيء الوحيد الذي ملأ الفراغ الذي قام بين الفريقين كان الحركة الرهبانية والتسكية.

أما فيما يتعلق بالمسيحيين المقيمين في أرض الرافدين، فإن وضعهم كان مرتبطاً بالدولة التي يتبعون. ففي الإمبراطورية البزنطية كانوا من أعوان الدولة أو أدواتها. أما بالنسبة الى الدولة الفارسية، فقد كانوا يتمتعون بحرية العبادة - إن من حيث اللغة التي كانت آرامية/ سريانية (ثقافة وعبادة) أو من حيث مجتمعهم الذي لم يعتبر جزءاً من المجتمع الإيراني. وكانت السلطة الفارسية تتصف بالتسامح بالنسبة الى الأديان التي يتبعها الناس في حدود الإمبراطورية. لكن الأمر تبدل لما اعتنق قسطنطين المسيحية وانتقل بعد ذلك الى اعتبار المسيحيين أتباعه. أصبح الموقف الفارسي موقفاً مختلفاً - فقد قيل عندها إن هؤلاء المسيحيين يعيشون بيننا ولكنهم يرون رأي القيصر. والفئة التي وقع عليها الضيق والعقاب هي فئة الأساقفة والكهنة وجماعة من المسيحيين الذين كانوا جنوداً في الجيش وموظفين في البلاط، والمقيمين في المناطق الحدودية وما الى ذلك.

ولما انهزمت رومة ووقّعت مع الفرس المعاهدة المؤلمة لها (سنة ٣٦٣م) انتقلت

مدرسة نصيبين الى إديسًا (الرها) حيث كان رجال الدين يدربون ليخدموا الرعية.

لقي المسيحيون معاملة حسنة نسبياً أيام الأباطرة الفرس الثلاثة: شابور الثالث وبهرام الرابع ويزدجرد الأول (٣٨٣- ٤٢٠م). وقد عقد في هذه الأثناء مجمع مار اسحاق في سلوقية (على دجلة) سنة ٤١٠م برعاية يزدجرد. وكان معناه اعترافاً بوجود رسمي للمسيحيين المقيمين في غرب الإمبراطورية الفارسية. وسمي رئيس المسيحية يومها الجاثليق. وكانت الكنيسة مؤسسة ذاتية الحكم، وكانت الصلة بينها وبين الدولة تتم عن طريق رئيسها.

وحريّ بالذكر أن تبدلاً طرأ على فئات مسيحية هناك، إذ إن رجال الدين في المنطقة الفارسية قبلوا النظرة النسطورية، وتبعهم جماعة من سكان الإمبراطورية البزنطية. كان ذلك في منتصف القرن الخامس.

وثمة أمران مهمان حدثا في تلك الأثناء: الأول هو تمسك عدد كبير من رجال الدين بالمونوفستية بسبب سياسة مرقيان بعد (٤٥١م). أما الثاني فهو إغلاق مدرسة إديسًا نهائياً سنة ٤٨٩م بأمر من الإمبراطور زينون. وانتقل الأساتذة المطرودون الى نصيبين وأقاموا تحت السلطة الفارسية. هناك أعيد تنظيم المدرسة على يد نارسيس (تو ٥٠٧م). وتبع ذلك إعادة تنظيم الكنيسة على قواعد نسطورية. وكان لبار صوما (تو ٤٩٢ أو ٤٩٥م) الذي اصبح أسقفاً (٤٥٧م) دور كبير في القيام بهذا التنظيم . وأصبح موقف الدولة الساسانية فيه تشجيع للنساطرة الذين أخذوا يبحثون عن ملجأ يقيمون فيه، فقبلتهم في ديارها واعترفت ببار صوما ممثلاً رسمياً للجماعة. على أن هذه الكنيسة النسطورية لم تعتبر كنيسة فارسية بل ظلت فرقة مسيحية سريانية لها وجود في الامبراطورية. وكان أتباعها الجدد من الوثنيين هم من الآراميين والعرب المقيمين في حدود الدولة. وقد أشارت المصادر العربية الإسلامية فيما بعد إليهم على أنهم كانوا بأجمعهم تقريباً مسيحيين نساطرة.

تبين لنا أن المونوفستية أصبحت الحركة المقاومة للخلقيدونية. والمهم أن المونوفيستيين لم يطردوا خارج حدود الدولة البزنطية على نحو ما فعلته هذه الدولة مع النساطرة. لكن موقف الإمبراطور يوستين الأول (٥١٨-٥٢٧م) من الكنائس العربية في سورية كاد أن يقضي عليها. فقد اضطهد الرهبان في المناطق العربية في شمال سورية في الولايات الفراتيّة وأورهاي وأرض الرافدين وفي أرجاء أنطاكية. وخيّر هؤلاء بين القبول بالخلقيدونية أو الخروج الى الصحراء. فاختارت الأكثرية الصحراء. وكانوا يتنقلون بين البدو، ويختلفون الى قرى الريف أحياناً، فيدعون لكنيستهم. وقد نجح بعضهم في إقامة جماعات جديدة في الأماكن التي بدت قاصية في نظر الإمبراطور.

تبين أن الفترة التي تدور حول سنة ٤٥٠م كانت فترة هامة بالنسبة الى الكنائس

الآرامية. فقد انفصلت الكنيسة المصرية/ القبطية[1] عن الكنيسة الرسمية، وظل بطريرك الاسكندرية سجيناً في القسطنطينية. وحتى بطريرك أنطاكية (سفيروس) الذي لم يقبل بالخلقيدونية، والذي هرب الى مصر، كان أتباعه يضطهدون ويطاردون رسمياً. لكن عدداً من رجال الدين في الجزء الغربي من سورية، ومنهم الموارنة، قبلوا بالطبيعتين، ولذلك ظل أساقفتهم يقومون بواجباتهم الدينية نحو الأتباع.

كانت القضية التي واجهت المونوفيستيين في المناطق البزنطية أنه لم يكن هناك من يستطيع أن يرسم كاهناً أو يسوم أسقفاً. (كان سفيروس قبل وفاته بسنتين أي سنة ٥٣٦م سمح ليوحنا التلاوي وغيره من الأساقفة أن يسوموا أساقفة وغيرهم. لذلك فالحالة هنا كانت طبيعية).

وهنا دخلت المصادفة في هذه المسألة. والمصادفة كان لها شقان أساسيان: الأول، أن ثيودورا، زوجة يوستنيان، كانت تميل الى المونوفيستية، إن لم تكن من أتباعها. والشق الثاني هو أن الحارث بن جبلة الغساني الذي كان حليفاً لبزنطية، كان في زيارة للعاصمة لأعمال تتعلق بأمور زعامته المرتبطة بالإمبراطور. وكان ثيودوسيوس، بطريرك الاسكندرية السجين في بزنطية مقيماً في القصر أو قريباً منه، وهو مونوفيستي.

طلب الحارث من ثيودورا أن يسام أسقف من أتباع الطبيعة الواحدة كي يعنى بمسيحيّي العرب من أهل القبائل. فقبلت الإمبراطورة وطلبت من ثيودوسيوس أن يرسم اثنين من رهبان دير قريب من العاصمة. كان أحدهما يعقوب بُردَعايا، والذي عرف باسم البرادعي، وثيودور. كان ذلك سنة ٥٤٢م. رسم الأول أسقفاً للولايات السورية وولايات أرض الرافدين (التابعة لبزنطية)؛ أما الثاني، الذي كان عربياً فرسم أسقفاً لما كان تحت نفوذ بني غسان من عرب، وهم سكان الولايات الفلسطينية والولاية العربية. إلا أنه في واقع الأمر كان الاثنان بدويين، وكانت مهمة كل منهما تحمله الى حيث يقيم المونوفيستيون من السوريين العرب.

صحيح أن ثيودور كان يشار اليه باسم أسقف بصرى، لكنه لم يقم في المدينة، بل ظل ينتقل مع بني جفنة. وكان الاثنان يعملان في حقلين مختلفين، وكل من الحقلين كان واسعاً. لكنهما اجتمعا مرة لبحث قضية أسقفين خرجا عن القطيع، وزار الاثنان معاً العاصمة بدعوة من يوستين الثاني (٥٦٥ - ٥٧٨م).

مع أن يعقوب كان أسقف الرها (إديسًا) فإنه لم يقم هناك، بل إنه ظل ما يزيد على الثلاثين سنة، حتى وفاته في سنة ٥٧٨م يتنقل من مكان الى مكان، متخفياً أحياناً بثياب شحاذ وسوى ذلك من وسائل التخفية، باحثاً عن أحوال الرعية، وهو ينظم الكنائس والجماعات ويرسم الكهنة والشمامسة ويسوم الأساقفة. وقد تلقى عوناً كبيراً

من أساقفة أرمينية الذين كانوا مونوفيستيين. لكن أهم ما في الأمر ان أتباعه حافظوا على سرية أعماله، فلم يش به أحد. وقيل إن يعقوب سام في رحلاته العديدة بطريركين وسبعة وعشرين أسقفاً وبضعة آلاف شماس وكاهن.

أما المناطق التي زارها فشملت آسية الصغرى وسورية وأرض الرافدين وفارس ومصر وقبرص. وقد كانت نتيجة هذا العمل الدؤوب أنه نظم للمونوفيستيين مِلاكاً إدارياً إكليركياً هو الذي سمح لهم أن يقفوا على أرجلهم. وقد وصفه البطريرك أغناطيوس برصوم بقوله: هو «أشهر الأحبار ورعاً وطهراً وأكبر المجاهدين الرسوليين في نصرة المعتقد القويم، ونخبة النساك الصوامين القوامين ذوي الصلاح والدين المتين». ولم يكن غريباً أن القائلين بالطبيعة الواحدة (المونوفيستيين) أطلق عليهم فيما بعد اسم اليعاقبة.

وكان عمل ثيودور في ديار بني غسان من النوع نفسه. ولو أن الرجل كان ينتقل في منطقة أصغر. لكن النتيجة كانت واحدة من حيث إحياء الكنيسة المونوفيستية ورسم رجال الدين اللازمين لها. وكانت حياة ثيودر أقصر.

في سنة ٥٧١م وقع اضطهاد عظيم على الكنيسة المونوفيستية ورجالها، فسجنوا وقيدوا. ولم ينج من هذه المصيبة إلا المناطق الواقعة تحت نفوذ بني غسان.

ظهر رجل ثالث من المونوفيستيين في مصر وكان اسمه بطرس. وقد رسم هذا الراهب أسقفاً سنة ٥٧٥م واتخذ لقب بطريرك الإسكندرية، وبذلك أسس كنيسة مستقلة في مصر، ولم يظل خارجها سوى موظفي الدولة والأقلية اليونانية.

ويمكن الآن ذكر الأماكن والمراكز التي كانت تعلم فيها حقائق المونوفيستية. فمنها تكريت على دجلة، ودير مار متى (مار متاي) الواقع في جهات الموصل. وكان بيت أرشام (على مقربة من سلوقية - دجلة) مكان محور لنشاط شمّعون، الذي كان أسقف المكان بالذات.

وهنا موضع لملاحظة تاريخية مهمة جداً. هذه المونوفيستية المطلقة كما ناقشها أربابها وخصومها يومها، وبما أثارت من خلافات وجدل ومصادمات واضطهاد - هذه ليست موجودة اليوم. هذه أصبحت في ذمة التاريخ. فالسريان والأقباط والأرمن والإثيوبيون (الأحباش) ليسوا مونوفيستيين بهذا المعنى المطلق الذي كان شائعاً يومها. فنحن لسنا اليوم في العالم المسيحي أمام المونوفيستية، لأن هذه انتهت بشكل كلي وليس لها ممثل (المطران جورج خضر).

ما دمنا قد وضعنا أمامنا خريطة، ولو متشابكة بعض الشيء، للخلافات اللاهوتية وما نشأ عنها، فإنه يتحتم علينا أن نعيد بعض الاعتبار لأتباع نسطوريوس كي نعيّن لهم

مواقعهم على هذه الخريطة. فالذي نعرفه هو أن نسطوريوس، بعد أن حرم (٤٣١م) نفي ونقل من مكان الى مكان حتى لقي حتفه في ليبيا (٤٥٢م).

وفي سنة (٤٣٥م) صدر قانون إمبراطوري قضى بتحريم تعاليم نسطوريوس وحرق كتبه. واضطهد الحكام أتباعه ونزعت عن أصدقائه الخلص الألقاب والرتب ونفي بعضهم الى البتراء حيث كان هو قد نفي. وانتهى الأمر بأن أخرج جميع أتباع نسطوريوس من الإمبراطورية البزنطية، ووجدوا لهم ملجأ عند الساسانيين. ورغبة منهم في إبعاد تهمة العمل لبزنطية التي كانت تلصق بهم، أعلنوا سنة ٤٨٠م، وكان ذلك بقيادة بار صوما (أسقف ٤٥٧-٤٨٤م) استقلالهم على اساس أن الايمان القويم الذي يمثلونه والذي هو مذهب مدرسة بطريركية أنطاكية، قد خنقت آثاره واضطهد أصحابه. وسمي المسيحيون المقيمون في الإمبراطورية الساسانية النساطرة، وقطعوا علاقتهم بالمسيحية اليونانية.

أصبحت نصيبين مركز التعليم اللاهوتي الى الجماعة التي استقلت حديثاً. وقد ظلت هذه المدينة تحوي المدرسة التي درب فيها لاهوتيو النساطرة مدة طويلة فيما بعد. وقد قامت هذه الكنيسة بأعمال تبشيرية نشيطة في القرن السادس، فأنشأت أسقفيات في مرو وهيرات وسمرقند، وما وراء ذلك. وقد وجدت الفئات المسيحية طريقها الى أواسط آسية وأفغانستان. وانتشرت المسيحية أيضاً في ساحل المالابار في الهند.

أما في الساحة الفارسية فقد انتشرت النسطورية بين سكان أرض الرافدين الشمالية وبابل، على ما مر بنا. ولما تضايقت المونوفيستية في الامبراطورية البزنطية وخرجت شرقاً دخلت أراضي الفرس وأخذت تزحم النسطورية هناك. ولما ازداد العدد تقدم منهم الكاثوليكوس (الجاثليق) النسطوري شيلا ٥٠٣٠-٥٢٧م) طالباً منهم إما أتباع الدعوة النسطورية أو الخروج من المنطقة. فاضطروا، بدافع عقيدتهم، الى الخروج من المنطقة، فخرج أكثرهم الى نجران الواقعة الى الغرب من الحيرة. وانتشر هؤلاء بين البدو من العرب. ومن هنا فإن المونوفيستية تأخرت في الوصول الى العرب المقيمين في البادية السورية.

ولنختم هذا الفصل بعدد من الملاحظات لتوضيح نقاط لعلها خفيت أو اختفت في هذا التشابك التاريخي.

أولاً: حري بالذكر أنه لم يكن الأعراب البدو يقبلون مذهباً مسيحياً معيناً واحداً بصورة دائمة. ذلك بأن توزيعهم القبلي، حتى ولو كانوا من أرومة واحدة، قد يجعل تأثير فئة من المبشرين أكبر عند فريق منهم منه عند الفريق الآخر. ولنمثل على ذلك بعرب أرض الرافدين، وفي الشمال. فقد اضطر بعضهم بحكم الموقع القريب من

الامبراطورية البزنطية (أو لعله كان مرات تحت نفوذ البزنطيين المباشر) أن يقبلوا ولو على غير رغبة أو إيمان، بالمذهب الخلقيدوني. فيما كان الذين سكنوا في حدود الدولة الفارسية إما نساطرة أو مونوفيستيين. من هذه الفئة، الجماعة التي استقرت الى الشمال من الأنبار، وكانت مراكزها، التي تعود اليها للحصول على المعرفة الدينية هي: تكريت وسنجارا ونصيبين وبَلَد.

ثانياً: استقر عدد كبير من النساطرة في الحيرة. وبدءاً من حوالى سنة ٤٠٠م أخذ النساطرة، بعد أن اطمأنوا الى وضعهم، يقومون بالتبشير بالمذهب نفسه. ويبدو أن إبراهيم الكبير (٤٩١ ـ ٥٨٦ م) كان واحداً من أبرز العاملين في حقل التبشير ـ تعليماً وتنظيماً وتأليفاً.

ثالثاً: في النصف الثاني من القرن الخامس كانت قبيلة تغلب قد استقرت في منطقة بين الخابور ودجلة والفرات. وكانت حدودها في الشمال قرقيسيا والموصل وفي الجنوب تكريت وعانة، ودجلة شرقاً والفرات غرباً. وقد وقعت هذه القبيلة تحت تأثير الدعوة المونوفيستية، وكانوا مسيحيين متمسكين بالمسيحيّة على هذا المذهب. لكن يبدو أن فئات من تغلب بحكم قربها من المناطق النسطورية تأثرت بها؛ وقد عثر الباحثون على ما يشير إلى أن بعضهم قبل بالأرثوذكسية أي الخلقيدونية.

رابعاً: في الروايات التي وصلتنا ما يعزو انتشار المسيحيّة بين البدو إلى عجائب تمت على أيدي بعض الأساقفة مثل الزعيم الذي اعتنق المسيحيّة لأنه اعتقد أن الله رزقه ابناً ذكراً بدعوات الراهب المؤمن. واعتنق المسيحيّة أفراد العائلة والقبيلة التي يتزعمها الشيخ زقوم معه، وكانوا مخلصين للمذهب. وهناك حكاية شيخ الصبيبة الذي حمل ابنه المقعد (سنة ٤٢٠ م) إلى دير في منطقة قريبة من أريحا (غور الأردن) وطلب من رئيس الدير أن يتوسط له فيشفع له. وصلى الرئيس وتمت الأعجوبة وتنصر الشيخ، ثم أصبح يبشر بالمسيحية ثم سيم أسقفاً على المضارب (التجمعات أو البرامبولات) واتخذ اسم بولس، وقد مر بنا خبره. ومثل هذه الحكايات والقصص العجائبية تؤثر في الناس!

خامساً: يبدو أن الغساسنة وصلوا الى مشارف الشام في القرن الثالث. لكنهم لم يُلتَفَت إليهم لا في رومة ولا في القسطنطينية أولاً. ثم تنبه يوستنيان الى الأمر فضمهم الى جماعات كان يقيم معها أحلافاً سياسية. ثم أصبحوا الأهم (بدءاً من أيام يوستنيان وخلفائه). وكان الغساسنة، مثل غيرهم قد قبلوا المسيحية. لكن الذي يجب أن نذكره – ولذلك فإننا نكرره – هو أن المسيحية، كان انتشارها حتى القرن الرابع بطيئاً. ولعلّ أحد الأسباب هو أن الخلافات اللاهوتية التي تعرضت لها المسيحية بدءاً من القرن الثاني ومطلع الثالث، عقّدت الأمور بالنسبة الى السكان، وللبدو خاصة. لكن

منذ القرن الخامس اشتد الحماس لنشر المسيحية واشتدت الرغبة في قبولها. يقول أسد رستم حول هذه القضية بالذات «ويتبارى المؤمنون، منذ منتصف القرن الخامس حتى الفتح الإسلامي، في ميدان الإنشاء فيحولون معابد جرش والقنوات وشقا وبصرى الحريري وأذرع الى كنائس. ويبني يوليانوس متروبوليت بصرى في السنة ٥١٢م كاتدرائية فخمة جليلة ويندفع سرجيوس أسقف مادبا في سبيل الإنشاء فيتم إنشاء كنيسة الرسل سنة ٥٧٨م. ويؤسس القس لاونديوس في ٦٠٣م كنيسة جديدة في مادبا ويكمل ما أنشأه سرجيوس في إليانه. ثم يلتفت الى صياغة (الدير في الآرامية) فيوفق الى إكمال كنيستها الكبيرة. ثم تنشأ الكنائس والأديار في كل مكان آخر في طول هذه الأبرشية العربية وعرضها».

ويجب أن نتذكر أن هذا أصبح ممكناً بسبب الثروة التي تدفقت على مساكن الغساسنة ومضاربهم والمدن التي كانت تحت نفوذهم بسبب التجارة اليمنية – المكية (القرشية). فقد حموا الطرق والقوافل، فأثروا واستطاعوا أن يقيموا هذه الكنائس الجميلة. هذا مع العلم أن الغساسنة غير معروف أنه كانت لهم عاصمة خاصة، إلا أن تكون الجابية نوعاً من المقر العسكري!

سادساً: مما يلفت بشكل واضح هو أن العرب الذين اعتنقوا المسيحية لم يكتب أساقفتهم لهم – وكان الكثيرون منهم عرباً أصلاً – كتباً لاهوتية مسيحية بالعربية. كان التبشير والوعظ يتمّان بالعربية طبعاً. لكن الأساقفة كانوا يدربون في مدارس تستعمل اللغة السريانية (في الغالب) أو اليونانية (في الأقسام الغربية من سورية فضلاً عن القسطنطينية وغيرها). ومن ثم فقد ظلّت المجادلات والمناقشات اللاهوتية تتمّ في هاتين اللغتين.

سابعاً: كان انتشار المسيحية في الأجزاء الشرقية من الجزيرة يعتمد على الدفع الذي كان يأتي من الحيرة. ومن هنا فإن المذهب النسطوري هو الذي ذاع في تلك الجهات – مع طرق الأودية ومن الديارات التي بنيت هناك. لكن المناطق الأخرى من الجزيرة فقد اختلفت سبل الانتشار فيها.

الهوامش

(١) كلمة قبط محرفة عن الكلمة المصرية القديمة (التي كانت تدوّن بالكِتابة الهيروغليفية) وتعني مصر. وقد استمر استعمالها بهذا المعنى حتى زمن متأخر. ومن هنا فقد أطلق اسم الكنيسة القبطية على الكنيسة المصرية لما انفصلت هذه عن الكنيسة الرسمية. هذه ظل رئيسها يسمى بطريرك الإسكندرية، وأصبح رئيس الكنيسة الوطنية يسمى بابا الإسكندرية إذ إن هذه الكنيسة كان لها اتباع في أثيوبيا وسواها من مناطق القرن الأفريقي. ولا يزال هذا هو اللقب الرسمي لرأس الكنيسة القبطية الأرثوذكسية (هناك فئات من الأقباط التحقت بالبابوية / الرومية وبالكنيسة الإنجيلية البروتستانتية. وهؤلاء هم الأقباط الكاثوليك والأقباط الإنجيليون على التوالي).

٤. في الجزيرة

قد يكون التحدث عن انتشار المسيحية في مصر وأرض الرافدين وبلاد الشام فيه شيء من الدقة، ولو أنه مشوب دوماً بالاختلاف اللاهوتي الذي يشوّه الخبر بسبب التشدد في المواقف. لكن فيما يتعلق بانتشار المسيحية في بلاد العرب، أي في الجزيرة بالذات، فالذي نملكه لا يعدو كونه نتفاً من المعلومات المغلفة بكثير من القصص أولاً، ثم بالتفسير الذي أدخله الكتّاب العرب فيما بعد على ما حسبوا أنهم اكتشفوا وجوده.

واذا تذكرنا أن ما نعرفه نحن عن أديان العرب قبل الإسلام، وثنية كانت أم موحِّدة أم بين بين، هو بحد ذاته قليل. فلا نستغرب أن تكون معرفتنا بانتشار المسيحية محدودة. فضلاً عن ذلك فهي تتفاوت في القلة أيضاً. لذلك، ورغبة منا في أن لا ندخل في متاهات، سنكتفي بوضع ما يمكن أن يعتبر حقائق أمام القارئ. ونذكر مع ذلك أن ما قد يعتبر حقائق اليوم قد يصبح أموراً تحتاج الى بحث في الغد.

أولاً: يبدو أن النسّاك قد أصبحوا فئة ذات وجود في أواسط القرن الرابع للميلاد وذلك في شبه جزيرة سينا. وخاصة في المثلث الذي تتكون أضلاعه من فلسطين ومصر ومِدْيان. وهذه المنطقة، مِدْيان، كانت تقع الى الشرق من خليج العقبة، وكان يجتازها الطريق التجاري بين مصر وسورية في جهة، وبين الحجاز في الجهة الثانية. وقد تكتل هؤلاء المتنسكون السينائيون حول جبل سِرْبال. وجذبت منطقتان بشكل خاص هؤلاء النساك إليهما وهما: أولاً، الأودية العميقة الخصبة والواقعة في خلفية مدينة الطور الحالية (رايتو)؛ وثانياً، وادي فيران (فاران). ولم يتعمد هؤلاء بناء أماكن للسكن بل استعملوا كل ثقب يمكن أن يعيش فيه رجل متنسك. وكانت مدينة فاران (فيران) محطة للقوافل وأفاد منها السكان هناك في تجمعاتهم وضمان حاجاتهم.

ثانياً: لم يكن هناك من يحمي هؤلاء النساك أو غيرهم من جميع أنواع الغارات والنهب والسلب. فالرومان انسحبوا في الواقع منذ القرن الثالث، والأنباط قضى الرومان على وجودهم فأصبحوا حتى هم بحاجة الى من يحميهم. ومن هنا فقد تعرضوا لجميع أنواع الغزو والقتل والنهب والتشريد بقدر كبير، حيث تحوي روزنامة الكنيسة على الكثير من أيام لذكر المذابح التي تعرض لها النساك.

ثالثاً: لما أخذ يوستنيان (٣٦٥-٥٢٧م) على عاتقه الاهتمام بالأمن اهتم بهذا الجزء من الإمبراطورية. فبنى قلعة في الجهة الشمالية من جبل موسى (وهي التي أصبحت دير القديسة كاترين اليوم). وقد كان يترتب على حامية هذه القلعة حماية الطرق التجارية والكنيسة والرهبان الذين كانوا من أتباع المذهب الخلقيدوني (أي القائلين بالطبيعتين). ومن هنا فقد انتقل عدد كبير من الرهبان الى جوار جبل موسى. ومعنى ما أمر به يوستنيان هو أن الرهبان الوحيدين الذين يمكن أن يظلوا في حمى الدولة وحمايتها في سيناء هم أتباع الكنيسة اليونانية (الخلقيدونية = الأرثوذكسية = أتباع الطبيعتين). أما المونوفيستية فقد استمر وجودها بين الرهبان العرب الذين ظلوا يقيمون في فاران (فيران) وأوديتها حتى بعد الفتوح العربية.

رابعاً: كانت مديان (مداين صالح أو الحجر اليوم) ذات واحة ثرية الماء كثيرة البساتين ومزارع النخيل، هي حوارة، وكانت المركز الرئيسي على الطريق التجاري الى البتراء ومعان. ويبدو أن أفخاذاً وبطوناً من قضاعة (وخاصة من جذام وجهينة) تأصلت سلطتها في المنطقة الممتدة من سورية الى مشارف الحجاز. ومع أن بعض هؤلاء كانوا قد اعتنقوا المسيحية، فإن المدينة لم يروَ عنها أنها احتضنت مسيحيين، مع أنهم قد يكونون زاروها أو مروا بها. أما مكة فقد عرفت بعض المسيحيين، ولعلهم كانوا من التجار، لكن المعروف أنهم لم يكونوا مكيين. والذي نعرفه أن بني غسان، الذين كانوا حلفاء بني أسد (القرشية) كان لهم موطىء قدم على مقربة من الكعبة، وكان رجالهم يقومون بالأعمال التي تتطلبها منهم المواسم الاقتصادية والاجتماعية. ويرى ترمنغهام أن بعض الرقيق المكي كان مسيحياً، وفي هذه الحالة يكونون من مسيحيّي بلاد الشام. وقد روى الأزرقي أن رجلاً اسمه باقوم (ولعل الأصل هو باقوميوس أو باخوميوس) كان بين الذين زخرفوا الكعبة لما أعيد بناؤها سنة ٦٠٨م.

خامساً: تكاد الروايات تجمع على أن حُجر بن عمرو (الملقب بآكل المُرار) والذي تولى الحكم من حول ٤٥٠ الى حول ٤٧٨م هو أول من أنشأ حلفاً من كندة وربيعة وسوى هذه من قبائل معد. وقد كان مركز كندة مكان اسمه غَمْر ذي كندة، الذي يقع على مسيرة يومين الى الشرق من مكة. وقد كانت القبيلة الرئيسة في كندة اعتنقت المسيحية. ويبدو أن الغالبية من قبيلة كلب دانت بالمسيحية. وكان هؤلاء مونوفيستيين يعاقبة مرتبطين ولو برباط واهٍ بأساقفة المضارب (التجمعات - البرامبولات). ومن القبيلة المذكورة يعرف التاريخ نائلة، زوج الخليفة عثمان. وكانت مونوفيستية يعقوبية. وقد كانت جماعة من الحلف الذي عرف بحلف تميم قد اعتنقت المسيحية. ومن الممكن إضافة أسماء أخرى مثل بني ايوب الى الجماعات المسيحية. لكن الذي يجب أن نذكره هو أن انتشار المسيحية في أواسط بلاد العرب، أي في

اليمامة، لم ينتج عنه مؤسسات على نحو ما كان عند بني تغلب المسيحيين.

سادساً: كانت الكنيسة النسطورية معروفة بنشاطها في التبشير بالمسيحية. يخيل إلينا أن أحد العوامل الباعثة على هذا النشاط هو المقاومة الشديدة العنيفة – مع الطرد – التي لقيتها هذه الكنيسة في الإمبراطورية وخارجها. على كل، فقد اتخذ النساطرة من الحيرة مركزاً لانطلاق حركتهم بقوة، ولو أن النساطرة من المقيمين الى الغرب من الفرات الأدنى من العرب لم يردوا هذا الى الحيرة، بل اعتبروها بعيدة عن آمالهم. على كل فقد اتبع النساطرة طرق التجارة الداخلية والساحلية. وأول إشارة لمبشر في الساحل الشرقي للخليج جاءت لمناسبة ذكر عبد يسوع (عَوْدِ يشوع). وهو عربي، وقد درس في المدرسة اللاهوتية في دير قونّي (فوني؟) الواقع على الضفة الغربية لدجلة. لكنه لم يوفق، ولم يحبه الناس خاصة لما رسم أسقفاً. فاعتزل وانسحب الى جزيرة في الخليج، وبشر هناك بالمسيحية. ثم اعتزل العمل هناك وعاد الى الحيرة حيث انشأ أول مجموعة نسطورية من الرهبان في المنطقة البابلية. هذه الأحداث تعود الى النصف الثاني من القرن الرابع.

سابعاً: نعرف أنه كان في شرق بلاد العرب والجزر الواقعة في الخليج كنائس نسطورية وأساقفة للعناية بالطوائف الموجودة هناك. فقد كان في البحرين أساقفة – ويومها كانت البحرين تطلق على المنطقة الساحلية الممتدة من القطيف الى الحسا (الأحساء). وقد أقام بعضهم في حَطّة (الخط). وكانت قطر أسقفية نسطورية. ومثل ذلك يقال عن جزيرة دارين وجزيرة سماهيج (بين البحرين وعُمان). وقد كان في عمان عدد كبير من المسيحيين. هذه أمثلة نقصد من ذكرها أن نظهر أن المسيحية انتشرت في شرق الجزيرة كما انتشرت في أماكن أخرى منها.

ومما يجب ذكره أن الخلفاء الراشدين تجنبوا، في أحوال كثيرة، فرض الجزية على المسيحيين العرب لأنهم عرب!

كانت لعرب الجنوب الغربي من الجزيرة حضارة متميزة بالنسبة الى بقية أنحاء الجزيرة، سواء من حيث النظم الإدارية أم التقدم الفني، في الري مثلاً (ومعه بناء السدود) أو الحياة الاجتماعية. ومن حيث أنها تقع على طريق تجارية برية وبحرية، فإن المنطقة مطموع فيها ممن له عناية بهذا الأمر.

وكان من عادة سكان المرتفعات هناك أن ينحدروا نحو البحر الأحمر ثم ينتقلوا في جماعات صغيرة ليستقروا في مرتفعات إثيوبيا (الحبشة). وقد استمر هذا الأمر قروناً، ولذلك تمكن هؤلاء من أن يحملوا معهم لغتهم السامية كما حملوا إنجازاتهم الحضارية المختلفة. ونشأ عن هذا كله دولة أكسوم (في القرن الأول الميلادي) التي أصبحت لها مطامع فرضت عليها، تحقيقاً لمطامعها، أن تهاجم دولتين: (مورو) على

نهر النيل (وهي عنصر إدارة وحضارة تمثل مزيجاً من المصرية والكوشية) واليمن المتداعي عبر البحر الأحمر.

وقد تم لأكسوم الاستيلاء على اليمن وجوارها في نهاية القرن الثالث تقريباً، وهذا ما حمل الملك أفيلاس (؟) أن سمى نفسه: «ملك أكسوم وحمير وسبا وريدان وسلحين». وقد بلغت هذه المملكة القمة أيام الملك عيزانا (٣٢٠- ٣٤٢م) وهو أول ملك مسيحي، لكنها أخذت بالضعف بعده مباشرة. فاستعادت اليمن وما إليها استقلالها. وكان الأسقف الذي سيم لأكسوم فيما بعد مرتبطاً بالإسكندرية، ومن هنا فقد كانت الكنيسة مونوفيستية. ومع ذلك، فقد كانت على علاقة لا بأس بها مع بزنطية. والكنيسة الأثيوبية كانت هي الأخرى مونوفيستية منذ القرن الخامس، ومع ذلك فإن هذه كانت مونوفيستية على الطريقة السورية لا الإسكندرانية.

كانت اليهودية حاضرة في جنوب غرب الجزيرة. وقد اعتنق ذو نواس، ملك حمير (٥٢٢ – ٥٢٥م) اليهودية كي يحارب بها المسيحية السياسية التي كانت تتمثل بأكسوم وخلفها الدولة البزنطية. وقد حارب ذو نواس المسيحية حرباً ضروساً فأزال جماعات مسيحية بأكملها من العاصمة ظفار ومن السواحل، ثم اتجه نحو نجران ليقوم باضطهاد منظم. وأحس بأن هجوماً أكسومياً على بلاده كان على وشك الانطلاق، ولعله حين عرف أن أكسوم تقوم بهذا بالتعاون مع بزنطية وبتأييدها، فأمر بقتل مسيحيّي نجران. وهذا أدى الى الإسراع في الهجوم على اليمن. ومع انتصار أكسوم فإن سيطرتها على اليمن لم تطل، إذ إن أبرهة (الحبشي) استولى على السلطة هناك معتبراً نفسه أنه تابع لأكسيوم ولو نظرياً. وهذه الأحداث وقعت في فترة كانت الحضارة اليمنية آخذة في الانحلال، ومعاصرة لانفجار سد مأرب وتفرق القوم أيدي سبأ.

والذي حمل المسيحية الى اليمن كانوا التجار المسيحيين. وقد بنيت الكنائس الأولى في المدن التجارية لسد حاجة المتعبدين. ومع ذلك فقد بدأ التبشير بالمسيحية (مع التجار وغيرهم) من أواسط القرن الثاني.

لكن الرجل الذي قام بالتبشير على أنه عمله أصلاً هو ثيوفيلوس من جزيرة سوقطرة، الذي أرسله كونسطانطينوس الثاني الإمبراطور البزنطي (٣٣٧- ٣٦١م). وكانت سوقطرة، المحطة التجارية البحرية الهامة، قد وصلتها المسيحية قبل ذلك.

وحول السنة ٣٤٠م كان اليمنيون قد أخرجوا الأكسوميين من بلدهم على ما رأينا، في الدور الأول. وتوالت البعثات، الى ان انتهى الأمر الى ما ذكرنا من قتل مسيحيي نجران. ثم احتلال أكسوم اليمن ثم ثورة أبرهة.

والذي عليه المؤرخون هو أن النسطورية كان لها في مدن اليمن وموانئه نصيب.

لكن ليس ما يدل على أنها استطاعت أن تضع أقدامها في الريف وفي الداخل.

ونجران، بحكم اتصالها التجاري مع العراق عبر وادي الدواسر واليمامة والبحرين كانت على اتصال وثيق بالحضارة والثقافة العربية - السريانية. ومن هنا جاءها النشاط. أما اليمن فقد كانت مسيحيتها مدعاة لعدم الاهتمام لأنها كانت تعتمد على دولة فارطة هي أكسوم، ودولة مشغولة بقتال هو الى النزف أقرب وهي بزنطية في موقفها من فارس.

يجدر بنا أن نلقي نظرة عامة على العرب والمسيحية، أو المسيحية والعرب، حول السنة ٦٠٠م. وسنرى أن مثل هذه النظرة العامة ستضع بين أيدينا بضعة أمور حرية بالنظر.

أولها: وقد أشرنا الى هذا من قبل، هو أن هولاء العرب، ولعلنا نقصد الأعراب منهم، لم يعنوا بأن يتحدثوا عن إيمانهم بالعربية - كتابة ودرساً.

وثانيها: يبدو أن المسيحية بما أثارته من قضايا لاهوتية وما الى ذلك، لم تصل الى أعماق الحياة بالذات. ومن هنا فإن الإنجيل، من حيث أنه كتاب المسيحية الأصلي، ظل في الهامش بالنسبة الى العرب المتبدّين.

ثالثها: عندما نحاول تفسير هذه الظاهرة نقع على قضية هامة وهي أن الحياة العربية كانت تتمتع بقوة خارقة لمقاومة التبدل والتغيير، ومن هنا فلم يكن الإنجيل يتحدى العرب حيث يثيرهم. فالشعور الجماعي العربي- قبلياً كان أم أوسع قليلاً - كان يحتوي من عناصر الترابط اجتماعياً وخلقياً ومثالياً ما لم يكن من اليسير اختراقه، وخاصة أن الآراء التي حملتها المسيحية الى القوم كانت بعيدة عن تصورهم، كي لا نقول إدراكهم.

رابعها: لعلّ العرب، والبدو والقبائل منهم بشكل خاص، ربطوا بين المسيحية والدولة البزنطية. واعتبروا، من ثم، أن قبول المسيحية معناه الولاء للدولة. وهو أمر لم يكونوا يحبونه. وأهم من هذا، في رأينا، أنهم لم يريدوا أن يحبوه.

خامسها: يجب أن نذكر أنه بالنسبة الى العرب كانت المسيحية ديناً يختلف بالمرة عما ألفوه وسمعوا به. إذ من الصعب على من كان يعبد القمر أو الشمس أو غير ذلك أن ينتقل رأساً الى قانون الإيمان النيقاوي. والذي نراه هو لو أن الآناجيل ترجمت الى العربية في هذه الفترة (أي في القرنين الرابع أو الخامس) لكان الاتجاه العام للمسيحية وللفكر المسيحي تبدل، وكانت المسيحية أصبحت قضية أساسية للعرب، ولم تظل هامشية.

ولعل ما حدث في أرمينيا يؤيد ما نذهب اليه، ونحن نتحدث عنه هنا لمحض المقارنة والمقابلة. فقد اعتنق ثيرداتس الثالث، ملك أرمينيا (٢٦١-٣١٤م) المسيحية سنة ٣٠١م وأعلن أن المسيحية هي دين شعبه. وقد تم هذا بعد تردد من جهة الملك،

وبعد أن اضطهد الملك نفسه المبشر المهم الأرمني بالمسيحية وهو غريغور، وهو الذي سيم أسقفاً (٣٠٢م). وهذا أنشأ في السنة التالية أتشميادزين التي ما تزال حتى يوم الناس هذا مركز الكاثوليكوس، رأس الكنيسة الأرمنية.

ولأن الأرمن لم يعرفوا أياً من اللغتين التي كانت المسيحية تفسر بهما، السريانية أو اليونانية، فقد قامت مشكلة لغوية مهمة، أي ترجمة التعاليم المسيحية. فقام بحل المشكلة اثنان من رجال الكنيسة الكبار وهما الأسقف القديس إسحاق الأول (٣٨٧-٤٣٩م) والقديس مزروب (٣٥٤-٤٤٠م). فقد نقلا الكتاب المقدس الى اللغة الأرمنية، وفضلاً عن ذلك فقد اخترعا (وضعا) ألفباء خاصة لعملهما وللشعب، مكونة من ستة وثلاثين حرفاً.

وثمة مثل آخر وهو انتشار المسيحية بين سكان جورجيا (الكرج) الذي تم على يد فتاة من الرقيق (تو ٣٣٥م). وقد اعتنق المسيحية ملك جورجيا وملكتها حول سنة (٣٣٠م) واعتبرا المسيحية دين الدولة الرسمي. وقد وضعت الكنيسة الجورجية (الكرجية) فيما بعد ألفباء خاصة بلغة البلاد، وقامت بترجمة الكتاب المقدس.

المثلان اللذان تقدمنا بهما كان المقصود منهما تبيان الصلة الوثيقة بين وجود ترجمة للكتاب المقدس (وعلى الأقل للعهد الجديد)، يستعملها أتباع الكنيسة بلغتهم الخاصة، وتوثق المسيحية بين أفراد الشعب.

على كل، فقد آن الأوان أن نشير الى انتشار المسيحية في مناطق مجاورة لكنائس معينة، أو حتى في مناطق بعيدة عن المركز الأساسي.

ولعل من المناسب أن نعود الى الكنيسة المصرية الإسكندرية القبطية التي كانت من أوائل الكنائس التي زودت المسيحية بمبشرين عملوا خارج النطاق الكنسي القريب. فقد كانت برقة (ليبيا) تتجه نحو مصر كمصدر للحياة الثقافية لمدة طويلة قبل المسيحية. وكان من الطبيعي أن تتجه الإسكندرية نحو برقة، وأن تتجه برقة نحو الإسكندرية للتفقه في المسيحية - الأولى تعطي والثانية تأخذ. وأصبحت برقة تعتبر منذ مجمع نيقية (٣٢٥م) ولاية كنسية تابعة للإسكندرية. وقد كان أول أسقف معروف (سينيسيوس ٣٧٠-٤١٤م) من طلاب مدرسة الإسكندرية اللاهوتية والمتحف - المعهد الوثني. وقد رسمه بطريرك الإسكندرية أسقفاً سنة ٤١٠م.

وكان من الطبيعي أن يكون للمسيحية توجه من مصر نحو الجنوب عبر الطريق الذي يمر بسيين (أسوان الحالية). ولا شك في أن الاضطهاد الذي عرفه المسيحيون في مصر، والذي حمل كثيرين على الهرب جنوباً الى النوبة، وكذلك فإن الرهبان والنساك، الذين كثر عددهم في مصر في القرن الرابع ثم فيما بعد، زود الحركة التبشيرية بجنود للمسيح. وقد كانت العلاقات جيدة بين رهبنة القديس شنوتي

والقبائل النوبية. ومع أن يوستنيين حاول دعم الخلقيدونية هناك، فإن الكنيسة القبطية المونوفيستية هي التي انتصرت بسبب الدعم الذي تلقته من الإمبراطورة ثيودورا، على نحو ما أصاب الجماعة نفسها في بلاد الشام وأرض الرافدين. فسيم لونغينوس أسقفاً لنبانا - عاصمة المملكة النوبية.

ومن الإسكندرية اتجه المبشرون نحو إثيوبيا (الحبشة) التي ظلت وثنية حتى القرن الرابع الميلادي. وقد بدأ العمل هناك أخوان هما فروفتيوس وإيدسيوس، وهما إسكندرانيان كانا يقيمان في صور. فقد كانا على ظهر سفينة تجارية في طريقها الى الهند، لكن السفينة تحطمت في البحر الأحمر في منطقة قريبة من إثيوبيا. وقد أنقذهما أفراد من حاشية الملك الأثيوبي الذي ضمهما الى حاشيته. وكان أحدهما مؤدب ولي العهد (إزانا) فلما تولى هذا العرش، وكان قد عرف عن المسيحية من مؤدبه، اعتنقها مع أفراد الحاشية، واعتبرت المسيحية دين الدولة.

ولما ذهب فروفتيوس الى الإسكندرية لينقل النبأ السار للبطريرك، وليطلب منه أن يسوم أسقفاً خاصاً لإثيوبيا، رسمه البطريرك هو نفسه أسقفاً باسم أنبا سلامة. وعاد الأسقف الى أكسوم حول سنة ٣٥٦م مصحوباً بعدد من الشيوخ والشمامسة كي يعينوه في عمله وفي التبشير بالمسيحية في المملكة. وقد استقر الإثيوبيون في تبعيّتهم للكنيسة القبطية. وظلوا على ذلك الى قبل بضع سنوات لما استقلت كنيستهم عن بابا الإسكندرية.

وما دمنا تحدثنا عن التبشير بالمسيحية في الفترات الأولى وخارج النطاق العربي، فإننا نرى أن نضيف هنا شيئاً عن المسيحية في الهند وسريلانكة (سيلان). فمسيحيو الهند يعزون انتشار المسيحية في بلادهم الى القديس توما الذي استشهد في بلادهم حول سنة ٧٢م. وليس في أي من المصادر القديمة أو الوثائق المعاصرة ما يؤيد هذا. ثم يصمت التاريخ عن هذه الجماعة المسيحية حتى أواسط القرن الرابع. فقد ورد عندها (٣٤٥م) أن جماعة من المسيحيين فرت من بلاد الفرس هرباً من الاضطهاد وكان على رأسها تاجر وأسقف. أتباع هذه الجماعة ما يزالون حتى اليوم يكوّنون فرقة خاصة، ولا يتزاوجون مع غيرهم من المسيحيين. والذي نعرفه هو أن عدداً كبيراً من المسيحيين كان يقيم في جنوب الهند وسيلان في أوائل القرن السادس. وكانت كنيستهم يومها ذات صلة بكنائس أرض الرافدين، لكنها لم تكن على اتصال بالمراكز المسيحية الكبيرة.

وكان هناك عاملان حدّا من انتشار المسيحية في الهند: نظام الطبقات، فقد ظل المسيحيون من الطبقات الاجتماعية العليا. أما العامل الثاني فهو أن الكتاب المقدس لم ينقل الى اللغة المحلية. وظلت الكنيسة تستعمل النص السرياني الى القرن التاسع عشر. أما في سريلانكة فقد زالت المسيحية بالمرة. وما هو قائم الآن في الجزيرة من كنائس فمردّه الى التبشير الذي قام به الغربيون حديثاً.

الفصل الخامس

من دولة الخلافة الى الحروب الصليبية

١- وأخيراً

لم يكف المسيحية والمسيحيين الخلاف العنيف والمؤذي بين أتباع الطبيعتين والقائلين بالطبيعة الواحدة، الذي بلغ الغاية في القرن السادس، فجاء القرن السابع، وفي أيام الإمبراطور هرقل (٦١٠ - ٦٤١م) ومعه فكرة جديدة. المسيح له طبيعتان، لكن له مشيئة واحدة. ومذهب المشيئة الواحدة (المونوتيلية) كان القصد منه، كما رأى الإمبراطور، وضع حد للخلاف القائم بين المونوفيستيين والخلقيدونيين. ذلك بأن الإمبراطور، الذي كان يرى صلة وثيقة بين وحدة الإمبراطورية السياسية ووحدة الكنيسة (المعتقد) فيها، كان يريد أن ينتهي الأمر بالفريقين الى قبول هذا الرأي، وبذلك يعود الوفاق الى الكنيسة وينعكس هذا على وحدة الإمبراطورية. والطريف ان بابا رومة هونوريوس الأول (٦٢٥-٦٣٨م) قبل الفكرة. لكن اثنين من كبار لاهوتيي العصر رفضاها: صفرونيوس، بطريرك القدس العربي، الدمشقي المولد (٦٣٤ - ٦٣٨ م) ومكسيموس المعترف (٥٨٠-٦٦٢م) الذي لم يشغل منصباً دينياً. وقد نفي هذا الى شبه جزيرة القرم ومات في المنفى. أما صفرونيوس فقد كان أصبح، اعتباراً من مطلع سنة ٦٣٨م تابعاً، هو والبطريركية، للدولة العربية الإسلامية الجديدة، التي كانت قد استولت على جزء كبير من بلاد الشام بعد معركة اليرموك (٦٣٦م). والمهم على كل حال هو أن مجمع القسطنطينية المسكوني (السادس) الذي عقد سنتي ٦٨٠ و٦٨١م حرّم هذا الرأي أي المشيئة الواحدة.

والفئة الوحيدة التي يبدو أنها قبلتها، ولو على شك أو ضعف، هي الكنيسة المارونية، التي كانت قد قامت مستقلة في شمال لبنان.

ومع ذلك فلم تكن هذه آخر ما بدر من الخلاف في الكنيسة. وسنعود الى ذلك في مكانه.

والذي نود أن نؤكده في هذه المناسبة أن الكنيسة البزنطية، أو بطريركية القسطنطينية كما أصبح من الواجب الإشارة اليها الآن، بعد ان احتل العرب بلاد الشام ومصر، وأصبحت ثلاث من البطريركيات الشرقية تابعة لدولة الخلافة، صارت كنيسة ذات لغة واحدة هي اليونانية. وهذه كانت لغة الدولة. وأصبح أي خلاف بين القسطنطينية وروما، أو أي اتفاق، يجري بمعزل عن البطريركيات الثلاث الأخرى.

أما في هذه البطريركيات فقد استمر الخلاف بعض الشيء. وقد مر بنا أن الكنيسة (البطريركية) القبطية أطلقت على الذين ظلوا من أتباع الخلقيدونية لقب الملكيين - أي أتباع الملك. وهم في الغالب بقية من مواطنين يونان وجنود وأصحاب مناصب رسمية، دينية أو مدنية وبعض تجار. وقد قلّد اليعاقبة الأقباط فأطلقوا على أتباع الخلقيدونية لقب الملكيين. وسمي هؤلاء بالروم بسبب استعمالهم اللغة اليونانية في الكنيسة، كما أطلق عليه اسم الأرثوذكس. ولعلهم هم الذين حسبوا أنفسهم أتباع الطريق المستقيم، وهذا معنى كلمة أرثوذكسي.

كي نمثل على ما يمكن أن يسمى التقسيم الداخلي في الكنيسة نشير الى أنه في مصر أصبح هناك اثنتا عشرة فرقة من المونوفيستيين فقط. ولكن ما هي الفروق بينها؟ من يمكنه أن يتكهن؟

مرت بنا، في أماكن عديدة كلمات لم يكن من المتيسر التوقف عندها لتفسيرها من قبل لأن دلالتها الوظيفية لم تكن واضحة في أول الأمر.

ففي القرن الخامس أصبحت المناصب الكنسية الكبرى على شيء من الوضوح.

ولنعد قليلاً الى القرن الرابع، ولنلق نظرة على بطريركية أنطاكية، التي كانت جميع الكنائس تتبعها، والمقصود الكنائس في بلاد الشام. فقد كانت سبع أبرشيات تابعة لها وهي: فلسطين (ومركزها قيسارية أو قيصرية) وفينيقية (صور) والولاية العربية (بُصرى) وسورية الولاية (أنطاكية) وما بين النهرين (الرها - إديسًا) وقيلقية (طرسوس) وإسّورية (سلفكية).

لكن،لأن التقسيم الإداري الكنسي كان يتبع التقسيم الإداري المدني أو الإمبراطوري، فقد أصبح الوضع في الربع الأول من القرن الخامس على الشكل التالي: فلسطين، ثلاث أبرشيات ومراكزها هي قيسارية (أو قيصرية) وبيسان والبتراء؛ وقيلقية: أبرشيتان مركزاهما طرسوس وعين زربة؛ وفينيقية: أبرشيتان ومركزاهما صور ودمشق؛ وسورية: أبرشيتان مركزهما أنطاكية ودولك على الفرات وأضيفت أبرشية ثالثة لسورية كان مركزها أبامية (أو أفامية).

ولكن، حتى هذا التقسيم لم يستقر. فقد غير يوستنيان الترتيب. وقد كانت القدس أصبحت بطريركية مستقلة (منذ سنة ٤٥١ م) فكانت بطريركية أنطاكية تتكون من ١٢ متروبوليتية ولكل متروبوليتية عدد من الأبرشيات يتبعها. وقد بلغ عدد أبرشيات بطريركية أنطاكية ١٥٣ أبرشية. وقد تم لبطريركية الإسكندرية أن كان يتبعها متروبوليات (وهي مصر السفلى ومصر الوسطى والصعيد ومصر الدلتا وليبيا والقيروان). وكان فيها ١٩٢ أسقفية. فضلاً عن ذلك فقد كانت ثلاث جاثليقيات تتبع هذه البطريركية هي النوبة والحبشة والسودان.

أما البطريركية المقدسية (واسمها الرسمي الأوروشليمية) فقد كان فيها ستون أسقفاً فقط.

وكان المتروبوليت هو المسؤول عن الوحدة التابعة له وسمّيت الأبرشية إدارياً. وكان انتخاب الأساقفة يقوم به الشعب والسلطة الروحية مجتمعين؛ وحدد يوستنيان الأمر فجعله في يد الوجهاء والإكليروس. وأنشأ هذا الإمبراطور محاكم خصوصية لمحاكمة الأساقفة. كما رسم الأنظمة الطقسية وما يتعلق بالخدمة في القداس، وذلك بأنه رتب الموجود ووحده وأضاف إليه. وإذا تذكرنا أن يوستنيان هو الذي جمع المدونة (القانونية) المعروفة باسمه، وأنه جمع فيها، مع التنسيق، كل ما صدر من القوانين خلال ألف السنة السابقة لحكمه (٥٢٧ ـ ٥٦٥ م) لا نستغرب أن يكون أدخل التنظيم الكنسي في جدول أعماله القانونية (تنظيم الإكليروس جاء في القانون ١٢٣ وشمل القانون ١٣٣ تنظيم الأديرة).

وفي المناطق نسطورية الكنيسة كان هناك منصب المافريان الذي كان ينوب عن البطريرك في رقعة واسعة.

وفيما أباطرة بزنطية يعنون بالخصومات الدينية وباستعادة الإمبراطورية في الغرب (يوستينان) والمصادمة العنيفة مع الدولة الفارسية، حتى أن الساسانيين استطاعوا أن يحتلوا بلاد الشام وقسماً من مصر ويهدموا الكثير من المنشآت المهمة ـ فيما كان أباطرة بزنطية وملوك ساسان يقتتلون فيما بينهم ـ كانت دولة جديدة فتية قوية تنمو وتنتظم إلي الجنوب منهما. وفي سنة ٦٤١ م كانت هذه الدولة قد استولت على بلاد الشام ومصر منتزعة إياهما من بزنطية، كما كانت قد احتلت أرض الرافدين وما إلى الشرق منها، حيث قضت على الدولة الساسانية.

وقد كان جاء دور دولة الخلافة.

٢. المسيحيون في دولة الخلافة

الكنيسة القبطية

كانت الفتوح العربية الإسلامية التي تمت إلى أيام عمر بن الخطاب سريعة يسيرة نهائية. وقد واجه القواد الفاتحون، الكبار منهم والصغار، مشكلات بالنسبة إلى الفتوح، وخاصة المدن، فيما يتعلق بالسكان. وحري بالذكر أن المنظومات الفقهية (الشرعية) الإسلامية التي تحدد موقف الفاتحين من سكان هذه المدن لم تكن قد عرفت يومها. إذ إن هذه لم تنتظم أمورها إلاّ حول منتصف القرن الثاني/القرن الثامن (رضوان السيد) أي بعد مرور ما يقرب من قرن على الفتوح الأولى الكبيرة التي قضت على الدولة الفارسية في الجهة الواحدة، وانتزعت بلاد الشام ومصر وليبيا من الدولة البزنطية.

ونحن عندما نعود إلى كتاب البلاذري «فتوح البلدان» لنتابع أخباره عن الفتوح نقرأ خبر المعاهدات والعهدات التي كتبها القواد، كبارهم وصغارهم، لمن اعتبروهم زعماء المدن أو وجهاءها، نجد أن أمرين يكادان يغلبان على مادة المعاهدات: أن يدفع أهل الكتاب الجزية وأن يعهد إلى الجيوش العربية الإسلامية حماية هؤلاء القوم. صحيح أن بعض هذه المعاهدات اشترط فيها أن تقدم المدينة للجنود بضعة أنواع من المواد الغذائية، ولكن لم تشترط كل معاهدة مثل هذا الأمر. وأكثر معاهدات الصلح هذه فيها شرط أن لا يدل السكان العدو على مقاتل المسلمين.

ولعلّ أشهر نص لمعاهدة أو عهدة عُهِدَ بها لمسؤول عن مدينة هي التي كتبها عمر بن الخطاب لما تسلم بيت المقدس من بطريركها صفرونيوس. ولا شك أن وجود الخليفة بنفسه، وقيمة المدينة وأهميتها ومكانة صفرونيوس في نفس الخليفة، كانت عوامل جعلت من هذه المعاهدة وثيقة متميزة (هذا، إذا صح النص كما ورد).

وكان في بعض هذه الوثائق الصلحية تعيين وجوب دفع الخراج. لكن الخراج كان على الأرض، وهو في الواقع، استمرار لما كان معمولاً به في جهات الإمبراطوريتين المختلفة، وكانت أسسه متباينة. والجزية التي أدخلت في كل وثيقة صلح هي الشيء الوحيد الذي نُصّ عليه في القرآن الكريم.

وهنا تعرض لنا مشكلة. كيف تصرف الحكام العرب المسلمون مع المسيحيين

الذين كانوا في ذلك الوقت الأكثرية الغالبة من السكان (الوثنية أو المجوسية كانت نسبياً قليلة الوجود، وخاصة في المحيط العربي الذي نحن معنيون به.)

ولنضع، قبل الانتقال إلى التحدث عن المشكلة وحلولها، أمامنا بضع ملحوظات لعلها تكون مفيدة لنا في تعبيد الطريق.

أولاً: كان الجنود العرب المسلمون الذين قاموا بفتح بلاد الشام ومصر وأرض الرافدين (وما وراءها) يعرفون المسيحيّة والمسيحيين. فقد كان لأهل الأوائل بالأواخر اتصال في مراكز التجارة في أرض الرافدين وبلاد الشام ومصر، إذ كانوا هم تجار المنطقة. وكان التجار العرب قبل الإسلام وفي أيام الرسول (ص) يعرفون المسيحيين الغساسنة وغيرهم من العرب في الشام، وبني تغلب وسواهم في أرض الرافدين. بل يجب أن نذكر أن المسيحيّة كانت قد وصلت إلى بقاع كثيرة متباعدة متنائية في بلاد العرب - في اليمن وفي كندة وفي شرق الجزيرة.

ثانياً: لم تكن ثمة تجمعات مسيحيّة كبيرة قوية (باستثناء اليمن) في بلاد العرب، وخاصة في مكة أو المدينة، كما كان لليهود في المدينة وسواها. لذلك لم يحدث أن وقف المسلمون في الجزيرة من مجموعة عربية مسيحيّة قوية منظمة، كالذي حدث مع يهود المدينة خاصة. إذ انتهى الأمر إلى التخاصم الفعلي والاقتتال، وكان أن انتصر المسلمون وأجلى النبي (ص) اليهود عن المنطقة. لذلك كانت الإشارات القرآنية إلى المسيحيين قليلة وهادئة.

ثالثاً: لما بدأ العرب المسلمون بالفتوح، وحتى بعد أن نجحوا في الاستيلاء على البلاد الواسعة، لم تكن قد تكونت عندهم سياسة واضحة تبين لهم سبل التعامل مع أهل البلاد المفتوحة. فقد جاءت الفتوح أسرع مما تصوروا. وحتى بعد الفتح، وخلال العقود الأولى، لم يكن ثمة خط واضح بيّن يمكن أن يتبع. ومن هنا جاء الاجتهاد الشخصي أولاً والأوامر الخاصة ثانياً.

رابعاً: لم يكن واضحاً عند المسلمين - قواداً وحكاماً وإداريين ومسؤولين كباراً وصغاراً - فكرة واضحة تماماً عن معنى أهل الكتاب. هل يقتصر الأمر على المسيحيين واليهود؟ هل الصابئة من أهل الكتاب؟ وما موضع المجوس من ذلك؟ ثم من هو الذي يقرر هذا الأمر وسواه من المشكلات الكثيرة المتعلقة بهذه الطوائف المختلفة والجماعات المتنوعة!

خامساً: كان جميع المسيحيين - مونوفيستيين وأصحاب الطبيعتين والنساطرة وأتباع المشيئة الواحدة وغيرهم - بالنسبة إلى المسلمين الذين فتحوا البلاد وأخذوا أنفسهم بإدارتها - كان جميع هؤلاء مسيحيين فقط! وأنّى لهم أن يعرفوا غير ذلك؟ فالمسلمون كانوا بعد فئة واحدة، ولذلك فقد اعتبروا جميع المسحيين شيئاً واحداً.

ونحن نجزم بأن المسلمين ـ والمفكرين منهم خاصة ـ لم يخطر ببالهم أن يتعرفوا إلى الفرق المسيحيّة المختلفة والمذاهب المتنوعة، إلا بعد أن عرف الإسلام فئات ومذاهب متنوعة. وحتى هذه المعرفة، التي كانت متعة فكرية في غالب الأحوال، لم تؤثر أبداً على النواحي الإدارية والعلاقات الإجرائية.

سادساً: لا شك أن القواد الذين تولوا فتح البلاد، والحكام الذين عهد إليهم بإدارتها فيما بعد، تنبهوا إلى هجرة جماعات مسيحيّة مع هرقل أو في أعقابه إلى بلاد الروم. ولست أشك في أنهم حسبوا أن هذا الانسحاب كان يعود إلى أن هؤلاء قد يختلفون عن الذين بقوا في الريف والذين ظلوا في المدن في النظرة إلى الآراء المسيحيّة، ولو أنهم كانوا يرون أن الباقين في البلاد، وخاصة سكان البلدات الصغيرة والقرى والمزارع (أي الريف بأوسع معانيه) كانت لغتهم إما سريانية أو عربية، أو أن البعض كان يستعمل اللغتين. لكنهم لم يربطوا بين هذا الاختلاف اللغوي والاختلاف المذهبي بين الفريقين المسيحيين.

سابعاً: كانت فئات من سكان مصر وبلاد الشام خاصة قد وقفت الى جانب الفاتحين. هؤلاء، كما نعرف نحن، كانوا من المونوفيستيين الذين قاسوا الأمرّين على أيدي البزنطيين، لذلك اعتبروا أن مجيء هذا الجيش الجديد فيه خلاص لهم وتحرير من هذا النير القاسي. وهولاء كانوا، فضلاً عن معاناتهم التي أشرنا إليها مراراً، في أغلبهم عرباً أو قريبين من العرب. فكان ثمة ما يجمع بين الفريقين من وحدة العنصر واللغة أو القرابة في الأمرين. الغساسنة وأقباط مصر يمثلون الغاية في التعاون.

ثامناً: روعيت قضية العنصرية العربية في المعاملة مع المسيحيين العرب. فقد اعتبرت الجزية التي دفعتها تغلب كأنها صدقة أو زكاة، حتى لا يكون العرب كالأجانب في دولة الخلافة.

تاسعاً: ولنتذكر أخيراً أنه عندما ينعدم الأساس الواضح للمعاملة من قبل السلطة للتابعين لها، فإن الأمزجة الشخصية تؤثر في نوع المعاملة التي يلقاها الأتباع في الدولة - ويتم هذا بقطع النظر عن الناحية الدينية. فقد روي أنه لما نقصت واردات الجزية بسبب اعتناق أهل الكتاب الإسلام، قرر أولو الأمر الإبقاء على دفع الجزية حتى لمن انتقل الى الدين الجديد، حتى جاء عمر بن عبدالعزيز (٩٩ - ١٠١ هـ/ ٧١٧ - ٧٢٠م) فألغى هذا الأمر، ورفع الجزية عن عاتق الذين اعتنقوا الإسلام. وروي أن البعض من المسيحيين أخذ نفسه بلبس الإسكيم (وهو ثوب الرهبنة أو التنسك) كي يتهرب من دفع الجزية. فالجزية كان يدفعها الرجال القادرون فقط وأعفي منها أصلاً النساء والصغار ورجال الدين. لذلك أمر البعض بأن تستوفى الجزية من أولئك الذين يلجأون الى الثوب ليتخلصوا من دفع الجزية.

عاشراً: وأخيراً، فعندما كان يخطر لصاحب سلطان، بقطع النظر عن منزلته في السلطنة، أن يصادر أملاك أهل الكتاب ليفيد منها - وغالباً لم تكن الإفادة تتجه نحو مصلحة عامة - فإننا واجدون أنه، في أحيان كثيرة، كانت المصادرات وما اليها تقع على المسلمين كما تقع على أهل الكتاب.

المسيحيون في دولة الخلافة

نود الآن أن نتحدث عن أوضاع المسيحيين في دولة الخلافة، وسنتبع في هذا الأمر ترتيباً جغرافياً بادئين من مصر ثم شرقاً نحو بلاد الشام ومنها الى أرض الرافدين.

كان الفتح العربي الاسلامي بالنسبة الى المنطقة بأجمعها تبديلاً سريعاً جداً. ومن هنا فالتحدث عنه وعن الدولة الجديدة التي قامت في المنطقة وما تلا ذلك هو حديث يختلف عن غيره مما يمكن أن يروى عن فتوح سابقة أو لاحقة وعما ترتب عليها من الآثار القريبة والبعيدة.

تم للعرب القادمين فتح مصر تماماً سنة (١٩ هـ/ ٦٤٢م) وذلك لما سلّمت حامية الإسكندرية. والذي كان يدور في البلاد في الفترة التي سبقت هذا الفتح هو اضطهاد قاس للأقباط على أيدي الملكيين - أي المونوفيستيين على أيدي أصحاب الطبيعتين أو الذين قبلوا حتى بفكرة المشيئة الواحدة، وهم الذين أيدتهم الدولة البزنطية ونصروها. ومن ثم فإن الوضع الجديد كان فيه انتصار من ناحية الأقباط للقوة القادمة (ولو أنه كان بادىء الأمر انتصاراً صامتاً أو كما نسميه اليوم حيادياً). في مقابل ذلك كان خروج عدد كبير من المسيحيين الروم الذين غادروا البلاد تحسباً. ولما استقرت الأمور وكانت أخبار العهدة العمرية المقدسية قد تسربت الى الأقباط المونوفيستيين لقي الأقباط من الحكم الجديد ما شعروا معه بكثير من الحرية. فقد فرض الحكام الجدد على المسيحيين نوعين من الضرائب: الواحدة كان الخراج عن الأرض، وهذا كان يختلف من قطر الى قطر، لأنه اتبع فيه، على الأقل أول الأمر، ما كان مألوفاً في البلد (أو حتى في جزء منه دون الأجزاء الأخرى) من قبل. أما النوع الثاني فهو الجزية، وهي ضريبة اختلفت قيمتها أيضاً باختلاف المكان والزمان، لكنها كانت تفرض على الرجال القادرين دون النساء والأطفال ورجال الدين. وقد مر بنا من قبل تفسير عام لهذه الضريبة، وهذا كاف.

كان بنيامين البطريرك القبطي قد قضى عشر سنوات وهو لاجئ متخف خشية أن يقبض عليه. فأعيد الآن الى مركزه، وأصبح بإمكانه أن يقوم بواجباته الدينية على خير ما يريد. واستطاع ان يحصل على بعض الكنائس، التي تركها الخارجون، فيضمها الى كنائس البطريركية. لعل بعضها قد كان صودر منها قليلاً.

ويمكن حصر الفوائد التي جنتها الكنيسة القبطية من الفتح والدولة الجديدة التي قامت في أعقابه، في أمور أربعة هي:

أولاً: الحرية الدينية المذهبية. فقد كان جميع المسيحيين، بقطع النظر عن الانتماءات التي كانت لكل فريق منهم، يُنظر اليهم نظرة واحدة. وكان الأقباط هم الرابحون لأنهم عادوا الى نشاطهم الطبيعي.

ثانياً: استعادة بعض الكنائس كما ذكرنا.

ثالثاً: خلت وظائف حكومية من اليونان (الروم) الذين كانوا يشغلونها لأنهم خرجوا من البلاد. ولأن العرب الحكام كان يهمهم أن تستمر الإدارة على نحو سهل يسير وأن تجمع الضرائب بغض النظر عن أي اعتبار فيما يخص العاملين في ذلك، فقد فتحت أبواب العمل امام القادرين والراغبين. ولعل من الطريف أن يذكر هنا أن الإدارة العربية الإسلامية الجديدة احتفظت بموظفين ثلاثة من اليونان في مراكز إدارة كبيرة: حاكم مصر السفلى وحاكم منطقة الفيوم وحاكم الريف الغربي. هذا، مع العلم ان الأقباط كانوا ينزعجون منهم لأنهم من أعوان الحكم الهرقلي. أما الموظفون المحليون والجباة والحكام الإقليميون فقد أصبحوا جميعاً من الأقباط حيث أن اللغة القبطية أصبحت اللغة الرئيسة للإدارة، فحلت محل اليونانية تدريجاً وظلت هناك حتى أخذت اللغة العربية تحتل مكانتها الطبيعية، لغة رسمية للدولة بدءاً من أيام عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦ هـ/ ٦٨٥- ٧٠٥م) وكان في هذا تعزيز للغة القبطية.

رابعاً: عاد الى الثقافة القبطية نشاطها وأخذت تملأ الفراغ الذي نتج عن الخروج البزنطي المفاجئ وما خلّفه من نقص في المجالات المختلفة. وجدير بالذكر انه اعتباراً من فرض العربية لغة رسمية للبلاد (٨٦ هـ/٧٠٥م) عني الأقباط بتعلمها واستعمالها. وقد ظلت اللغة القبطية لغة التخاطب في مصر الى القرن الثالث عشر، لكنها اختفت بعد ذلك لتنزوي في الكنيسة لغة للطقوس الدينية.

نحن لا نؤرخ لتطور مصر في رعاية دولة الخلافة المركزية أو الدويلات التي قامت في أحضانها أو رغماً عنها. لكن الذي نود أن نذكره هنا أن الواردات الرسمية - الضرائب وما يتبعها - التي كانت تجمع من مصر تناقصت قيمتها قبل أن تنظم الأمور. ومن هنا فرضت إتاوات جديدة أو ضوعفت القديمة، الأمر الذي أدى الى قيام ثورات مصرية خمس بين سنتي ٧٣٩ و٧٧٣م. وكان سبب هذه الثورات الظلم المالي الذي تعرض له سكان مصر - أقباطاً ومسلمين - ومن هنا فقد انضم عدد من المسلمين الى الثوار، لأن الحيف وقع على الجميع.

في سنة ٢٥٥ هـ/ ٨٦٩م حاول ابن المدبر، حاكم مصر من قبل العباسيين، أن يتدبر الأمر فيخفف مجال الثورات. فقام بإحصاء دقيق لجميع العاملين في حقل الدين

والرهبان من الأقباط، واتفق، أخيراً، مع البطريرك سنوتيوس أن يدفع مبلغاً مقطوعاً عن هؤلاء جميعاً. ويبدو أن المبلغ كان كبيراً بالنسبة الى المقدرة المالية للبطريركية فانتدب سيدها اثنين من مقدمي الجماعة القبطية - ساويرس وابراهيم - كي يذهبا الى بغداد ويقدما للخليفة المعتز (٢٥٢ - ٢٥٥ هـ/ ٨٦٦ - ٨٦٩ م) طلباً بتخفيف العبء عن الطائفة والبطريركية، وقد استجاب الخليفة للطلب الذي أكده خلفه المهتدي (٢٥٥ - ٢٥٦ هـ/ ٨٦٩ - ٨٧٠م). لكن السلطة العباسية المباشرة على مصر توقفت عندها، إذ أنشأ الطولونيون دولتهم (٢٥٤ - ٢٩٢ هـ/ ٨٦٨ - ٩٠٥م) وتبعهم الإخشيديون (٣٢٣ - ٣٥٨ هـ/ ٩٣٥ - ٩٦٩م). وقد تولى الأقباط مناصب متنوعة، كبيرة وصغيرة، في العهدين.

ولما وصل الفاطميون مصر وأقاموا عاصمتهم هناك (٣٦٢ - ٥٦٧ هـ/ ٩٦٣ - ١١٧١م) حظي الأقباط بكثير من العناية. فقد كان في حاشية المعز الفاطمي القاهري (٣٤١ - ٣٦٥ هـ/ ٩٥٢ - ٩٧٥م) قبطي اسمه قزمان بن مينا (ولقب أبا اليمن) الذي احتفظ بمسيحيته مع انه كان نائب الخليفة في سورية. وقد توفي عزباً فخلّف ثروته بأكملها، وكانت كبيرة، للبطريركية القبطية كي تنفق لمصلحة الكنيسة والفقراء.

كان الخليفة العزيز (٣٦٥ - ٣٨٦ هـ/ ٩٧٥ - ٩٩٦م) أمعن من أبيه في استخدام المسيحيين وإظهار التسامح لهم. فمن ذلك أنه أزال جميع مظاهر التمايز الاجتماعي بين المسلمين وأهل الذمة، وعيّن مسيحيين في وظائف رفيعة ومهمة، وأعفى الأقباط من جميع الضرائب الإضافية، وسمح للبطريرك أن يعمر الكنائس المتداعية الى الخراب، وحتى أن يبني كنائس جديدة. ولما احتج بعض المسلمين على ذلك وهاجموا الكنائس زود الخليفة البطريرك بحراسة شديدة وطلب منه أن يتم العمل مع عرض تقديم المال اللازم لذلك، أي تعويضاً عما فعله المعترضون. وقد شكر له البطريرك سعيه واعتذر عن قبول المال!

وقد شجع الأقباط في جميع مجالات العمل فكان منهم، فضلاً عن نماذج الموظفين الذين أشرنا اليهم، مهرة الصناع في جميع الفنون والصناعات العادية والهندسية وخبراء الزجاجين. وظهر بينهم مهرة الأطباء وطبقة من المؤلفين والكتّاب، ولو أن هؤلاء نبغوا، على نحو أوضح، أيام الأيوبيين. لكنهم وضعوا، أيام الفاطميين، تواريخ الكنيسة القبطية وبطاركتها. وكل هذا وغيره كان ممكناً لأن الخلفاء الفاطميين منحوا المسيحيين والأقباط خاصة (وهم الأكثرية بين المسيحيين) حرية العمل وشملوهم بعطفهم.

الصفحة السوداء في تاريخ الفاطميين جاءت على عهد الحاكم بأمر الله (٣٨٦ - ٤١١ هـ/ ٩٩٦ - ١٠٢١م). فقد لقي المسيحيون، كما لقي المسلمون، الكثير من الظلم

والحيف والاضطهاد والقتل والمصادرة على يديه. وهو الذي هدم كنيسة القيامة في القدس. وقد أعاد بناءها فيما بعد خليفته الظاهر (٤١١ - ٤٢٧ هـ/ ١٠٢١ - ١٠٣٦ م). وفي عهد هذا الخليفة نقل مركز الكرسي البطريركي القبطي من الاسكندرية الى دمرو (وهي مدينة قديمة في محافظة الغربية في الدلتا). لكن البطريركية عادت فاستقرت في القاهرة حيث أصبحت أقرب الى بلاط الخليفة وصارت تحت حمايته.

من القدس الى بغداد

كان صفرونيوس بطريرك بيت المقدس (أورشليم) لما دخل العرب القدس (٦٣٨م) وكان قد تولى السدة البطريركية قبل ذلك بأربع سنوات. ولما توفي السنة نفسها التي سلم فيها بيت المقدس لعمر بن الخطاب، لم يُخْتَر خليفة له. وظلت الكنيسة من دون بطريرك الى سنة ٧٠٦م. وقد كان يديرها في هذه الأثناء نواب بطريركيون هم مدبرون اغتصب بعضهم العمل مثل أسقف يافا (وكان من أتباع المشيئة الواحدة) كما عُيِّن الباقون (أسقفا دورا وفيلادلفيا) ثم جاء اثنان آخران. وبعد ذلك انتخب يوحنا الخامس سنة ٧٠٦م وظل أربعين سنة وخلفه تاودوسيوس الأول سنة ٧٤٥م وتولى البطريركية اثنتين وعشرين سنة. وفي أيام هذين عاد الى البطريركية بعض التنظيم.

كان الأثر المباشر لدخول العرب القدس أن أعطى عمر بن الخطاب عهدته المشهورة التي أصبحت القاعدة الأصلية للتعامل مع سكان البلاد من المسيحين، خاصة أن الوضع هنا كان مثل الوضع في ما تبقى من بلاد الشام ومصر، أي خروج عدد كبير من اليونان من جهة، وانقطاع الأثر اليوناني الرسمي الخلقيدوني الذي كان يقف حجر عثرة في طريق التقدم.

والمهم أن بطريركية بيت المقدس عادت اليها الحياة الطبيعية (بعد سنة ٧٠٦م) وتحسنت أحوالها يومها. وكانت الدولة الأموية قد نشرت سلطانها، وأصبحت العاصمة أقرب الى بيت المقدس منها في أي وقت آخر.

ظهر في البطريركية المقدسية عدد من كبار رجال الفكر المسيحي في الفترة الأولى من حياتها، منهم يوحنا السُلّمي (نسبة الى السلّم الروحي الذي تخيله وترقى عن طريقه الى العلو السماوي). ولد في فلسطين، لكننا لا ندري أين. وتنسك في دير سيناء وولي رئاسته لكنه هرب من المسؤولية. وتوفي في سيناء سنة ٦٤٩م. فهو من رجال ما قبل الفتح العربي الاسلامي.

ومن المشهورين من أهل المنطقة أندراوس (٦٦٠ - ٧٤٠م). دمشقي المولد. وكان من رجال الإكليروس في القدس. أرسل إلى القسطنطينية في مهمة وظل هناك. وقد تولى أسقفية كريت.

ولعل أكبر الكنسيين شهرة يوحنا الدمشقي المسمى مجرى الذهب. ولد في دمشق

سنة ٦٧٥م وكان أبوه، سرجون بن منصور، أحد أعيان المسيحيين في بلده وكان يشرف على شؤون المال في دولة الأمويين. ولما كبر خلف أباه في منصبه. لكنه هجر هذا كله وذهب الى دير مار سابا (شرقي القدس في جنوب) وسيم كاهناً. وقد وضع التسابيح الكنسية ومنها «قانون الفصح المجيد الذي لم تنطق شفاه بشرية بأبدع منه». وكتب يوحنا في اللاهوت. وتوفي نحو سنة ٧٤٩م.

وكان القديس قزما ربيب سرجون بن منصور ورفيق يوحنا الدمشقي ومتنسكاً في دير مار سابا مثله. وقد انتخب أسقفاً لمدينة مايوما قرب غزة نحو سنة ٧٤٣م فكان راعياً حازماً حريصاً على الجماعة والكنيسة. وله قوانين ومدائح رفيعة المستوى وتوفي حوالى سنة ٧٦٠م.

والذي نود أن نسجله هنا أنه اعتباراً من القرن الرابع كان كل بطريرك تولى سدة المدينة المقدسة عربياً. وظل الأمر على ذلك حتى سنة ١٥٣٤م لما تحايل جرمانوس اليوناني على تولي البطريركية، فغير وبدل فيها، على ما سنأتي على ذكره في المكان المناسب.

وقد روي أن جماعة من رهبان البندكتيين جاءت القدس في أيام البطريرك جاورجيوس (٧٩٧ - ٨٠٧م). هذه الجماعة بنت لها ديراً على جبل الزيتون المقابل للمدينة المقدسة. ويبدو أن هذا البطريرك هو الذي أرسل الى شارلمان (٧٤٢ - ٨١٤م) مفاتيح كنيسة القيامة، أي كنيسة القبر المقدس ومحل الجلجلة وراية من بيت المقدس (أورشليم) على سبيل التبرك.

واذا تذكرنا أن شارلمان تُوِّج سنة ٨٠٠م إمبراطوراً للإمبراطورية الرومانية المقدسة، وأن البابا هو الذي توَّجه، أدركنا المغزى الذي رمى اليه بطريرك القدس من هذه الهدية. فهناك أولاً رهبان بندكتيون غربيون جاءوا القدس. ومع أن الرهبنات لم تكن تابعة للبابوية تماماً، فإنها كانت قريبة منها. ويروى أن شارلمان أرسل الى بطريرك القدس صدقات لتوزع على المسيحيين. وهذا هو الشيء الثاني. وهنا نسأل أنفسنا أيهما سبق الآخر - تبرعات شارلمان أم هدية البطريرك؟ وعلى كل فإن مثل هذه الرواية أقرب الى الصحة من الرواية الأخرى وهي أن هارون الرشيد هو الذي أرسل الهدية.

يمكن تلخيص الوضع الذي كان سائداً في منطقة الكنيسة اليعقوبية، قبيل دخول البلاد تحت الحكم العربي الإسلامي في الأمور التالية:

١- كانت هذه الكنيسة (واسمها مأخوذ، كما ذكرنا من اسم الأسقف يعقوب البرادعي) مثل الكنيسة النسطورية، قد أصبحت، غير شرعية في نظر البطريرك الأنطاكي اليوناني أو الملكي أو الأرثوذكسي (يمكن اختيار أي اسم) وفي نظر

الإمبراطور. وكان البطريرك والكهنة، على اختلاف درجاتهم، يعدّون خارجين على القانون. ويذكر القراء أن الكنيسة النسطورية كانت قد طردت خارج حدود الامبراطورية البزنطية، لذلك لم تتعرض لما تعرضت له الكنيسة اليعقوبية.

٢- كان المونوفيستيون هم أكثرية السكان في سورية أو على الأصح في حدود بطريركية أنطاكية. إذ إنهم كانوا سكان الريف وسكان البادية وسكان المناطق التي كانت بين الريف المزدرع والبادية الجافة. وقد اقتصر المسيحيون الرسميون الملكيون على سكان المدن فقط. ولكن هؤلاء هم الذين كانوا المعترف بهم رسمياً.

ولما تم للعرب فتح بلاد الشام كان عدد كبير من أتباع الخلقيدونية أو المشيئة الواحدة من السكان الأجانب – اليونان – قد خرجوا مع الجيوش البزنطية. ولذلك فاكثر الذين ظلوا في البلاد هم عرب أو آراميون متعربون أو على شك أو بعض اليونان الذين فضلوا بيوتهم على البيوت غير المعروفة.

وحريٌّ بالذكر أنه لم يعد الآن من حاجة خاصة الى البحوث اللاهوتية الخالصة. تلك كانت لازمة في محاولة للرد على المخالف للرأي – بقطع النظر عن أي هو على صواب أو خطأ، وكانت المجادلات اللاهوتية ضرورية أحياناً بالنسبة الى المجامع. الآن زال الموجب لذلك. ومن ثمّ فإننا نجد أمرين مهمين بالنسبة الى النتاج الفكري، اليعقوبي والنسطوري على السواء. الأول أن المبرزين من أهل الفكر اليعقوبي لم يكونوا من البطاركة أو الأساقفة؛ والثاني هو الانصراف الى محاولة لدرس الحضارة والفكر الهلنستيين (أو الهلينيين اذا كان الأصل هو المقصود).

ظلت بطريركية أنطاكية الملكية الرسمية من دون بطريرك من سنة ٦٠٩م لما قتل اليهود في ثورتهم على البزنطيين البطريرك الأنطاكي حتى سنة ٧٤٢م. والمقصود: البطريركي العملي. صحيح أن إمبراطور القسطنطينية قد سمى بعض البطاركة هناك لكنهم لم ينتقلوا الى السكنى بأنطاكية (على الأقل منذ سنة ٦٣٧م) بل عاشوا وماتوا في الغربة. وعلى كل، فالمهم أنهم كانوا بطاركة رسميين بزنطيين وكان الزمان قد تغير. لكن الأنكى من ذلك هو أن أصحاب البطريركية الوطنيين أي اليعاقبة، لم ينتخبوا بطاركة أيضاً. وكان من الطبيعي أن تسود الفوضى بشكل عام.

لما دخل العرب بلاد الشام كان بطريرك أنطاكية هو أثناسيوس الجمّال، بطريرك اليعاقبة المونوفيستيين (القائلين بالطبيعة الواحدة). وكان الملكيون (ومؤرخوهم فيما بعد) يعدّون هذا البطريرك أنه شبيه بالرسمي.

على كل، أفاد اليعاقبة من ذلك فأعانوا الفاتحين. وكان هذا الموقف طبيعياً لأن الكثيرين من المونوفيستيين كانوا إخواناً بالدم واللغة للعرب الفاتحين – مثل الغسانيين ومن سار مسيرتهم.

وبسبب ميل اليعاقبة للعرب الذين اعتبروهم محررين لهم، وبسبب الغباء البزنطي الرسمي، جعل الدولة الجديدة تتكرم على اليعاقبة بأمور كثيرة. فكانت هذه الحرية التي تمتع بها المسيحيون في تصرفاتهم – من مثل منصور (يوحنا الدمشقي) وغيره.

ومما يجب ملاحظته هو انه لما عاد اليعاقبة الى انتخاب بطاركة لهم (منذ انتخاب اسطفان – استفانوس الثالث سنة ٧٤٢م (وكان هذا صديقاً للخليفة هشام الأموي ١٠٥ – ١٢٥هـ/ ٧٤٣-٧٦٤م) لم يقم هؤلاء البطاركة في أنطاكية. لقد ظلوا يعيشون بعيداً عن أنطاكية في مدن سورية الشمالية تارة، وتارة في ملطية من مدن أرمينيا الصغرى، وحينا في ديار بكر.

ومن هنا فإن الامتيازات التي حصل عليها اليعاقبة في بلاد الشام كانت أقل مما ناله أقباط مصر بسبب تماسكهم.

على أن المؤرخين من الفريقين والجهتين متفقون على أن تصرف أهل الحكم من المسلمين كان، خاصة في الفترات الأولى، يتصف بالتسامح والعدل. الى هذا، فقد كان العرب تواقين للإفادة مما كانت الجماعات والشعوب المتحضرة والسابقة في ميادين المعرفة تكتنزه من الخبرات. وهذا يفسر المركز المرموق الذي شغله العلماء اليعاقبة والنساطرة في بلاط الخلفاء.

وحريٌّ بنا أن نتنبه لأمر كان على غاية الأهمية بالنسبة الى اليعاقبة. كانت نتيجة الفتوح العربية أن أصبحت بلاد الشام وأرض الرافدين وفارس تحت حكم عربي واحد. ومن ثم فقد زالت الحدود التي كانت تفصل بين البلد الواحد والآخر (وكانت حدوداً حارّة في أكثر الأحيان). والتنقل الذي أصبح الآن متاحاً للجميع أفاد منه اليعاقبة في أنهم نشطوا للتبشير بآرائهم ومذهبهم في تلك المناطق النائية في الشرق حيث كان للنساطرة ما يشبه العمل الاحتكاري قبلاً. من الواضح أن اليعاقبة ما كان باستطاعتهم أن يزاحموا النساطرة في أواسط آسية والشرق القصيّ. إلا انهم الآن انفتحت أمامهم الأبواب المغلقة فانطلقوا بالنشاط الكبير. ويجب أن نتذكر أن اليعاقبة كان لهم موطىء قدم في تلك الأصقاع من قبل.

وكان من كبار العاملين في هذا الحقل الراهب اليعقوبي ماروتا (٦٢٩- ٦٤٩م) الذي تولى، بعد نهاية الدولة الساسانية، متروبوليتية تكريت، والذي كان يتبعه خمسة عشر أسقفاً في أرض الرافدين وفارس. وقد ظل للكنيسة مكانتها واحترام الحكام لها حتى أيام الصليبيين، إذ إن مجيئهم قلب الأوضاع على ما سنرى في حينه.

وماروتا كان، فضلاً عمّا ذكر، (مافريان الشرق) أي وكيل البطريرك هناك، وهو عمل يقتضي الكثير من الجهد. وكان العالم النسطوري المشهور يومها بار صوما، وقد كان كل منهما نداً للآخر.

كان المركز الكبير لليعاقبة دير كِنَّشره، الواقع على الضفة اليسرى لنهر الفرات.

هناك درس ماروتا، وفيه علّم الأسقف سيفروس (المتوفى سنة ٦٦٧م) وكان ضليعاً في المعارف الهلينستية من فلسفة ورياضيات وفلك. فضلاً عن ذلك فقد كان لاهوتياً كبيراً. وكان، ولا شك، واحداً من الطلائع في تسويق العلوم الهلينستية – السريانية، دراسة وتأليفاً وصناعة (الإسطرلاب). وكان سفيروس من كبار المدرّسين والمنظّمين والمنظّرين هناك.

كان من خريجي دير كِنَّشْرَه يعقوب الرهاوي (٦٣٣-٧٠٨م) – الذي كان أسقفاً ولاهوتياً ومفسراً (للكتاب المقدس وما اليه) ونحوياً وفيلسوفاً ومؤرخاً. ويعتبر واحداً من كبار المؤلفين – عدداً ونوعاً. وهو، فضلاً عن مؤلفاته التوراتية المتعددة والمتنوعة، عمل على وضع الأسس الثابتة للصلوات السريانية والتقويم الكنسي. وكان مولعاً بالتصوف، وقد كتب طوبيا وصف فيها العالم كما يريده ويتأمله.

كان يعقوب ميالاً لإصلاح الاعوجاج حيث وجده. لذلك فإنه أراد أن يتشدد مع الرهبان في أبرشيته. فثاروا ضده. وأيّدهم البطريرك يوليان. فترك كرسيه وانتقل من دير الى دير معلماً كاتباً واعظاً حتى سنة ٧٠٨م. ولم يكد يحط قدمه في إديسَّا، عائداً الى بلده، حتى تلقفه الموت.

وكان جورج (جاورجيوس) أسقف العرب (٦٨٦ – ٧٢٤م) خريج كنَّشره وخليفة يعقوب في مهماته العلمية. كان مركزه في ألولا (الكوفة) وكان كاتباً قديراً ومكثراً في اللاهوت والفلسفة.

وقد استطاع المبشرون اليعاقبة أن يقنصوا صيداً جيداً من الحقل النسطوري. فقد ربحوا إلياس[1]، الذي كان من أتباع الطبيعتين فاعتنق المونوفيستية على أيديهم. وكان ذلك بعد قراءته أعمال سفيروس. وقد انتخب فيما بعد بطريركاً لليعاقبة (٧٠٩ – ٧٢٤م). وكان بين العاملين في الحقل التبشيري كريالكوس التكريتي، البطريرك اليعقوبي (٧٩٣– ٨١٧م).

نكتفي بهذا؛ فنحن لا نريد أن نتابع هؤلاء الأفراد، ولكننا أردنا أن نمثل على أمرين: الأول، أن مجال الدراسة على اختلاف أنواعها كان متيسراً لمن يريد، ولم يكن ثمة ما يمنع أياً كان من متابعة دروسه في دير هنا أو دير هناك. والأمر الثاني، هو أن أصحاب السلطان كانوا يحتضنون العلماء ويسمحون لهم بالعمل ويكرمونهم في البلاط. فهؤلاء العلماء الذين ذكرناهم، ولهم زملاء كثر، هم الذين أتيح لهم وشجّعوا على نقل الآثار القديمة الى العرب – والعربية.

«إن المسيحيين تمتعوا، بشكل عام، بحرية التفكير والعمل في ظل الخلفاء العباسيين الأوائل؛ والبطريرك اليعقوبي أصبح يكثر الزيارة للبلاط. هذا، مع العلم أن مافريان تكريت هو الذي كان يتولى شؤون اليعاقبة في ذلك الجزء من أرض الرافدين

وما تلاه من الشرق الأوسط» (عزيز سريال عطية).

أما جاثليق النساطرة (أو بطريركهم) فقد سمح له أن يقيم في بغداد (العاصمة). فهو كان مسموحاً له أن يقيم في كتيسفون عاصمة الساسانيين من قبل.

وبسبب اهتمام المسيحيين بالنواحي التجارية، فقد كانوا أثرياء. وهذا كان له أثر كبير على مؤسساتهم من كنائس وأديرة ومدارس ومكاتب.

النساطرة

تحمّل النساطرة شيئاً من الاضطهاد على أيدي بعض الملوك الساسانيين، لما كان هؤلاء ينظرون اليهم على أنهم يتبعون ديناً يقبله أباطرة بزنطية. ولعلّ شر ما ابتلي به القوم هو تغريمهم مالياً. فقد ضاعف شابور الثاني مطالبه المالية، وحملهم خسرو الأول على دفع جزية، مثل غيرهم من المسيحيين المقيمين في دولته، وذلك مقابل إعفائهم من الخدمة العسكرية.

على أن المهم هو أن مجمعاً محلياً عقد سنة ٤١٠م في سلوقية – دجلة (كتيسفون) عاصمة الدولة الساسانية. في هذا المجمع انتظم أمر الكنيسة النسطورية، واعترف بها يزدجرد أنها كنيسة ذات كيان خاص. وقد أكد مجمع مركَبتا (٤٢٤) هذا الأمر واعترف برئيسها دَديشوع على أنه بطريرك المشرق (٤٢١ – ٤٥٦م) وسمح له بأن يتخذ من العاصمة الساسانية نفسها مقراً له. واعتبر هذا البطريرك مسؤولاً عن تصرف جماعته. وقد كان هذا يؤدي أحياناً الى تدخل الدولة في اختيار الاساقفة. وقد ينتج عن ذلك اختيار الاشخاص غير المناسبين لهذه المناصب.

ولما احتل العرب الدولة الفارسية، ووصلوا الى حدود الهند ظل للنساطرة وضعهم الخاص، وفرضت عليهم الجزية التي كان يدفعها أهل الذمة، وهم في تلك المناطق يشملون، فضلاً عن المسيحيين واليهود، الزرواستريين. ومن هنا فقد ازدهرت شؤون النساطرة في العهد الاسلامي المبكر. ومن الواضح أن المسيحيين كانوا يتمتعون، في دولة الخلافة، بمنزلة خاصة بالنسبة الى غيرهم من أهل الذمة، وحتى الكتابيون منهم. ولعل ما كان هؤلاء يتمتعون به من المعرفة العلمية ساعد على هذه النظرة.

كان للنساطرة مراكز علمية هامة في نصيبين وجنديشابور ومرو مثلاً. وزودت هذه المدارس دوائر الدولة بالموظفين والمحاسبين والكتاب اللازمين لتسيير الأمور والأعمال. وقد وقعت عليهم اضطهادات بين الآن والآخر. وقد يكون هذا نتيجة وشايات مثلاً. ولعل من أطرف ما روي أن أحد أفراد حاشية هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣ هـ /٧٨٦ – ٨٠٩م) واسمه حمدون أنبأ الخليفة بأن بعض المسيحيين يعبدون عظام الموتى في كنائسهم في البصرة والأُبلة، فأمر الرشيد بهدم هذه الكنائس. لكن لما اتضح للخليفة ان التهمة باطلة أمر بإعادة بنائها (عزيز سريال عطية).

اما وضع المسيحيين في المجتمع فقد كان فيه ما يدعو الى الفخر. ولسنا ننوي أن نؤرخ هنا للدور الذي قام به علماء النساطرة في بيت الحكمة في بغداد وغيرها. ولن نقدم للقراء هنا حتى ولا نماذج لأسماء كبار العلماء، فهذه أمور أصبحت بدهية بالنسبة الى القارىء العربي. فقد نقل هؤلاء العلماد والكتّاب خير ما وصل الى أيديهم من علم اليونان ومعرفتهم. وهذا كان واحداً من العوامل التي أدت الى تعرف العرب الى التراث الكلاسيكي، وبذلك استطاعوا هضمه والإضافة اليه. وإنجازات العرب في هذا المجال معروفة مشهورة.

والذي يجب أن لا يغرب عن البال أن النساطرة والكنيسة النسطورية تمتعت خلال القرون الثلاثة الأولى بكثير من الحرية والامتيازات. ولعل من خير ما يمكن أن يقدم مثلاً على ذلك هو أن الخليفة المعتضد (٢٧٩-٢٨٩ هـ/٨٩٢- ٩٠٢م) عين نسطورياً والياً على الأنبار، الواقعة شمالي العاصمة العباسية. وبنى النساطرة كنائس جديدة مثل تلك التي بناها كبريانوس أسقف نصيبين والتي أنفق عليها ٥٦ ألف دينار وكان ذلك في سنة ٧٥٩م في أيام المنصور (١٣٦- ١٥٨ هـ/٧٥٤ - ٧٧٥م).

صحيح أن مثل هذه التصرفات لم تفت عدداً من الناقدين واللائمين والمعترضين. ومع ذلك فإن الكنيسة النسطورية ومعها الجماعة النسطورية كانت تنمو وتتقدم بالثروة الطائلة بسبب النشاط التجاري الكبير.

الموارنة

مر بنا أن دير مار مارون الذي قام على مقربة من افامية قد أصبح مدرسة كبيرة بالنسبة الى الجماعة المارونية التي عمرت المنطقة التي تشمل سهول حمص وحماة. ومع الوقت ازداد عدد هؤلاء الرهبان وقاموا بنشر المارونية في مرتفعات جبل لبنان. ولما اشتد الضغط عليهم ازداد إعمارهم لبنان والاستيطان فيه وبناء الاديرة. ويبدو أنه في أوائل القرن السادس كان لهم انتشار في منطقة تمتد من كورش ومنبج شمالاً حتى الجبال جنوباً، ومن شواطىء المتوسط وجبال الامانوس غرباً حتى دمشق والبادية شرقاً.

والموارنة تمثلوا الحضارة والثقافة السوريتين وعبروا عنها باللغة السريانية. ومن هنا كانوا خصوماً للعنصر اليوناني لغة. أما العقيدة فإنهم بعد سنة ٤٥١م أصبحوا خلقيدونيين أي من القائلين بالطبيعتين، ولذلك فهم كانوا، من هذه الناحية، يتفقون مع الفئات اليونانية. غير أن عناصر الخلاف كانت أقوى وأفعل في النفوس. لكن أهم ما يجب أن يذكر عن هذه الجماعة أنها كانت ذات نزعة استقلالية. فهي «متمترسة» في محيطها الجغرافي الحصين والقاسي على غيرها. وهي تستعمل، في مجملها، لغة واحدة. وهي تقبل مذهباً عقائدياً واحداً. ولم يكن بينها وبين الدولة البزنطية أي شيء يمكن أن يربط بينهما.

هذا الانقسام بين مسيحيّي المذاهب المختلفة، يدل عليه ظهور وتكاثر سريعان في

الكتابات الموضوعة باللغة السريانية في القرن السادس. وتدل على اهتمام المونوفيستيين للاتصال بالشعب السوري عن طريق لغة العبادة ذاتها، ولاستخدام الميول الاستقلالية السياسية في دعوتهم كما فعل الأقباط. وهذا الذي نلمسه من التراجع الهلينستي هو علامة واضحة تشير الى ضعف الدولة البزنطية ومقدمة لانحلالها. وينم بطبيعة الحال عن رفض للحكم الملكي الغريب. ولعله يدل حتى على رفض للحكم الملكي من حيث انه نظام حكم أصلاً. وهناك ما يؤكد أن تشدد يوستنيان وخلفائه في جمع الضرائب، وموقف الامبراطور من الشؤون اللاهوتية ومحاولته فرضها، كانت جميعها مما قوى موقف الموارنة العدائي (شارل ديل).

ظل الكرسي البطريركي الأنطاكي شاغراً لمدة طويلة بعد الفتح العربي. فبقدر ما كان العداء مستحكماً بين العرب والروم، ولأن الذي يشغل هذا الكرسي يجب ان يكون يونانياً، لذلك فإن الوضع كان يحول دون وجود بطريرك. وقد تخطى القصر الحدود فعين بين سنتي ٦٤٥و٧٠٢م بطاركة اسميين لأنطاكية لكنهم لم يدخلوا المدينة أو البلاد قط.

وحسب القانون والشرع المقرر في المجامع والتقاليد الكنسية فقد كان انتخاب البطريرك يتم على يد أساقفة البطريركية ومطارنتها بالأكثرية. ويشترط أن يكونوا مجتمعين في نطاق البطريركية اجتماعاً قانونياً. ولم يكن للملك حق في التدخل في الانتخاب إلا في تثبيته بعد أن يكون قد وقع بمنتهى الحرية.

ولذلك فهؤلاء البطاركة لم يكونوا شرعيين. والمهم أنهم لم يمارسوا واجباتهم عملياً.

وهنا تقدم الموارنة وانتخبوا سنة ٦٨٥م أو سنة ٦٨٦م أحد رهبان مار مارون بطريركاً، وكان أول بطريرك ماروني، وعندها ظهر للمارونية كنيسة مستقلة لها بطريرك، ولها إطار وظائفي إداري. وترتب على هذا أن البزنطيين توقفوا، بدءاً من سنة ٧٠٢م عن تعيين بطريرك لأنطاكية يقيم في القسطنطينية.

والبطريرك الماروني الأول هو مار يوحنا مارون. ويبدو أن تقبل الموارنة المونوتيلية واختيار بطريرك للطائفة جاءا متقاربين في الزمن.

وبسبب من استقلال الموارنة استقلالاً تاماً بوصفها طائفة وكنيسة تامة كان بإمكانها أن تتصرف في السبيل الذي تمليه عليها واجباتها.

الهوامش

(١) كان إلياس أحد كبار اللاهوتيين في الكنيسة النسطورية.

٣. الحروب الصليبية

الإسلام، بقطع النظر عن طبيعة الدعوة وآمالها وأهدافها، دين عربي. أنزل بالعربية وحياً، وشرح بها حديثاً، ووضع بها تطبيقاً أيام الرسول (ص) ثم في عهد خلفائه الأدنين، وفسر بها كتابة، ووعظ الناس بها، واستنبطت عبرها الأحكام. ومن ثم فقد كان فهم الاسلام بأبعاده الإنسانية وأحكامه الاخلاقية فضلاً عن قواعده وأصوله، وطرقه وسبيله، على العرب أهون، وكان الى قلوبهم أقرب. فإذا سمعوا خشعوا لأن الكلمات كانت تنفذ الى القلب والمعاني تملأ شعاب الروح.

لذلك لما قامت دولة الخلافة - راشدة أو أموية أو عباسية أولى - وحكمت على أسس الإسلام كما فهمتها، وعى العاملون في الحكم والمسيرون شؤون الدولة، الأحكام وعدلها، ونزعوا في تطبيقها الى ما هو أيسر، بدل العسر. والى ما هو أدعى الى الترابط والتكاتف في سبيل المصلحة. لقد فرضت دولة الخلافة على المسيحيين الجزية التي أقر الحاكم بها، وطلبتها من الرجال القادرين. أما الخراج فقد فرض على الأرض فدفعه كل مستفيد من أرض مسلماً كان أم ذمياً من أهل الكتاب. وكان الولاة والحكام والعاملون في الإدارة عرباً، فكانت نظرتهم أو ولاؤهم للقبيلة واللغة والثقافة تتميز بالأصالة.

تبدلت الحال منذ أيام المعتصم (٢١٨-٢٢٧ هـ/ ٨٣٣ - ٨٤٢م) فأدخل العنصر التركي جنداً في الدولة، لكنهم كانوا في الواقع رجال الأمن الداخلي، ولعلنا إذا استعرنا التعبير الروماني فقلنا كانوا الحرس البريتوري للخليفة، لم نكن قد انحرفنا عن جادة الصواب كثيراً. ولم يكتف الخليفة بأن جعلهم بطانته، بل انتقل بهم من بغداد الى سر من رأى (سامراء) ليحموه في ظنه، وليبعد شرهم عن سكان بغداد. ولكن الذي حدث أن هؤلاء الجند لم يحموه ولم يحموا خُلفاءه، ولم ينج منهم لا أهل بغداد ولا سواهم، لما عادوا الى العاصمة الأولى.

ولو وقف الأمر عند هذا الحد لهانت المصيبة. ولكن الذي حدث بعد ذلك أن ألف هؤلاء الأجانب الضعف عند الخلفاء، فاستمرأوا السلطة والنفوذ، وانتقلوا من التسلط الشخصي الى التسلط الجماعي، أي الى انتزاع السلطة من الخليفة وإدارة الأمر نيابة

عنه كما حدث لبني بويه (٣٢٠ - ٤٥٤ هـ/٩٣٢ - ١٠٦٢م) ثم التسلط الأوسع والأقوى على نحو ما حكم السلاجقة (٤٧٠ - ٧٠٧ هـ/ ١٠٦٦ - ١٣٠٧م). فقد كان الناس - أمراء وحكاماً وتجاراً وفلاحين ومدنيين وريفيين - يعيشون، أيام دولة الخلافة الأولى، في ظلها، فتحكمهم بالعدل، وقد تجور لكن الجور لم يكن عاماً، ولم يكن أمراً مخططاً له؛ بل كان يحدث في الغالب بسبب مزاج صاحب أمر أو نهي.

أما الآن فقد أصبح رمز دولة الخلافة - الخليفة نفسه ومن يمتّ اليه بصلة، وسكان المدن والريف في رقعة من الأرض معينة - كل أولئك أصبحوا يعيشون في ظل سيف يسلطه صاحب قول ونهي من هؤلاء الطامعين. فإذا فتك به فاتك من أهله أو جماعته، حل سيف محل سيف، ونزل «ساطور» منزل «ساطور»، وكل يقطع كما يوجهه الضارب. والضارب يوجه الأمر لمصلحته.

وثمة ملاحظة، ونحن نشير الى - ولا نتحدث عن - هذا الوضع الجديد. أولها، الانتقام والفتك بالخاسرين، وهم يومها المغضوب عليهم إن لم يكونوا من الضالين. وهذا الفتك وذاك الانتقام يصيبان جميع من لهم علاقة من قريب أو بعيد، بالقوم الخاسرين. ولن يعدم أن يكون بينهم مسيحيون أو سواهم من أهل الكتاب. وعندها يأتي من يتبرع بالقول بأن الإسلام يضطهد المسيحيين. وأنا استعملت الإسلام (بدل المسلمين) عامداً متعمداً لأن هذه الطريقة التي تكال بها التهم جزافاً.

هؤلاء الأجانب لم يكن يعنيهم، في الدرجة الأولى، إلا الاستيلاء على موارد الرزق ومصادر الثروة الرسمية. ومعنى هذا تكالب قبلي او عشائري أو حتى أسري. فنحن يكفينا أن نمر بأي من الدول أو الدويلات التي قامت - نظرياً - في ظل الخلافة (وكانت الخلافة في الواقع هي التي تقوم في ظلها) فنرى كيف كان الحاكم يقسم دولته بين ورثته مهما كان عددهم: البويهيون والسلاجقة والزنكيون والأيوبيون وغير ذلك. وفي غمرة الفوضى التي تتلو ذلك كان لا بد أن يقع ظلم على فئات من الناس، بقطع النظر عن معتقدها، وعندئذ تكال التهم لا للقائمين على الأمر، بل على الاسلام.

ولست أزعم أن الاضطهاد والظلم والنهب والسلب والقتل الذي عرفته هذه الدول كان حصة جماعة دون جماعة. لكن أود أن أشير هنا الى نقطة تعمدت تأخيرها وهي أن هؤلاء القوم القادمين الى ديار الإسلام الصحيح أساساً: معرفة وتطبيقاً، قد دخلوا دار الاسلام وقبلوا بهذا الذي يفيد (السلاجقة أسلموا قبل أن دخلوا دار الاسلام، ولذلك لعلهم كانوا بيتوا النية على الافادة من الوضع المتردي). ومن ثم لم يكن لهم للإسلام احترام كاف. لعلهم كانوا أكثر تعصباً له، لا فهماً ولكن نفعاً.

من هنا أحس الذين استمتعوا بكثير من الحرية في دولة الخلافة الأصلية بالظلم والاضطهاد، وحسبوا هذا تعصباً من الإسلام وهو تعصب، لكن من المسلمين المحدثين.

كان الغالب على الفترة التي نسميها دولة الخلافة الأولى أن الذين كانوا مسلمين كانوا مسلمين على قاعدة واحدة وأساس واحد. وقد يختلف فقيه عن فقيه، وقد يتنافر أصحاب مذهب فقهي مع أصحاب مذهب آخر. فباب الاجتهاد في مجال توضيح الأحكام مفتوح. وكذلك كان أمر التفسير والحديث. لكن كان الجميع (وقد يكون كلامنا يحوي من التعميم أكثر من الواقع لكنه كان أقرب الى الواقع). يرون رأياً واحد أ أو آراء متقاربة. ولما انتهى الأمر الى المذاهب الأربعة عرف الناس مكانهم ومكان المذاهب.

لكن الأمر اختلف لما بدأت الفرق المختلفة تظهر بين المسلمين. فبدأ التشيع يطالب ببعض ما يعتبره من حقه. وهذا معناه الانقضاض على سلطة الدولة. وهذه لا بد أن تدافع عن وجودها. وتنوعت الفرق حتى في الميدان الواحد.

ولأن هذه الفرق كان يدخل في مناهجها، على ما أشرنا، زحزحة القائمين بالأمر عن أمكنتهم، فقد دخل الى الخلاف الديني الطمع السياسي. وهذا يجعل الأمور مرتبطة بالمصالح. ومن الراجح أن يؤدي ارتباط المصالح بالشؤون الدينية الى تعصب ديني بسبب التعصب للمصلحة. وعندما يقوم تعصب ديني بين أبناء الدين الواحد، فليس غريباً ان ينتقل هذا التعصب الى أبناء دينين مختلفين ويحدث في المجتمع الشرخ الذي يمكن أن يكون بلاء مستحكماً.

وهذا الذي حدث. فالخلاف السني الشيعي، ثم الخلاف الفرقي في الجانبين، أدى الى خلق تعصب هنا انتقل تعصباً نحوالمسيحيين، لا لأنهم مسيحيون بل لأنهم مختلفون. ولست أزعم أن الأمر نفسه لم يحصل من ناحية المسيحيين الى المسلمين، فالجو كان يدعو الى ذلك. لكن المسيحيين لم يكن باستطاعتهم الإيذاء والظلم، لكن كان عليهم ان يتلقوه فيما اذا أراده زعيم أو حاكم مسلم أو جماعة مسلمة.

ولما أصبح للشيعة دولة خلافية بدأت في تونس حوالى سنة ٣٠٠ هـ/ ٩٠٠ م وانتقلت الى القاهرة (العاصمة الجديدة القوية القريبة من مواطن السنة) في أواسط القرن الرابع/ العاشر، زاد الأمل في القضاء على الخصوم – نعم، فقد أصبح الفريقان خصمين – ومن هنا زاد هذا التعصب وترسخ وأصاب ما نجم عنه الآخرين. فصرخوا ألماً، وقد يكون بعضهم قد تظلم شططاً، ولكن كان ثمة لهذا التظلم بعض العلل والأسباب الصحيحة.

ولا يجوز لنا أن ننسى أن المسيحيين كانوا قد انقسموا شيعاً ومللاً ونحلاً وفرقاً ومذاهب، وكانت الخصومة قد بلغت فيما بينها درجة مرتفعة من التشاكس والتنابذ، إما لجر مصلحة أو لدفع عدوان أو لإيقاع أذى. وكانت الوسائل متنوعة: فإذا جاءت من القصر فقد تشمل النفي والسجن والمصادرة وحتى القتل ولو بالواسطة؛ وإذا جاءت

من المسؤولين من رجال الدين فقاعدتها القطع (أو الحرمان) الذي يقابله، من المسؤول الآخر، قطع (أو حرمان) مماثل؛ وإذا ارتفع مستوى الخلاف كان محاجة قد يكون لها أول من دون أن يكون لها آخر، على نحو ما مر بنا من الاختلاف حول طبيعة المسيح من أولها الى ما قبل آخرها. وقد يأتي الحرمان (أو القطع) من مجمع إقليمي أو مجمع مسكوني وقد يقبل به كثيرون. وما أكثر ما كانت الشؤون الشخصية من خوف أو طمع او حقد (أو حتى حلم) هي التي تقرر المواقف.

وفي النهاية كان الغرم يقع على الناس. فيمنعون من أن يكون لهم أساقفة (كما حدث للمونوفيستيين قبل أن تنقذهم الإمبراطورة ثيودورا) أو تصادر كنائسهم ومقتنياتهم، أو قد يؤذون حتى في نفوسهم (كما حصل لما قتل مئات من الرهبان الموارنة على أيدي الخصوم).

ثمة أمر لم ينتبه له الذين أرَّخوا لهذه الفترة بالقدر اللازم. كان عدد الذين اعتنقوا الاسلام من سكان البلاد جميعها يتزايد مع الوقت. ولعله من واقع الأمر أن يكون أكثرية السكان قد أصبحوا مسلمين في القرن الخامس أو السادس للهجرة (الحادي عشر أو الثاني عشر للميلاد). ومعنى هذا أن المسيحيين ظلوا الآن أقلية نسبياً. إلى هذا يمكن القول بأن مجالات المعرفة على اختلاف أنواعها قد أصبحت ملكاً للجميع لأنها كانت قد نقلت الى العربية، وكُتب الجديد منها بالعربية. فلم تعد، كما كان الأمر في مطلع الفترة العربية الإسلامية، حكراً على المسيحيين. وإذن فعلماء البلاط الخليفي وأطباؤه وندماؤه وسماره أصبحوا الآن مسلمين أو على الأقل أصبحت الأكثرية بينهم من المسلمين. ومعنى هذا أن ما كان يبدو من سيطرة للمسيحيين في البلاط قد اختفى على الأقل.

فضلاً عن ذلك، فنحن يجب أن نتذكر دوماً أن أواخر القرن الخامس/ الحادي عشر شهد تبدلاً كبيراً في حياة بلاد الشام ومصر. في أواخر هذا القرن طرأ على المنطقة جنس جديد جاء غازياً محارباً محتلاً غاصباً. جاء من الغرب. إذ إن الصليبيين وصلوا بيت المقدس واحتلوها في ١٥ تموز/ يوليو ١٠٩٩م.

فما الذي كان هذا يعنيه بالنسبة الى المنطقة وسكانها عامة، وللمسيحيين خاصة؟

ومع أننا لا نؤرخ هنا للحملات الصليبية أو لحملات الفرنجة كما يحلو للبعض تسميتها (كأن التسمية تغير من نوعيتها) فلا بد لنا من الإشارة الى بضعة أمور قد تيسّر لنا فهم علاقة هذه الحروب بما أصاب المسيحيين في المشرق.

يجب أن نذكر أن الحملات الصليبية، مثل أمور كثيرة كبيرة من أحداث التاريخ، لا يؤدي اليها سبب واحد أو حال واحدة طارئة. أمور كهذه هي نتيجة مجموعة من العوامل والبواعث التي قد تكون نتيجة تطورات وتبدلات في الحياة، ثم هي تظهر أو

تطفـو على السطح وتحدث مـا تحدث. ولذلك فإننا هنا نلفت الى أمـور لعلها كلها مجتمعة - فضلاً عن غيرها لم نشر اليه - أدت الى الحمـلات. ونحن في النهاية سنعنى بهذه الحملات من حيث أثرها في المنطقة العربية وبالنسبة الى المسيحيين بشكل خاص.

شهد القرن العاشر تقهقراً في قيادة رجال الدين لشؤون المسيحية في الغرب والشرق. ففي الغرب طغى أباطرة الإمبراطورية الرومانية المقدسة على نفوذ البابوات، خاصة لما ازداد العنصر الجرماني في المجتمع المسيحي. أما في الشرق فقد كانت بزنطية معقل المسيحية السياسي تشكو من الخلافات المستحكمة. وكان من الطبيعي أن تضعف القيـادة الكهنوتيـة عندمـا يكون أباطرة أقـوياء، لو نسبيـاً، يحكمـون في العاصمة، خاصة أن الامبـراطور البـزنطي كان قد فـرض نفسـه من قبل سيداً في الكنسية.

فلمـا تولى البابوية غـريغوريوس السـابع (١٠٧٣ - ١٠٨٥م) أنعشهـا وأحيا كيـانها اللاهوتي والرئاسي حيث أصبحت محط الأنظار في القيادة. فلما دعا أروبان الثاني الى حملة الى الشرق في كليرمون (١٠٦٩م) كان لصوته صدى.

وكان للمسيحية انتصار في الغرب في إسبانيا. فقد استعاد أمراء البلاد هناك معاقل ومدناً عربية اسلامية مهمة. لعل أهمها طليطلة التي استعادها الأسبان سنة (١٠٨٥م). واذن لماذا لا «تسترد» فلسطين من حكامها يومها؟

كانت الكنيسة في أوروبا، قوية كانت أم ضعيفة، واحدة. لها رأس واحد هو البابا. وكـانت، على العـموم، كنيسة واحـدة. مقـابل ذلك كـان الشرق يتمتع بعدد كبير من الكنائس المتناحرة المتغاضبة. فكان الغرب اللاتيني - ممثلاً بالبابا ومن الى جانبه - يرى أنه يجب عليه أن ينفذ الى الشرق، وأن يستولي على الشرق لينقذ المسيحيين مما كانوا فيه من الضلالة. وهو بذلك يقوم بعمل آخر. في سنة ١٠٥٤م حدث الانشقاق الكبير بين الشرق والغرب دينياً. (المؤرخون اللاتين يشيرون الى هذا بأنه انفصال الكنيسة الشرقية عن الأم وهو نوع من التمـرد إن لم يكن كفراً. وأحسب أن بعض المؤرخين من المسيحيين الشرقيين يعتبرونه انفصال الكنيسة الغربية عن الأم. فـالذنب هو نفسـه. لكن الذين ينظرون الى الأمـور نظرة أدق - ولا أقـول بعيـدة عن التعصب - يرون أن هذا الانشقاق (وليس الانفصال) الكبير هو نتيجة طبيعية للتطور التاريخي الطويل الأمد).

فالبـابا كان يحلم في فـرض سلطته على الكنيسة الشرقية أو كمـا كان هو يرى، استعادة سلطته على الكنيسة المنفصلة.

فضلاً عن ذلك، وكما وصفها الدعاة يومها، كان المسيحيون في الشرق يلقون الأذى

ويتلقون الظلم، لذلك يجب إنقاذهم مما هم فيه.

ويمكن الواحد منا أن يضم عاملاً آخر كان في غاية الأهمية، ولو أنه اختفى في الضجة التي قامت يومها، وهو العامل الاقتصادي. فالجبهة التي فتحتها الجيوش الصليبية الأولى، والمدن والموانىء التي تم الاستيلاء عليها بين سنة سقوط القدس (١٠٩٩م) وسنة (١١١٠م) المنطقة الساحلية الشرقية من البحر المتوسط، كانت منافذ التجارة وأبوابها وبواباتها الى الماوراء المباشر والأسواق القصيّة.

احتل الصليبيون القدس سنة ١٠٩٩م. وخلال عقدين أو ثلاثة من الزمان استولوا على كل ميناء شامي الى الشمال من عسقلان. وتوسعوا في المناطق الجنوبية من الأردن، وأقاموا مملكة (هي مملكة بيت المقدس) وثلاث إمارات أو كونتيات هي: طرابلس وأنطاكية والرها (إديسًا)، وكانت هذه أول واحدة انتهى أمرها سنة ١١٤٤م فظلت الوحدات الباقية. وفي سنة ١١٨٧م استرجع صلاح الدين القدس من المحتلين (بعد معركة حطين). وفيما تبقى من الزمن، حتى سنة (١٢٩١م) كانت الحروب أولاً سجالاً بين الأويوبيين والفرنجة ثم أكثر من سجال بين المماليك والصليبيين لما انتهى أمرهم بإخراجهم من بلاد الشام (فاستقروا في قبرص ردحاً من الزمن).

وضعنا هذه الخلاصة القصيرة لتذكير القراء بهذا الذي مر على هذه الديار في مـدة قـرنين من الزمـان من أحـداث. لكن مـا الذي تركتـه هذه التطورات في البـلاد والعباد، وخاصة في العباد؟

يجدر بنا أن نبدأ بالنظر الى موقف المسيحي الغربي اللاتيني للمسيحي الشرقي - كائناً مـا كان انتماؤه. وهنا يبدو لنا الصلف الغربي على أشده. المسيحي الغربي اللاتيني التابع للبابوية هو القيّم على تراث المسيح، وهو المفروض فيه أن يكون على صواب وبقية المسيحيين على خطأ. ومن هنا جاء تصرفه العسكري والديني. وإذا أضفنا الى ذلك أنه كان قادماً للاستفادة الاقتصادية في الدرجة الأولى، أدركنا كيف يمكن أن يكون موقفه. فدعوى حماية المسيحيين من الحيف الواقع عليهم والظلم الذي يحيق بهم كان فيها الكثير من التلفيق.

ولننظر الى هذه القضية نظرة واقعية. في القرن العاشر اعتنق سكان المجر (هنغاريا) المسيحية. وعندها أصبحت إمكانات القدوم الى فلسطين للحج ووفاء النذور أكبر وأيسر. فالانتقال براً لم يكن يكلف نفقات سفر على نحو ما كان تتطلبه سفر البحر. ولذلك ازداد عدد الحجاج. ولعل الكثيرين من الحجاج، الذين كانوا يحتاجون الى السلاح دفاعاً عن أنفسهم في الطريق، أو لأنهم أصلاً من الفرسان حملة السلاح بطبيعة الحال، كانوا يصلون الى الأماكن المقدسة مع هذه الأسلحة. ومن ثم فقد كان تجمّع عدد كبير - نسبياً - أمراً مزعجاً للسلطات. فكان عليها، في نظرها،

أن تضيق الأمر دفاعاً عن مصالحها.

فضلاً عن ذلك، فقد كان القائمون على الأمر في بلاد الشام في القرن الرابع / العاشر مثلاً فئات كانت حديثة عهد بالوصول الى البلاد، ولعلّ بعضها كان حتى حديث عهد بالإسلام. لذلك فالاهتمام بالشعائر المسيحية من زيارة وحج وتبرك لم يكن لها المعنى نفسه الذي كان لها يوم كان الحاكم والوالي والأمير - أي أصحاب النفوذ - عرباً ممن كان الإسلام جزءاً عزيزاً من حياتهم وأصيلاً في نفوسهم، لذلك كانوا يدركون معنى هذه الشعائر عند المسيحيين.

فإذا نظرنا الى الأمر من هاتين الزاويتين أدركنا أنه من الطبيعي أن تكون المعاملة العامّة للحجاج المسيحيين الكثر تختلف عنها للعدد الصغير.

هذا من ناحية؛ وهناك ناحية أخرى حرية بإمعان النظر، وهي أن العامة من المسلمين لم يكن كبح جماحهم متيسراً دائماً، خاصة عندما تستشري الدولة في طلب المال من الناس ويكون جباته وجمّاعه من المسيحيين، على نحو ما كانت عليه الحال في مصر في أيام الفاطميين الأخيرة. ذلك بأن الفئات التي جاءت مع الفاطميين والسودان وغيرهم الذين ضمّهم الفاطميون الى جيشهم وحرسهم، والمحاولات التي قام بها الفاطميون في سبيل الدعوة لأنفسهم في بلاد الشام واليمن والعراق وحتى في خراسان، كل هذه الأمور كانت تقتضي نفقات باهظة؛ وكان على السكان أن يقوموا بدفعها كي تسير الآلة الحكومية وتؤدي وظيفتها. وكان الجباة والحسابون، في كثير من الحالات، من الأقباط. ومن ثم فقد نقم الناس على جابي الضرائب لا على فارضها أو منفقها.

والذي أريد أن أقوله هو أن الحابل اختلط بالنابل، فلم يعد باستطاعة الباحث الاهتداء لا الى السبب ولا الى المسبب ولا الى المسؤول أو السائل. وقد تبدو بعض التفسيرات كأنها تسويغ لتصرف خاطىء بقطع النظر عمّن بدأ وعمّن ثنى.

والذي يمكن أن يقال عن الحروب الصليبية إنها أوقعت ببلاد الشام وما جاورها من الضر والأذى ما لم توقعه حروب أخرى قبلها. فقد جاء حمَلة الصليب من الغرب فأثاروا، بتصرفهم السياسي والتجاري والديني والشخصي، النفور بين المسلمين والمؤمنين المحليين من المسيحيين، الذين كانوا قد عاشوا في البلاد مدة طويلة في ظل دولة الخلافة أولاً، ثم في ظلال أخرى. ولعلهم كانوا يتعرضون للأذى هنا وهناك، لا لأن ثمة سياسة مرسومة لذلك، بل لأن المزاج الرسمي - الملكي أو الأميري - اقتضى ذلك. أما الآن فقد دخل في روع أكثر المسلمين - أمراء وحكاماً ومواطنين - أن المسيحي شخص يصعب الوثوق به. فهو مرتبط بهذا الذي يعيش في الخارج. والواقع الذي يؤكده التاريخ أن المسيحيين المشارقة، في غالبيتهم، لم يقفوا الى جانب

المسيحي اللاتيني الغربي لأنهم لم يكونوا يقبلون بوجهة نظره اللاهوتية، حتى إن عرفها. والذين وقفوا الى جانب القادمين من الخارج فئة صغيرة - نسبياً - وكانت لهم ظروف فيها فائدة، وأحوال فيها نفع.

اقتضى قتال الصليبيين بالنسبة الى الدولة الفاطمية زيادة في النفقات. وتبع ذلك وجوب الحصول على أموال أكثر من الشعب. وقد قيل يومها إن الدولة تدافع عن البلاد ضد غزاة من المسيحيين، لذلك يجب ان تجمع الأموال الإضافية من الأقباط وغيرهم من المسيحيين. ومعنى هذا مص دم عدد كبير من الأقباط. وكان ذلك مصيبة على الكنيسة وعلى الطائفة. فقد حدث بعد مدة أن الطائفة ظلت مدة من دون بطريرك لأنها لم تستطع أن تجمع ستة آلاف دينار وهو المبلغ الذي كان يلزم دفعه للدولة كي يقر الخليفة الانتخاب!

كان الصليبيون القادمون يحاولون جهدهم جذب المسيحيين الوطنيين الى صفوفهم. ولكن هذا لم يتم لهم إلا بالقدر الضئيل. فمن الثابت مثلاً أن المسيحيين كانوا يقاتلون الى جانب صلاح الدين في فتح القدس وفي حصار عكا.

ونحن اذا تصفحنا ما فعلته القيادات الصليبية العسكرية والدينية بالبطريركية المقدسية والانطاكية، أدركنا لماذا لم يلبِّ من المسيحيين إلا قلة التعاون مع المهاجمين.

١- أبدلت بالبطريركية الأرثوذكسية المقدسية (الأوروشليمية) بطريركية لاتينية. وبذلك زالت البطريركية الأصلية ولو موقتاً. وقد التجأ البطريرك سمعان الثاني الى جزيرة قبرص. وبعد وفاته انتخب بطريرك لاتيني (هو أرنول دي روهيز الذي كان كاهناً في خدمة دوق نورمنديا).

وأقام الصليبيون بعد ذلك مطارنة لاتين على المتروبوليتات التالية: صور وقيسارية (قيصرية) فلسطين والناصرة والبتراء. وأعيد تنظيم البطريركية على النسق اللاتيني (فَلْتَيَنوا) كل شيء من أكبر مدينة الى أصغر قرية.

٢- بدلوا الطقوس والعوائد حيث أصبح كل شيء لاتينياً. ولكن هذه المحاولة ولدت كراهية للاتين في نفوس الروم الأرثوذكس، حيث أصبحوا ينتظرون زوال هذا الملك المسيحي.

صحيح أنه كان ثمة بطريرك لبيت المقدس للأرثوذكس يسمى في القسطنطينية، لكنه لم يكن يصل الى القدس. ولما استرجع صلاح الدين القدس سنة ١١٨٧م أخذ البطريرك الأرثوذكسي يقيم في المدينة المقدسة. أما بطريرك اللاتين فقد أقام بعدها في عكا التي أصبحت عاصمة مملكة بيت المقدس اللاتينية، وذلك حتى سنة ١٢٩١م.

٣- على ان الأمر لم يقتصر على منصب البطريرك. إن البطريركية اللاتينية استولت على جميع الأوقاف الأرثوذكسية وضمّتها اليها. وهذه، بالمناسبة، لم تعد جميعها الى الطائفة الأرثوذكسية لما فتح صلاح الدين القدس، بل ظلت بيد البطريركية اللاتينية (التي استمرت وما تزال الى اليوم) بعض الوقت، وقد أعيدت بالمفرق.

والأمر نفسه حدث بالنسبة الى الكنيسة الأنطاكية. فلما أنشئت إمارة انطاكية الصليبية سنة ١٠٩٨م (فقد احتلت قبل القدس) هرب بطريركها يوحنا الخامس الى القسطنطينية لأنه رأى أن الصليبيين أخذوا بتنظيم شؤون الكنيسة على الطريقة اللاتينية.

وقد عين أصحاب الشأن بطريركاً أرثوذكسياً لأنطاكية، ولو أن ذلك لم يكن باستمرار، لكنه كان يقيم في العاصمة البزنطية. وقد يزور كرسيه الشرعي لماماً. لكن البطريرك اللاتيني كان هو الأصل.

وقد يقال، في تسويغ ما أحدثه الصليبيون في بطريركيتي بيت المقدس وأنطاكية، أن مثل هذا التدبير كان طبيعياً. ذلك لأن السلطة كانت بيد الصليبيين وهم من اللاتين، اذاً فمن الضروري أن يكون البطريرك لاتينياً - أي من جنس الحكام ومذهبهم. ومعنى هذا أن الإدارة كانت سياسية دينية من وتيرة واحدة. وقد يكون هذا مسوغاً للأمر. ولكن المهم هو ما ترتب على ذلك من ضياع الطائفة الارثوذكسية نسبياً (لا عددياً فقط) بسبب هذا الهجوم الأجنبي.

وكان من الطبيعي أن يرسم البطريرك اللاتيني متروبوليتيين لاتين وأساقفة لاتين وأن يكون بقية العاملين في الكنيسة من اللاتين. هذا مع العلم بأن بعض الأساقفة كانوا من الأرثوذكس، لكن مكانتهم كانت دون مرتبة أمثالهم من اللاتين.

الفصل السادس

وكانت المشكلة

١. غبار العصور الوسطى

في سنة (١٠٥٤م) تم ما عرف بالانقسام الكبير في الكنيسة المسيحية. انقسمت فيه الكنيسة نهائياً ورسمياً الى كنيسة غربية هي التي يقوم على رأسها البابا، وكنيسة شرقية. والفرق الأساسي هو أن الغرب كان فيه كنيسة واحدة لها عاصمة واحدة هي رومة ولها رأس واحد هو البابا.

أما في الشرق فقد كانت هناك كنائس متعددة، لكل منها رأس هو بطريرك أو جاثليق ولكل كنيسة عاصمتها. وحتى الكنائس التي كانت تتبع تفسيراً واحداً للمسيحيّة (سواء في ذلك القائلة بالطبيعة الواحدة للمسيح أم التي قبلت مبدأ الطبيعتين) كان لها أكثر من رئيس وأكثر من عاصمة. فالكنيسة القبطية والكنيسة اليعقوبية، وقد قبلتا الطبيعة الواحدة، كان لكل منهما بطريرك وعاصمة؛ والكنيسة الأرثوذكسية (الخلقدونية) كان لها بطريركية في الإسكندرية (لليونان خاصة) وأخرى في أنطاكية وثالثة (أصبحت سنة ٣٨١ م الثانية) في القسطنطنية ورابعة (منذ سنة ٤٥١) في القدس.

وهذا الانقسام - ونحن لا نقبل كلمة انفصال التي يصرّ المؤرخون الكاثوليك، والبابويون خاصة، على استعمالها ـ إذ لم يكن هناك انفصال كنيسة عن كنيسة - كان هناك انقسام؛ بدأت طلائعه لما بدأ المسيحيون يختلفون في تفسير الأناجيل والرسائل واستمر ينمو حتى اتخذ الشكل الرسمي سنة ١٠٥٤م.

ولسنا بحاجة إلى التحدث عن الخلاف هنا، فقد أشرنا إلى هذا في أكثر من مناسبة في ما مر بنا من حديث. لكننا نرى من المناسب أن نذكّر القراء بأن الخلفيات هي التي أدت الى هذا الانقسام: الخلفيات العنصرية واللغوية والثقافية والاجتماعية والفكرية. لذلك فإن هذا الذي تم سنة ١٠٥٤ م لم يعدُ أن يكون نتيجة طبيعية لانتشار المسيحيّة في منطقة واسعة، متباينة العنصر ومختلفة الثقافة والفكر واللغة ومتنوعة في البيئة الاجتماعية. والواقع أن المسيحيّة لم تكن الشيء الوحيد الذي أصابه هذا الاختلاف والخلاف بسبب ما ذكر. فالإسلام الذي انتشر أيضاً في بقاع متباعدة وأنحاء مختلفة وبين شعوب متنوعة الخلفيات، أصابه شيء من هذا أيضاً، ولو أن الخلاف بين الكنائس المسيحيّة كان أكبر من الفرق بين الجماعات الإسلامية. وحري

بالذكر أن البابوية كانت دوماً تحاول أن تتخذ من نفسها رئاسة للمسيحيّة في كل مكان. وقد نسي البابوات ومن لف لفهم وضرب بسهمهم أن التنظيم الذي سارت عليه المسيحيّة إدارة (فضلاً عن الأساس العقائدي) كان لا يتلاءم مع رغبة بابا رومة. فقد كانت الكنائس الشرقية (منذ أن اعترف بكبير أساقفة - بطريرك لكل منها) مستقلة حتى عن جارتها، ولو إنها كانت جميعها تقريباً جزءاً من الإمبراطورية البزنطية، وهذا وحده كان كافياً لأن يحول دون التوحيد. فإذا كان ثمة خلاف في نواح من العقيدة والطقوس، فإن التوحيد يصبح أمراً بعيد المنال.

عنيت البابوية بالتشدق بحقها في رئاسة العالم المسيحي في الأوقات التي كانت تدعمها قوة سياسية ذات وزن في الغرب، أو عندما كان الشرق يتعرض لهزات وخضات سياسة. فالقرن السادس مثلاً، بعد أيام يوستنيان، كان فترة اضطراب في بزنطة. ولم يكن الأمر أفضل كثيراً في مطلع القرن السابع. هنا كانت أبواق البابوية تطالب بخضوع الكنائس الشرقية لها، مع أنها لم تكن هي في وضع تحسد عليه في الغرب. ولما توج البابا شارلمان إمبراطوراً رومانياً (٨٠٠ م في عيد الميلاد في رومة) عادت البابوية إلى المطالبة بخضوع الكنائس الشرقية، ولو أن هذه الكنائس (الإسكندرية وأنطاكية والقدس وتفرعاتها) كانت قد أصبحت جزءاً من دولة الخلافة. والذي نود أن نشير إليه هو أن مثل هذا التصرف من قبل البابوية لم يكن له الأثر الطيب بالنسبة إلى مسيحيي الشرق. ذلك بان مثل هذه المطالبة كانت تنعكس سلباً على المسيحيين.

ولما قام الغرب بحملاته الصليبية على بلاد الشام ومصر (١٠٠٩ ـ ١٢٩١ م) كانت لهذه الحملات أيضاً آثار ضارة. فمع أن الكثيرين من المسيحيين لم يقاتلوا في صفوف المهاجمين، ومع أن الكثيرين منهم حاربوا ضد الصليبيين. باعتبارهم غرباء معتدين. فإن المسلم العادي أولاً والحاكم المسلم الأجنبي ثانياً، لم يستطع أن يدرك هذا الأمر الدقيق. فالمهاجم مسيحي، وإذن فالمسيحي المقيم في البلد المسلم هو موضع شبهة وشك. وقد يكتفى بمراقبته، لكن قد تكون نتيجة هذه الشبهة شيئاً آخر، ربما أذى يصيبه في ماله وفي نفسه وأهله.

كانت هناك جماعات في مناطق مختلفة انضمت إلى الجيوش المهاجمة لا بسبب الرابطة المسيحيّة، ولكن بسبب ما يمكن أن يحدث في كل حروب - من حيث الإفادة من القتال قتالاً أو بيعاً أو شراء أو تقديم خدمات متنوعة. والذي نعرفه من روايات متعددة أن مثل هذا التعامل مع الصليبيين الغزاة لم يقتصر على فئات مسيحيّة. إذ إن الحاجة لم تحمل المسيحيين فقط على الإفادة. والواقع هو أن الحروب الصليبية كانت وبالاً على المسيحيين في البلاد الساحلية خصوصاً.

على أن أموراً أخرى كان من أثرها أن أوغرت صدور الحكام المسلمين ضد

المسيحيين من أهل بلاد الشام ومصر. ذلك بأن خسارة آخر معقل من معاقل الصليبيين في الشام (عكا/ ١٢٩١ م) لم يضع حداً للمحاولات الأوروبية للاستيلاء على أجزاء من المنطقة. وحريّ بالذكر أن هذه الحملات، مثل عدد من الحملات الصليبية الأصلية، لم تكن حملات دينية. إن الروح الدينية، على افتراض وجودها إلى درجة ما في الفترة الصليبية الأولى، وضعت على الرف في سبيل الناحية الاقتصادية (خاصة منذ حملة ١٢٠٤ م) التي توجهت إلى القسطنطينية بدلاً من الأراضي المقدسة، واحتلتها وأقامت فيها دولة لاتينية استمرت حتى سنة ١٢٦١ م. وهذه الناحية التي كانت موجودة من قبل هي التي حملت الأوروبيين على محاولة الاستيلاء على مصر (حملة الإسكندرية سنة ١٣٦٥ م) ومحاولة الاستيلاء على أماكن أخرى، ولو بحملات صغيرة. هذه المحاولات لم تكن دينية/ مسيحيّة قط. كانت اقتصادية في الأصل (سبباً) وفي التصرف (أسلوباً) وفي المقصود (غاية). لكن بعض حكام المماليك ثارت حفيظتهم على التجار المسيحيين المصريين متهمين إياهم بالتعاون مع المهاجمين. ولعلّ هذا الموقف الرسمي (غير المعلن) شجع بعض السكان على مهاجمة المسيحيين، هنا وهناك.

على انه يجب علينا ان نتذكر أيضاً انه فضلاً عن الحملات (وكان آخرها حملة نيكوبوليس سنة ١٣٩٦م) كان هناك الدعاة الأجانب الذين كانوا يزورون البلاد مندوبين عن أصحاب النفوذ لدرس خير السبل لاحتلال البلاد المقدسة. وهل الأفضل أن يكون الهجوم عن طريق مصر رأساً أم حتى عن طريق تونس تمهيداً للوصول الى مصر. أم لعل العودة الى الهجوم المباشر على بلاد الشام، وخاصة فلسطين هو السبيل الأوفر حظاً.

استولى المماليك على الحكم في مصر وبلاد الشام (كانت بلاد أخرى تحت نفوذهم). ولنذكر بادىء بدء أن المماليك كانوا مثل السلاجقة، غرباء عن البلاد. ولعلهم كانوا مسلمين بسبب نشأتهم ووجودهم في المنطقة. وكان الاسلام يقبله كل جيل قادم من الخارج، فلم يصبح جزءاً من نسيجهم الاجتماعي على نحو ما عرفه العرب أيام الأمويين والعباسيين الأوائل.

لذلك مع أنهم كانوا يظهرون كل امارات التكريم للإسلام كبناء جوامع وإقامة مدارس ووقف الأملاك على المؤسسات المختلفة من مستشفيات وسبل وغيرها، فإنهم لم يكونوا دوماً يتقيدون بالقواعد الأساسية في تصرفهم نحو الرعايا.

والمماليك كانوا مسرفين في إنفاقهم. ومع أن وارداتهم من الجمارك والإتاوات والتجار كانت كبيرة، فقد كانوا يحتاجون دوماً الى المال للإنفاق على حياتهم الخاصة وعلى الجند الذي يحميهم. نقول يَحميهم ونقصد الحماية الخاصة لكل أمير لا حماية الدولة من حيث انها دولة!

هذه الحاجة الماسة والمستمرة للمال كانت تحملهم على مصادرة أموال الأغنياء

الكبار، وخاصة التجار. كانوا يصادرون - كما صادر سواهم في دولة الخلافة أو دولها - الأموال من الجميع، بقطع النظر عن العقيدة الدينية. لكن لعل نسبة ما كان يصادر من التجار المسيحيين كان أكبر لأنهم كانوا أكثر عناية بالتجارة من المسلمين. وقد ينزل الحاكم عقوبة بالمسيحيين تكون شديدة لأنها تطال كنيسة أو أكثر بالهدم. وهو نوع من العقوبة لم يكن يوقعه الحاكم المسلم على جماعة إسلامية بأن يهدم جامعها (وقد حدث هذا عندما كانت الفروق بين الحاكم والجماعة الإسلامية كبيرة في شؤون العقيدة). والهدم يظهر للعيان، ويتضح ويذكر. ومن هنا نعثر في كتب التاريخ على شكاوى من مثل هذا التصرف.

فلما احتل المماليك جزءاً من أرمينيا هدموا بعض كنائسها الكبيرة، مع أن الإسلام لا يسمح بذلك. ولكن الذين أرّخوا لهذا الفتح قالوا إن المسلمين هدموا الكنائس وهو صحيح. لكنه لا مسوغ له من حيث القواعد الشرعية.

وعندنا خبر يتعلق بلبنان يعود إلى سنة ١٣٠٣ م. في تلك السنة هاجم سكان كسروان جيشاً مملوكياً وقتلوا منه فئة لا يستهان بها. فهاجم المماليك المنطقة ومثلوا بأهلها، فضلاً عن أنهم قتلوا منهم الكثيرين. والذي يقرأ هذا الخبر اليوم، وهو يعرف أن سكان كسروان من المسيحيين، يحسب أن المماليك فعلوا ذلك بالمسيحيين. مع أن الواقع هو أن الأغلبية الساحقة من سكان كسروان كانت يومها من الشيعة. والهجوم إذا أردنا أن نصنفه في خانة القتال الديني، فهو هجوم سني ضد الجماعة الشيعية!

لا نقصد من هذا أن ننكر أن فئات مسيحيّة ظلمت وهضمت حقوقها ونهبت أموالها وقتل أفرادها. لكن يخيل إلينا أن هذا الأمر فيه شيء لا يستهان به من المبالغة والتعميم.

ولعل من آثار الحملات الصليبية هو أن اتفاقاً عقد في سنة ١١٤٢ م بين بطريرك القسطنطينية وملك القدس اللاتيني، كان يقضي بتعيين بطريرك مقدسي للجماعة المسيحيّة المحلية التي ظلت علي عقيدتها ولكنها قبلت بالسلطة البابوية. وكان من بنود هذا الاتفاق أن يذهب هذا البطريرك (لعله في الواقع كان من نوع رئيس الأساقفة أو الأسقف الكبير) إلى القسطنطينية كي يثبت هناك أمام بطريركها الأرثوذكسي والملك. ويبدو أن هذا استمر أيام المماليك، مع أن البطريركية اللاتينية (التي أنشئت أيام الصليبيين) قد انتهى أمرها. ومما يروى أنه في النصف الأول من القرن الرابع عشر انتخب بطريرك (أرثوذكسي طبعاً) اسمه إلعازر، وكان غائباً وقت انتخابه فاغتصب جراسيموس المنصب. وذهب الاثنان إلى القسطنطينية، وهناك أدلى كل بحجته أمام البطريرك القسطنطيني. فاحتجز هذا الاثنين وكتب إلى السلطان المملوكي يطلب منه رأيه؛ وحقق السلطان بالأمر، ووجد أن إلعازر هو صاحب الحق،

فكتب بذلك إلى البطريرك الذي ثبّت إلعازر في منصبه. (تولى إلعازر البطريركية ١٣٣٥ ـ ١٣٦٠ م).

ومما روي أن سقوط القسطنطينية في أيدي العثمانيين سنة ١٤٥٣ م أدخل السرور على السلطان المملوكي فاحتفل بذلك بمصادرة أملاك بعض المسيحيين وسجن آخرين وهدم بعض الكنائس.

كان الاحتلال العثماني لبلاد الشام ومصر سنتي ١٥١٦و١٥١٧ للميلاد، وإتمام احتلال العراق وشمال افريقية في العقود التالية من القرن السادس عشر، حدود التبديل المهم في تاريخ المنطقة بأكملها. لذلك فإننا قبل أن ننتقل الى العصر العثماني نرى أن نتناول المسيحيين الذين كانت مراكزهم الأصلية خارج مصر وبلاد الشام، ولو انهم كانوا مع ذلك في حدود الدول الاسلامية في العراق وما جاوره.

أول هذه الجماعة هم اليعاقبة الذين كانوا قد تقدموا في أيام الخلفاء الأوائل، وكانت لهم مراكز مهمة في بلاد الخلافة الشرقية على ما مر بنا. ولما توغل المغول غرباً في فتوحهم، شملوا اليعاقبة الذين كانوا قد انتشروا شرقاً بالكثير من العطف. أما انه قد اصابهم الكثير من الضر في أثناء الزحف نفسه، فأمر طبيعي، اذ انه لم يكن في حسبان الغزاة أن يفرقوا بين الناس. إلا أن الأمر تبدل بعد سنة ١٢٩٥م. ففي تلك السنة اعتنق غازان الاسلام. وهنا تعيد القصة نفسها. هؤلاء الذين اعتنقوا الاسلام مجدداً لم يفهموا روحه، وتعلقوا بالقشور، فظنوا أن الإساءة الى أتباع الأديان الأخرى شيء مشروع. لذلك تعرض المسيحيون اليعاقبة، كما تعرض المسيحيون النساطرة، على ما سنرى، لاضطهاد شديد وقمع أشد. وجاءت حملات تيمور لتزيد الأمر ضغثاً على إبالة. ذلك بأن جنوده جعلوا المراكز اليعقوبية الأصلية قاعاً صفصفاً، فدمروا آمد (ديار بكر) وماردين والموصل وطور عابدين وتكريت؛ وقتلوا الكثيرين من المسيحيين. ومن هنا فان تدمير العدد الكبير من الديارات (الأديرة) اليعقوبية يعود الى هذه الفترة.

وهكذا فان الأتراك العثمانيين لما دخلوا المناطق التي كان لليعاقبة فيها ازدهار، كانت قد أصبحت خربة، ولم يكن عدد اليعاقبة حتى في القرن الثامن عشر، يزيد على مئة وخمسين ألفاً. (وقد قدر العدد بنحو مئتي ألف، واعتبر البعض هذا مبالغة).

الكنيسة الثانية التي تعنينا، مما كانت قد ازدهرت أيام دولة الخلافة الأولى هي الكنيسة النسطورية. وقد أُخرج النساطرة من الدولة البزنطية على ما مر بنا، فوجدوا ملجأ في دولة الساسانيين. وقد احتضنهم الخلفاء الأوائل من الدولة العباسية، فكانوا بناة العلم والمعرفة فيها.

كان بطريرك النساطرة الوحيد الذي اتخذ من بغداد، عاصمة الخلافة، مركزاً له

بسماح من الخليفة طبعاً.

واذ كانت الكنيسة على درجة كبيرة من الثراء أصبح مركز البطريرك كبيراً بالنسبة الى الادارة المركزية. إلا ان هذا لم يلبث أن عكس الأمر تماماً. أصبح البطريرك يُنظر اليه كأنه واحد من موظفي الدولة الكبار، ومن ثم كان الخلفاء ومن حولهم يستفيدون من ذلك بانتدابه للقيام بمهمات دبلوماسية الى عواصم المسيحية مثل القسطنطينية وروما.

وبسبب هذا المقام الذي اعتبره الكثيرون أمراً مهماً أصبح كرسي البطريركية مما يطمح فيه. ومما يروى أن ثيموتاوس الأول (٧٧٩- ٨٢٩م) وضع أمام ناخبيه أكياساً ثقيلة على أن تفتح بعد انتخابه؛ وقد حسب الكل أنها مملوءة بالنقود. فلما تم انتخابه وفتحت وجدت مملوءة بالحجارة. ومع أن الأساقفة الحاقدين جربوا أن يقترعوا لبطريرك آخر، فإن محاولتهم ذهبت أدراج رياح، لأن انتخابه كان قد نال موافقة الخليفة، وهذا أمر كان دوماً ضرورياً لتثبيت الانتخاب وتولي المنصب. وقد دفع الف دينار ثمناً للبطريركية سنة ١١٤٨م.

ومع تأخر الخلافة وتضعضعها ضعفت الكنيسة النسطورية. وفي القرنين الثاني عشر والثالث عشر أصبحت الكنيسة، والبطريركية بطبيعة الحال، نهباً مقسماً بين الدويلات التي قامت في ظلال الدولة العباسية.

لكن الكنيسة النسطورية تأثرت بالاتجاه المغولي غرباً وخاصة على أيدي تيمور، حيث أنها انحصرت - طائفة وكنيسة وبطريركية (بالنسبة الى العالم العربي وجواره) - في منطقة مرتفعات هاكياري الواقعة بين بحيرتي أورمية وفان.

وهكذا فقد تم انعزال النساطرة عن الحياة الثقافية والفكرية انعزالاً تاماً، وأصابهم ما يمكن ان يشار اليه كأنه تحجر اجتماعي.

حريٌ بنا، قبل ان ننتقل الى العصر العثماني الذي كان له اتجاهه الخاص نحو الإدارة والرعايا، أن نودع الفترة المملوكية في الشرق وما يقابلها في أوروبة زمناً، ببضع ملاحظات أساسية.

أولاً: كان المسيحيون، بالنسبة الى الاسلام، أهل ذمة، مثل بقية أهل الكتاب. لهم أوضاع خاصة في الدولة الاسلامية. ولعلنا لا نعدو الصواب كثيراً إذا لجأنا الى تعبير حديث وقلنا إنهم كانوا مواطنين من الدرجة الثانية، لهم حق الحماية والرعاية، وعليهم الطاعة والأمانة للدولة. على أننا لا نستطيع أن ننسى أن حكم الشرع هذا لم يطبق دائماً بالدقة الواجبة؛ وقد أشرنا الى هذا قبلاً فلا نريد العودة إليه.

ثانياً: في أيام المماليك تطورت الأمور حيث أن جمع الجزية من أهل الكتاب (أهل الذمة) عهد به الى رؤسائهم الروحيين. فكان البطريرك مثلاً أو من ينوب مكانه محلياً،

هو الذي يحتفظ بالسجلات المتعلقة بأفراد طائفته، فيدوّن أخبار المواليد والمتوفين، كي يتمكن من جمع الجزية ممن يتوجب عليه وينقلها الى خزينة الدولة. وسنرى أن هذا النظام ورثه العثمانيون وعملوا به.

ثالثاً: هناك الموقف الغربي من المسيحية والمسيحيين بقطع النظر عن الكنيسة التي يتبعون أو الطائفة التي اليها ينتمون. هذا الموقف هو الذي اتخذته البابوية أساساً لتصرفها. وقد وضع القواعد الرئيسة له البابا إنوسنت الرابع (١٢٤٣-١٢٥٤م) وتطور بعض الشيء، لكن الأسس ظلت على ما كانت عليه. والأسس التي اعتمدها الموقف (الأصل والمتطور) يمكن تلخيصها فيما يلي:

١- البابوية هي المسؤولة عن المسيحية والمسيحيين بقطع النظر عن طوائفهم ومذاهبهم ومكان إقامتهم. ومعنى هذا أن البابوية كانت تضع المسيحيين (المشارقة) سواء كانوا مقيمين في دولة (دول) الخلافة أم في الدولة البزنطية على مستوى واحد. فجميعهم - سواء أدانوا للبابوية أم لا - هم همّ البابوية، وعلى البابا أن يبذل جهده في سبيل تبشيرهم بالكثلكة والدفاع عنهم.

٢- الدفاع عن المسيحيين سبيله الحرب. ومعنى هذا أن الحرب الصليبية لا يمكن الاستغناء عنها؛ وأن هذه الحرب (أو الحروب) يمكن أن تشن إما ضد الدول الإسلامية أو الدول التي تؤوي الكنائس غير التابعة للبابا مباشرة.

٣- وإن لم يكن ثمة سبيل لشن الحرب - ولو موقتاً - فلتعلن حرب تبشير لاستعادة هؤلاء المسيحيين الذين ضلّوا (وهم لم يضلوا. وكل ما هناك أن خلافاً جوهرياً دخل في جسم المسيحية فجعل من أتباع الدين الواحد مذاهب مختلفة وطوائف متعددة). والتبشير يمكن أن يتم بأي واسطة متيسرة.

٤- في الوقت الذي كان فيه انوسنت الرابع يحتل العرش البابوي، كانت القيادة الصليبية تهتز أمورها في الأرض المقدسة اهتزازاً كبيراً. وكانت مملكة القدس اللاتينية (وقد أصبحت عكا عاصمتها) تقلصت مساحتها؛ والحملة التي أمل الكثيرون من مسيحيي أوروبا (في فلسطين وفي أوروبة) الخير على يديها، أي حملة سنة ١٢٠٤م، اتجهت نحو القسطنطينية (استراتيجياً وتجارياً). فلم تنفع المملكة في شيء. وكان الكثيرون من الافرنجة قد تبلدوا، على حد تعبير أسامة بن منقذ، واستكانوا الى حياة فيها من الدعة الكثير، فآثروا العافية. فضلاً عن ذلك فقد كثرت الخلافات بين الفرق والفئات المسيحية المختلفة حول المنافع التي تجنى والفوائد التي يتوقعها المحاربون. واتخذت الخلافات شكل قتال بين الجماعات المتعددة حتى داخل المدينة الواحدة. وقد حدث، غير مرة، أن بعض نبلاء الإقطاع اللاتيني تحالفوا حتى مع أمراء من المسلمين ضد خصومهم من أبناء جلدتهم. ومن هنا كان إصرار إنوسنت الرابع،

في قواعده المذكورة، أنه لا يجوز التخلي عن الأرض المقدسة (أو الأماكن المقدسة) ولا بشكل من الأشكال، حتى شرعاً كانت القدس وبيت لحم قد خرجتا عن النفوذ الصليبي الافرنجي منذ ان احتلها صلاح الدين سنة ٥٨٣ هـ/١١٨٧م.

٥- ولعل موقف البابوية هذا هو الذي سمح للروح المقاتلة في أوروبا الفرنجية خاصة حياة في سبيل استرجاع المدينة المقدسة. على أن هذا الشعور، الذي قد يكون دفيناً، لم يكن كله دينياً - كان هناك الكثير من النظرة التجارية التي تحرك العمل إذ تحركها الاطماع.

رابعاً: هذا كله لم يكن مما يفيد المسيحيين المقيمين في دار الاسلام. ذلك بأن النظرة الرسمية (وشبه الرسمية) لمثل هذه الأمور كانت دوماً يخالطها شيء من الشك في احتمال أن يكون لدى هؤلاء المسيحيين المشارقة ما يقربهم من المسيحية الغربية الرسمية. وهذه كانت مصدر خطر لجميع المسيحيين. ومن هنا فإن تصرف البابوية لم يكن مما ينفع المسيحيين، بل لا شك انه أساء اليهم، أمام السلطات والشعب. وقد نالهم الأذى بسبب ذلك.

ولعله مما يجب ذكره هنا، ونحن نودع الفترة المملوكية هو أن كرسي البطريركية الأنطاكية نقل الى دمشق في أواسط القرن الرابع عشر الميلادي أو بعد ذلك. فهناك تواريخ تعطى لهذه النقلة، ولعل الخلاف بينها ليس سببه الخلاف في الرواية، ولكن الخلاف في النقل الموقت أو المستقر (التواريخ الأربعة).

٢. وجاء العثمانيون والمبشرون

في القرن السادس عشر انتقلت بلاد الشام ومصر والعراق وشمال إفريقية الى الحكم العثماني. ففي سنتي (١٥١٦و١٥١٧م) استولى سليم السلطان العثماني على بلاد الشام ومصر، وفيما تلا ذلك من العقود ضمت شمال افريقية والعراق.

ورث العثمانيون التنظيم المملوكي المتعلق بالجوالي وترئيس البطريرك أو الكاثوليكوس [الجاثليق] عليها (فيما يتعلق بالمسيحيين). وقد طور العثمانيون هذا الأمر بان أصبح عندهم نظام الملة [جمعها: ملل]. فكانت كل طائفة، عندما تعترف الدولة العثمانية بها، تصبح وحدة اجتماعية علاقتها الرسمية بالدولة تتم عن طريق هذا الرئيس الروحي.

على أن السلطان سليم لما احتل بلاد الشام ومصر اعتمد تنظيماً غريباً مع الطوائف المسيحية. فقد جعل الكنائس التي تقبل الطبيعة الواحدة تحت نفوذ الجاثليق أو البطريرك الأرمني. فكان الأقباط واليعاقبة والسريان والنساطرة والغريغوريون تابعين للبطريرك الأرمني. أما بطريركية أنطاكية الأرثوذكسية ومثلها بطريركية أورشليم (القدس) فكانت تحت نفوذ بطريرك القسطنطينية. وكان من أثر هذا أن هذا البطريرك اغتنم الفرصة وبسط سيطرته على سورية وفلسطين، أي على البطريركيتين الانطاكية والمقدسية. وكان أن تولى سدة البطريركية المقدسية جرمانوس اليوناني (١٥٣٤-١٥٧٩م) فأفاد من سلطة البطريرك القسطنطيني اليوناني وتأييد الدولة، فأقصى الوطنيين عن المناصب الكنسية وحصر البطريركية والأسقفية بالعنصر اليوناني. ولعل جرمانوس هذا تستحق بطريركيته إشارة خاصة. فهو كان يوناني الأصل، ولكنه اختلط بالعرب الى حد أن احداً لم يشتبه به أو يشك في صميم عروبته. وقد ترقى في السلّم الكهنوتي حتى تسنم الكرسي البطريركي. وكان كلما توفي أحد الأساقفة العرب سام مكانه يونانياً. حتى أصبح جميع الأساقفة (المطارنة) من العنصر اليوناني. لكن أهم ما فعله هو تنظيم «أخوية القبر المقدس» التي قصر عضويتها على اليونان، حيث أن أي عربي لا يمكن أن ينضم اليها، ومن ثم أن يكون راهباً. فمن دخل الأخوية تقدم في المناصب الكنسية العالية. ومن هنا فقد ظلت عضوية الأخوية لليونان، وما يزال الأمر الى الآن، وهو أن جميع المطارنة وكل بَطْريرك

هنا يوناني (سيم مؤخراً عربي أسقفاً في البطريركية، لكن من المؤكد انه لن يسمح له بالتقدم أكثر من ذلك).

ومثل هذا فرض على البطريركية الأنطاكية. لكن ذلك انتهى أمره سنة ١٨٩٨ م، إذ ثار الكهنة العرب السوريون (أتباع البطريركية الأنطاكية الأرثوذكسية) وفرضوا وجودهم. ومن ذلك الوقت أصبح جميع الأساقفة وكل بطريرك من العرب.

وليس من شك في أن اتباع هؤلاء الأرثوذكس بطريرك استانبول وتقوية نفوذه هو الذي مكّن لجرمانوس وغيره من التصرف على النحو المذكور.

كان الباب العالي حريصاً على الحصول على المال، وكانت تنظيمات (الملة) تنفعه في ذلك. من هنا كان حرص الباب العالي على زيادة عدد الملل المسيحية. ومن الجماعات التي أصبحت تعتبر مُلة الكنيسة اليعقوبية. وبهذه المناسبة فإن مقر البطريركية (الأرثوذكسية) الآن هو حمص ويتبعها ست عشرة أسقفية أو ما الى ذلك: منها سبع في جنوب الهند وثلاث في سورية واثنتان في العراق واثنتان في تركية وواحدة في مصر وواحدة للولايات المتحدة وكندا.

ونحن إذا أخذنا المسيحيين ومنظماتهم قطراً قطراً في الفترة العثمانية الأولى وجدنا أن الأمر الذي كان اساسياً في مصر هو أن العثمانيين لم يحكموا القطر حكماً عثمانياً قط. فقد كان الباشا العثماني (وهو تركي) والمماليك الذين ظل لهم نفوذ قوي والجيش يسعون جميعاً للحصول على المال من البلد. كل يسعى منفرداً وكأنه هو الوحيد الذي يحق له أن يجمع الضرائب والإتاوات، لذلك كان العبء على كاهل الشعب ثقيلاً.

وقد كان للأقباط دور كبير في الشؤون المالية والإدارية في هذا التنظيم. وأتيح للبعض منهم أن يجمعوا ثروة كبيرة مثل الأخوين جوهري.

كانت الدولة العثمانية تنظر الى الأقباط نظرة فيها الكثير من العدل والإنصاف. فقد سمحت استانبول ببناء كاتدرائية الأزبكية، كما عمّرت كنائس قديمة كانت قد هدمت في عهود سابقة. وأعيدت الدراسات القبطية الى الكثير من مكانتها.

وكان عصر محمد علي عصراً مشجعاً على تطوير الشؤون الكنسية القبطية في أيام بطرس السابع الذي تولى الزعامة القبطية من سنة ١٨٠٩م الى ١٨٥٢م. ففي أيامه سيم أول أسقف للسودان وأرسلت بعثة قبطية دينية الى إثيوبيا.

استمر الأمر في أيام كريلّس الرابع الذي اهتم بالتعليم الابتدائي وأنشأ الكلية القبطية الأرثوذكسية (التي كلفت ٦٠٠ ألف قرش وهو مبلغ ضخم). ووهب الخديوي اسماعيل هذه الكلية ١٥٠٠ فدان من الأرض لضمان المصاريف لها. وفتح بطرس هذا، الذي تولى شؤون البطريركية من سنة ١٨٥٤ الى ١٨٦١م أول كلية للبنات في مصر،

وأتمّ بناء الكاتدرائية السابقة الذكر.

إن أكثر ما أساء الى المسيحيين العرب في العصور الحديثة هو تدخل المبشرين في حياتهم. ذلك أن هذه الاتصالات التي تمت على يد المبشرين كانت أحياناً ترتبط بالدبلوماسيين الأوروبيين. لذلك كانت، أحياناً كثيرة، تلقي ظلالاً من الشك لا مسوغ لها على تصرف المسيحيين العرب، وتحمل جيرانهم وأبناء وطنهم من المسلمين على أن ينظروا الى القضية نظرة فيها شيء من الشك والريبة.

والمهم هو أن المحاولات التبشيرية الكاثوليكية كانت تنظر الى المسيحيين العرب التابعين للكنائس الأرثوذكسية الأصلية على أنهم خوارج عن المسيحية لأنهم لا يقبلون بسلطة البابا. فالقضية لم تكن محض محاولة لإرشادهم بل الأصل فيها إنها محاولة لإخضاعهم.

ولنبدأ باليعاقبة الذين أخذ المبشرون الكاثوليك يعملون بينهم منذ القرن السادس عشر (هذا الخبر المدون). فقد زارت بعثة يعقوبية رومة سنة ١٥٥٢م. ولسنا نعرف شيئاً مؤكداً عن نتيجة عملها المباشرة. لكن ثمار العمل التبشيري الروماني بدأت بالظهور في أواسط القرن السابع عشر. فقد اعتنق عبدالعال أخيجان المارديني اليعقوبي الكثلكة وهرب الى لبنان. وهنا سيم مطراناً سريانياً كاثوليكياً على حلب على يد البطريرك الماروني، لكن بطلب من القنصل الفرنسي في حلب. وقد تسمى أندراوس وأصبحت له رعية مكونة من عدد صغير (سنة ١٦٥٦م). ولما توفي البطريرك اليعقوبي في ماردين، عمل القنصل الفرنسي في حلب ودبلوماسي فرنسي آخر على أن يصل أندراوس الى السدة البطريركية. ووافق السلطان العثماني على ذلك وأمر جميع الموظفين والقضاة بأن يعتبروا أندراوس الرئيس لجميع المسيحيين اليعاقبة في سورية. وبعث البابا له بدرع التثبيت سنة ١٦٦٧م. هنا ولدت بطريركية السريان الكاثوليك. وقد نمت الكنيسة الجديدة وأنفقت الأموال الطائلة على كنائسها وفتحت أبواب كلية القديس يوسف أمام أبناء الطائفة الجديدة (أنشئت الكلية سنة ١٨٧٥م).

وكانت ثمة محاولة ثانية في أواخر القرن الثامن عشر على يد المطران جروه لانتزاع البطريركية، لكن المحاولة أخفقت وهرب جروة الى لبنان. وقام البطريرك (السرياني الكاثوليكي) أغناطيوس أفرام الرحماني (١٨٩٨-١٩٢٩م) بنقل مركز البطريركية الى بيروت.

ولنتحدث عن التبشير الكاثوليكي في الكنيسة الأرمنية، لأن أتباعها، ولو انهم ليسوا عرباً، فهم مشارقة وجيران. فقد بدأ العمل التبشيري الكاثوليكي في القرن الثامن عشر وبحماية فرنسة والتدخل الفعلي للسفير الفرنسي في استانبول. وقد أغري مطرانا ماردين وحلب على الانضواء تحت راية البابا، لكن رجال الدين من أتباعهما لم

يقبلوا بتصرفهما.

وتم اختراق الكنيسة الأرمنية عن طريق إنشاء رهبنة أرمنية كاثوليكية (١٧١٧م). وأخيراً أنشأ الكاثوليك المركز الرئيسي للتبشير في لبنان. وأصبح هناك بطريركية أرمنية كاثوليكية وانتقل كثير من الأرمن الى الكثلكة، حيث انهم اعتبروا ملة رسمية سنة ١٨٣٠م.

كانت فكرة توحيد الكنائس المسيحية تحت قيادة البابا ورئاسته تبرز بين فترة وأخرى، على ما أشرنا. وقد كان هناك محاولات لعقد مجامع أشير اليها على انها مسكونية ولم تكن كذلك. على كل، في سنة ١٦٣٠م أسس في القاهرة مركز كاثوليكي على يد راهب كبوشي. لكن ذلك لم يكن له أثر.

وفي سنة ١٦٧٥م عاودت المؤسسات الكاثوليكية محاولتها. فأنشأ الفرنسيسكان مركزاً في مصر العليا كما أقام اليسوعيون مركزاً في القاهرة.

في سنة ١٧٤١م اعتنق أناستاسيوس مطران القدس القبطي الكثلكة، كما تكثلك قبطي آخر وهرب الى رومة. وهذان المثلان لم يؤثرا على الاقباط، اذ اعتبروهما مارقين وطنياً.

من الأمور العجيبة أن الحملة الفرنسية في مصر يسرت للمبشرين الكاثوليك سبل العمل في القاهرة فانحاز بعض الأقباط الى الكثلكة. وقد كان يوساب أكبر خصم للعمل الكاثوليكي. وقد تم قيام طائفة أقباط كاثوليك كما ظهر سريان كاثوليك وروم كاثوليك وكلدان (كاثوليك) من النساطرة. ويبدو أن هذه الفئة من النساطرة قبلت بالكثلكة على أساس أنها خيط أمل للحياة الجديدة، بعد ما أصاب الكنيسة النسطورية من تقهقر.

ولسنا بحاجة الى التحدث عن البعثات الكاثوليكية للموارنة، فالموارنة كانوا منذ القرن الثاني عشر قد قبلوا بالسيادة البابوية. لكن الكنيسة المارونية لم تقبل الطقوس الكاثوليكية الرومانية (اللاتينية) بل ظلت محافظة على شخصيتها الأصلية.

دخل المبشرون البروتستانت (الإنجيليون) ميدان التبشير في العالم العربي في أوائل القرن التاسع عشر. [باستثناء محاولة كلفينية مبكرة تعود الى سنة ١٦٣٤م وكانت في فلسطين، لكنها لم تترك أثراً].

والمبشرون كانوا من بريطانية ومن الولايات المتحدة. وقد كانت بلاد الشام من أوائل المناطق التي وجّه هؤلاء اهتمامهم نحوها. ويمكن القول بأن المبشرين الأميركان جاءوا، من أول الأمر، بقصد التبشير. أما المبشرون الأنغليكان فقد اهتموا بالنواحي التعليمية والاجتماعية تاركين لهذه الأشياء أن تحمل الناس على قبول آرائهم ووجهة نظرهم.

ولسنا ننوي التحدث عن تاريخ الإرساليات والأعمال التي قامت والجماعات التي انتزعتها من أتباع الكنيسة الأرثوذكسية بشكل خاص. فلا شك ان الأعمال الجيدة كثيرة ولكن الذي نريد أن نقوله هنا، وقد ذكرناه من قبل، هو أن مجيء المبشرين، خاصة عندما كان العمل يرتبط بالسياسيين والدبلوماسيين، كان يسيء الى المسيحيين العرب من نواح مختلفة.

ونضع هنا ملاحظة مختصرة سنعود اليها في الفصل التالي لتوضيحها، وهي أن عدداً من المفكرين المسلمين لما دعا المسيحيون العرب الى القومية العربية، اعتبروا هذا العمل موجهاً ضد المسلمين والإسلام.

ومع أن هذا الأمر عمل على توضيحه كتّاب مسلمون منصفون، فإن عدداً من الكتّاب المسلمين المحدثين عادوا الى الضرب على هذا الوتر.

والسؤال هو لماذا؟ وهل في هذا العمل إنصاف للقومية العربية ودعاتها؟

٣. ترابط وتقاطع

أشرنا قبلاً الى الترابط الذي ظهر بين الأعمال التبشيرية، خاصة الكاثوليكية، والنشاط الدبلوماسي والسياسي الذي كان يؤيدها. ولعل من المفيد الإشارة هنا الى الامتيازات الأجنبية التي بدأت لما منح السلطان سليمان القانوني الرعايا الفرنسيين حقوقاً وامتيازات تجارية خاصة، بناء على اتفاق عقده مع فرنسوا الأول ملك فرنسة سنة ١٥٣٦م. هذه الامتيازات التجارية أصلاً اخذت دائرتها تتسع وامتيازاتها تتعمق وتقوى حيث شملت دولاً كثيرة من أوروبا. كما انها أصبحت سبيلاً لحماية أفراد من رعايا الدولة العثمانية عن طريق منحهم جنسية البلاد الأجنبية. ولسنا نود هنا أن نفصل هذه القضية، لأن الذي يهمنا هو استغلال الدول الأوروبية هذه الامتيازات لبسط حمايتها على طوائف معينة، لانها كانت تحاول الانتقال الى مذهب جديد هو مذهب تلك الدولة العلمانية في أوروبا. وكانت فرنسة السبّاقة وتلتها النمسا. أما بريطانية فكانت تتصرف بكثير من اللباقة في هذه الأمور. ولكن عملها كان ذا أثر كبير.

ونرى أن نضع أمام القارىء ملاحظات تساعده في تتبع ما سيأتي فيما بعد.

١- كانت ثمة محاولة من قبل أتباع كلفن، المصلح البروتستانتي السويسري، في اتجاه الطائفة الأرثوذكسية في البطريركية الأورشليمية (المقدسية). ويبدو أن أحد الأساقفة، واسمه كيرّس أو كاريس قبل بعض هذه التعاليم سنة ١٦٣٤م فوقف في وجهه جمهور الأساقفة الأرثوذكسيين. وقد كان البطريرك دوسيتاووس الثاني الخصم اللدود لهذه التصرفات (تولى البطريركية في سنة ١٦٦٩-١٧٠٧م).

ففي سنة ١٦٧٢م عقد المجمع الأورشليمي [عقد في الواقع في بيت لحم]. وفضلاً عن تأييد القرار السابق بتحريم تعاليم كريلس، فإن المجتمعين وضعوا كتاباً (مجموع قرارات) في ١٧ فصلاً بسطت فيها التعاليم الأرثوذكسية الصحيحة.

٢- في سنة ١٥٨٣م أرسل البابا غريغوريوس الثالث مندوباً اسمه ليوناردو هابيل (وهو مالطي الأصل) الى سورية ودعمه براهبين يسوعيين. وكان القصد من هذه الرحلة تجديد الدعوة الى الاتحاد، أي قبول السلطة البابوية سلطة تامة على المسيحيين. كما أن الجماعة جربت نشر التقويم الجديد الغريغوري.

زار ليوناردو بيت المقدس ودمشق وطرابلس وحلب. وقدم المندوب تقريراً وافياً الى البابا عن أعماله والوعود التي حصل عليها. ويظهر من التقرير أن الجماعة الوحيدة التي كتبت (بإيعاز المندوب) الى البابا مظهرة التعظيم والخضوع له هي جماعة من الموارنة من منطقة مجاورة لطرابلس على ما يبدو من التقرير.

قال الأب جوزيف شماس عن هذه الزيارة: «إن مجيء المندوب المذكور (ليوناردو هابيل) الى هذه البلاد كان فاتحة خير وبدء العصر الحديث، عصر النهضة والإصلاح والتجديد. فإن مهمته وإن لم يتوفق فيها حالاً (كما كان يتمنى) كانت بذاراً صالحاً أتى مع الزمان بأشهى الثمار». أي ثماراً شهية جاءت مع هذه الزيارة؟

٣- كان رجال الحكم في الدولة العثمانية من الصدر الأعظم حتى متصرف القدس أو حتى المتسلم المحلي واقعين في حيص بيص حول الأماكن المقدسة في بيت المقدس وبيت لحم. فقد كانت هذه للطائفة والبطريركية الأرثوذكسية حتى زمن الحروب الصليبية. فلما احتل الصليبيون القدس قضوا على البطريركية الأرثوذكسية في بيت المقدس وأقاموا بطريركية لاتينية واستولوا على الأماكن المقدسة وأماكن الزيارات وما يترتب على ذلك من موارد مالية.

وبعد فتح صلاح الدين بيت المقدس (١١٨٧م)، ثم في أيام المماليك، أعيدت البطريركية الأرثوذكسية الى القدس (بعد أن كان البطريرك يقيم في القسطنطينية) وعادت أكثر الأماكن المقدسة الى أصحابها الاصليين. لكن في القرن السادس عشر وفي القرن السابع عشر تقوى اللاتين، وأكثرهم من الأجانب، بسبب التأييد الذي كانوا يحصلون عليه من فرنسة، وأخذوا يستولون على الأماكن المقدسة إما استبداداً أو تزويراً حتى للعهدات القديمة الثابتة. وكان أهل الحكم في بيت المقدس والآستانة يؤيدونهم إما بسبب الرشاوى أو بسبب النفوذ القوي في العاصمة.

٤- في أواخر القرن السابع عشر التجأ مطران حلب اليوناني أثاسيوس الى اليسوعيين، وكان هو مؤسس طائفة الروم الكاثوليك في تلك المدينة. لكن أثاسيوس «كان متردداً حائراً ما بين الأرثوذكسية والكثلكة وظل طول عمره حائراً يعرج بين الجانبين».

٥- بين سنتي ١٦٨٧ و١٧٢٤م نجحت المحاولات المختلفة، وبكثير من العمل اليسوعي والفرنسيسكاني، في جذب فئات من الطائفة الأرثوذكسية الى الاتحاد مع البابوية. هذه هي الأصول التاريخية لطائفة الروم الكاثوليك التي كان لها بطريركية واحدة انطاكية، وكان لها نيابات كاثوليكية في كل من بيت المقدس والقاهرة. وقد كان أفتيميوس الصيفي، متروبوليت صور وصيدا ومؤسس الرهبانية المخلصية (نسبة لدير المخلص قرب صيدا) هو زعيم الكاثوليك في تلك الفترة (١٦٤٣- ١٧٢٣م). وقد بدأ

عمله الكنسي شماساً في سنة ١٦٦٦م. وأرسل صورة اعترافه بالإيمان الكاثوليكي الى رومة سنة ١٦٨٣م.

٦- في سنة (١٧٢٤م) تم انفصال الروم الكاثوليك عن الأرثوذكسية رسمياً.

غريب هذا الموقف الذي اتخذته البابوية والمسيحية الأوروبية من المسيحية الشرقية. موقف بابوي يحتم على جميع المسيحيين القبول بمكانته وبسلطته. صحيح أن هذا الموقف تطور قليلاً مع الزمن على ما سنرى، لكنه لم يكن يقبل أقل من الخضوع التام أصلاً. واذا كانت هذه الجماعات المسيحية الأرثوذكسية التي تقوم في أنحاء واسعة من المشرق، ترفض قبول الرأس المسيحي الأول، أي البابا، بالإقناع، فلتحاول أوروبة القوة والإكراه.

والحملات الصليبية، فضلاً عن ناحيتها العسكرية والاقتصادية، كانت محاولة للسيطرة على الأرثوذكسية عن طريقين: الأول، إلغاء البطريركيتين الأرثوذكسيتين في أنطاكية وبيت المقدس (١٠٩٨ و١٠٩٩م). أما الثاني فضرب القسطنطينية رأس الأرثوذكسية الأقوى سنة ١٢٠٤م.

ولما رفض الأرثوذكس قرارات مجمع فلورنسة (١٤٣٩م) أصبحوا في نظر البابوية، لا هراطقة فحسب، بل عصاة يجب أن يؤدبوا. ولأن البلاد المشرقية قد أصبحت منذ مطلع القرن السادس عشر جزءاً من الامبراطورية العثمانية، وكانت هذه قوية مخيفة (لأوروبة) ومزعجة للملوك الغربيين بسبب الفتوح المستمرة، فإن حملة لإخضاع المسيحيين المشارقة الأرثوذكس لم تعد ممكنة. لذلك عملت القوى البابوية على تفتيت هذه الطائفة من الداخل.

وقد يسّر القائمون على شؤون الطائفة الأرثوذكسية في بطريركية انطاكية والقدس، وهم من العنصر اليوناني، للفعاليات الكاثوليكية أن يكون لها بعض النجاح (الذي ازداد مع الزمن كما مر بنا). أهمل هؤلاء المتصرفون شؤون الطوائف الأرثوذكسية - تعليماً واجتماعاً وقسساً وعناية روحية. فلما جاءت تلك البعثات وفتحت المدارس دخلها أبناء الأرثوذكس. ومع الوقت أدخلوا في النظام الجديد.

ونحسب أن هناك أمراً لعل الباحثين لم يتنبهوا له من قبل. ذلك أن قيام حركة الإصلاح الديني في أوروبا وخروج جماعات كبيرة ومناطق واسعة عن السلطة البابوية، حمل الفاعليات الكاثوليكية على مضاعفة الجهود للسيطرة على الأرثوذكسيين. ومن هنا جاء التطور في الدعوة. فبدلاً من الطلب من الأرثوذكس أن يصبحوا كاثوليكاً في كل شيء - في العقيدة والطقوس - صار العاملون في الحقول التبشيرية يكتفون بالموافقة على العقيدة على أن تحتفظ الجماعة بطقوسها ولغتها الكنسية: أي إن البابوية أصبحت تقبل بالانضمام بدل الانتقال التام. أما هذا فهو الذي حدث نهائياً بعد سنة ١٧٢٤م.

صحيح أن الدعاة الكاثوليك نشروا المسيحية الغربية في العالم الجديد؛ وقد يقال ان هذا كان يكفي البابوية بدل أن تعنى بالمسيحيين المشارقة. لكن المهم هو أن البابوية كانت تقول دوماً إن هؤلاء المسيحيين - في الشرق - هم خوارج بالنسبة لها. ولذلك فاستعادتهم واجب عليها. ولعل بعض الدعاة كانوا يرون أن استعادة هؤلاء الخوارج قد تؤدي الى تقوية الوجود البابوي الكاثوليكي في العالم الجديد...

ولعل هناك من يعترض على هذا بالقول بأن هؤلاء المسيحيين الجدد لم يكونوا يعرفون شيئاً عن المسيحيين الشرقيين، لذلك لم يدركوا أهمية هذا الموضوع. لكن الذي نعرفه من بعض التقارير التي وضعها اليسوعيون وغيرهم، هو أن هذه المعرفة نقلها الدعاة والمبشرون أنفسهم، إذ إنهم أرادوا أن يظهروا عناية البابا بالمسيحيين جميعهم - المؤمنين والهراطقة والخوارج.

إذاً، فلتُفَتت الجماعات الأرثوذكسية في الداخل. ونحن نرى أن المجمع المسكوني العشرين (وهو المعروف أيضاً باسم مجمع الفاتيكان الأول) الذي عقد في عاصمة البابوية (١٨٦٩ - ١٨٧٠م) اتخذ قراراً مهماً بالنسبة الى العمل التبشيري الكاثوليكي، إذ إنه أكد دون قيد أو شرط عصمة البابا؛ ونرى أن هذا القرار اتخذ يومها لتقوية يد البابا وأعوانه في سبيل دعوة الخوارج والهراطقة الى العودة الى الصرح الذي لا يمكن للجالس فيه أن يرتكب خطأً عقائدياً (على الأقل). ومعنى هذا أن كل ما يمكن أن يعتقد به غير ذلك فهو رجس من عمل الشيطان.

ومن المصادفات الغريبة ان يتخذ هذا القرار في أعقاب حرب القرم (١٨٥٣-١٨٥٦م) التي وقعت بين روسيا في جهة وفرنسة وبريطانية وتركية وسردينيا في الجهة الأخرى. السبب الأصلي لهذه الحرب توسع روسيا في البلقان وتمسكها في حماية بعض الأماكن المقدسة في فلسطين، دفاعاً عن الأرثوذكس. ومن هنا فقد كان من الطبيعي وقف التقدم الروسي الأرثوذكسي قبل أن يستفحل نفوذه في المناطق التي تكون فيها طوائف أرثوذكسية كبيرة، وعندها يصعب العمل التبشيري. وجاء القرار بالعصمة البابوية ليقوي نفوذ المبشرين.

ولنذكر أن لجنة نشر الإيمان درست دراسة دقيقة في سنة ١٨٨٥م مشروعاً أساسه البحث عن أفضل السبل التي يمكن أن تؤدي الى عودة الروم المنشقين الى الكنيسة الكاثوليكية.

ويجدر بنا أن نتساءل هنا عن العلاقة الواقعية بين المسيحية في الغرب والمسيحية المشرقية! لنبدأ أصلاً في العقيدة. أليس هناك خلاف؟ أو ليس هذا الخلاف كبيراً؟ ألا ترى، أيها القارئ أن هناك فضلاً عن ذلك، خلافاً في الطقوس الكنسية وأن هذا الفرق ليس أمراً ظاهرياً. إنه نابع من هذه الخلفيات الحضارية التي

عرفتها هذه المنطقة خلال ستة آلاف سنة، والتي أسهم فيها كل مجتمع - بقطع النظر عن دينه - بجزء - كبير أو صغير - حيث إنها مزيج من العمل المشترك المستمر؟

المسيحية المشرقية هي جزء من أحدث حضارة قامت في المنطقة - الحضارة العربية الاسلامية، التي كان الإسلام يحميها، والعربية وسيلة التعبير عنها. وكان الجميع، مسلمين ومسيحيين وصابئة وغير ذلك يضعون لبناتها.

ومن هنا فإن كل مسيحي - بدءاً مني وانتهاء بأي رجل دين - هو جزء من هذا المجتمع، له ما له وعليه ما عليه. وقد آن للجميع أن يخففوا - إن لم يستطيعوا القضاء عليها -من أي نظرة أخرى.

وها أنا أسمح لنفسي أن أنقل هنا صفحتين أو أكثر من كتابي الجديد: أيامي - سيرة ذاتية الذي صدر سنة (١٩٩٢م) - الجزء الأول ص ٢٩٢- ٢٩٤ آملاً أن يكون في هذا الذي أضعه أمام القارئ تفسيراً للموقف المسيحي العام (فرداً وجماعة).

هذا الشخص الذي وجد نفسه في لندن في خريف سنة ١٩٣٥م والذي رسم لنفسه أن يكتشف هذه المدينة وما قد يتبعها من مدن وبلاد، ماذا كانت معطياته وأدواته المعنوية والمادية؟

لأعد الى ذلك الوقت، محاولاً، بقدر الامكان، أن أرسم لنفسي صورة مستمدة، بطبيعة الحال، من مقومات شخصيتي التي كانت قد تمت ونمت الى ذلك الوقت؛ على أنني أنوي أن أضيف اليها بضعة أمور كانت قائمة في نفسي لم تبرزها أجواء عكا، إلا أن أجواء لندن فرضت خروجها الى الضوء. لم تكن هذه الأمور جديدة. هي موجودة، لكن لندن ضغطت عليها فأخرجتها من مكمنها، حيث أصبح لها دور في تحديد بعض طرق الاكتشاف هذه.

أنا مسيحي أرثوذكسي عربي؛ وليس لورود هذه الكلمات على هذا النحو أي دلالة خاصة: إذ إن المهم هو المحتوى في مجمله، وخير تصور للإطار الصالح لفهم محتوى هذه الكلمات من حيث «كليته» هو اعتبار الألفاظ الثلاثة خطوطاً تكوّن أضلاعاً لمثلث، وأكون أنا المساحة التي يحيط بها المثلث، دون الالتفات الى أي حجم للرقعة أو طول للأضلاع.

ومن هنا فقد لا أتقبل كل مقولة للكنيسة المسيحية، وقد لا أرفض أموراً بعينها رفضاً تاماً، لكنني أظل مسيحياً في إطار الإيمان العام. ولست أدري لو أنني تقدمت - يومها، أي سنة (١٩٣٥م) أو اليوم أي سنة (١٩٨٩م) الى السلطات الكنسية لأجيب إجابة دقيقة عن بعض الأسئلة التي توجه إلي، فيما اذا كنت أنجو من شيء اسمه الحرمان (ولو أن كنيستنا لا تمارسه الى الحد الواجب عليها). ومع ذلك فأنا مطمئن الى أن إيماني ينفذ الى أبعد من أية سلطة كنسية، وانه اذا بلغ مصدر الايمان الكلي

يظل مقبولاً هناك، لأن هذا المصدر بالذات أوسع أفقاً وأبعد نظرة وأنفذ بصيرة من كل ما حدده به البشر على اختلاف نحلهم ومللهم وأيديولوجياتهم ومذاهبهم.

وأنا أرثوذكسي، بمعنى أنني أتبع هذه الكنيسة الشرقية الأصيلة المعتبرة أم الكنائس بسبب أنني ولدت فيها. هذا لا يمنعني من التعبد في أي من الكنائس التي أدخلها؛ وقد تعبدت - بمعنى أنني اتصلت بمصدر الإيمان مباشرة - في أماكن غير الكنائس. فأرثوذكسيتي، من حيث إنها ضلع من هذا المثلث، تمثل الناحية الاجتماعية من تصرفي في الإطار الكنسي أو الديني.

وأنا المسيحي الأرثوذكسي ماذا كان موقفي من المسيحيين من أتباع الكنائس الأخرى؟ في المجتمعات التي عشتها في فلسطين كان هناك من الكنائس التي اتصلت بها، مجاورة ومعايشة ومصادقة، كنيسة الروم الكاثوليك أو على الأصح جماعة من أبناء هذه الطائفة، وكان هناك جماعة من أتباع الكنيسة الأسقفية (البروتستانتية) ومن الكنيسة اللاتينية. ولم أكن أشعر أنا بفرق أو خلاف بيني وبينهم، لأنني أنا لم أهتم بنواحي الخلاف بين كنيستي وبين الكنائس الأخرى. أما ماذا كان شعورهم نحوي؟ أو نحو كنيستي، فليس لي أن أعرف أو أعمم. لكنني أستطيع أن أروي قصة حدثت لي مع القس أسعد منصور، راعي كنيسة الناصرة الأسقفية. جدي لأمي اختلف في وقت من الأوقات مع المطران الأرثوذكسي (أو لعله اختلف مع وكيل المطران) في الناصرة. ولست أدري سبب الخلاف أو نوعه؛ فما كان منه إلا أن (التحق) بالكنيسة الأسقفية لإغاظة خصمه الديني، وأخذ يتردد على الكنيسة للصلاة. في الصيف الذي تخرجت فيه من دار المعلمين (١٩٢٤م)، وكنت أقضيه في الناصرة. ذهب جدي لزيارة القس أسعد منصور، واصطحبني. وأنا لم يكن لدي ما يمنعني من مثل هذه الزيارة. في أثناء الحديث قال القس أسعد، موجهاً كلامه الى جدي، لكن كان يريدني أن أسمع كل كلمة: «الآن نقولا ضمن مستقبله في الحياة. بقي عليه أن يختار الطريق الروحي الصحيح!». ولم تفتني، بالطبع، ملاحظة القس. فأجبته: «لكنني يا حضرة القس طريقي الروحي معروف خلال كنيستي الأرثوذكسية». وابتسم القس ولم يعلق. ولعله خطر له أن الوقت سيحين. وقد حان الوقت إذ عاد جدي الى كنيسته الأرثوذكسية؛ فتزوج للمرة الثانية في حضن الكنيسة الأصلية، ولما توفي بعد ذلك بنحو عشرين سنة جُنِّز ودفن أرثوذكسياً.

وإذن فالضلعان اللذان ذكرت كانا يزودانني بالايمان المسيحي ضمن أبعاد أرثوذكسية، على شيء كثير من التوسع في هذه الأبعاد تحرراً من القيود. أما الضلع الثالث، أي إنني عربي، فقد كان أهم من مجرد ضلع. ولعلي أحسن تعبيراً إذا أنا اعتبرته قاعدة المثلث. عندئذ أستطيع أن اعتمد عليه في توضيح أمور كثيرة ونترك

جانباً قضية القومية العربية ومفاعلاتها، والوحدة العربية ومتناقضاتها التي كنا ندور في جوها في العشرينات والثلاثينات؛ ولنعد الى ناحية الشعور العفوي المنبثق من داخل نفوسنا والمتمثل، بشكل خاص، بلغتنا. هذا هو الشعور العربي الذي كانت جذوره، فيما أشعر، مرتبطة بالأرض التي أحيا فوقها، والتي كانت حباله تشدني الى أولئك الذين أعيش بينهم؛ ولم يساورني قط شك في هذا الانتماء، بل الذي أستطيع أن أسميه ولاء دون قيد أو شرط.

فأنا العربي المسيحي الأرثوذكسي عربي في ثقافتي - البسيط منها والمعقد، الحديث منها والقديم - عربي في نظرتي الى الأمور، أي إنني أراها من منظار عربي أداته وآلته هي اللغة العربية. ومن هنا كنت أشعر ببعض الفرق بيني أنا المسيحي العربي وبين المسيحي الأوروبي. هذا بقطع النظر عن أي نقاش حول شؤون الدين أو حتى التحدث عن القضايا الدينية حديثاً عادياً. كان الفاصل بيني وبينه أولاً وقبل كل شيء اللغة. فهو يتكلم الإنكليزية أو الألمانية أو الفرنسية أو غيرها واذاً فهو مختلف عني. في كنيسة القديس بولس الأسقفية في القدس، وفي الكنيسة المماثلة لها في عكا كانت الرسائل تقرأ بالعربية وكان الإنجيل يتلى بالعربية، وكانت الترانيم عربية كما كانت العظة، بالعربية. فهي، بقطع النظر عن أي فرق في التفسير اللاهوتي بيني وبين أتباع تلك الكنيسة، كانت اللغة العربية تجمع وتربط وتوثق الصلات. وفي كنيسة القديس جورج الأسقفية (في القدس) كانت هذه الأمور جميعها - القراءات والعظة والترانيم - تتم باللغة الانكليزية. كانت المعاني واضحة وكانت العظة، في أحيان كثيرة، خيراً من بعض العظات بالعربية، لكن يظل هناك فاصل.

هذا النوع من الشعور كان واحداً من العوامل التي أثرت في السبل التي سلكتها في اكتشافي للمجتمع الجديد الذي وجدتني فيه في خريف سنة ١٩٣٥م وما تلا ذلك. أنا لم أخلق هذا الجو؛ ولا أوجده الآخرون. لكنه وجد وبشيء من الطبيعيّة، وشعرت بوجوده لما قيل لنا إننا نعيش في جو مسيحي. صحيح، لكن الذين حولي لم يكونوا مسيحيين عرباً. ولم يقم هذا حاجزاً بيني وبين الناس الذين أردت أن أتعلم منهم مكتشفاً نواحي الحياة عندهم؛ لكن كنت، مع ذلك، أشعر بوجود هذا الفارق. والواقع أن هذا الفارق قوى شعوري الأصلي الذي كنت أقول به دوماً، والذي ما فتئت أقول به منذ ذلك اليوم وبشكل أقوى، وهو أن المسيحية العربية - مسيحية العرب - بصرف النظر عن المذهب أو المكان والزمان، هي مسيحية لها صورتها وطعمها ونكهتها ومقوماتها الخاصة، وهي، بشكل عام، تختلف عن المسيحية الغربية، حتى ولو كانت الجماعة هنا (أي في دنيا العرب) من المذهب نفسه المنتشر في الغرب.

وما أكثر ما تذكرت، وأنا أدير هذا الأمر - أي قضية المسيحية العربية - على

وجوهه قصة رواها لي المرحوم محمود العابدي، صديق العمر من أيام دار المعلمين (١٩٢٢-١٩٢٤م).

في العشرينيات قامت في فلسطين حركة أرثوذكسية عربية كانت تؤيد اختراق جدر «أخوة القبر المقدس» بوجوب تعيين مطران عربي لمدينة الناصرة، بدل كليوبا الذي توفي في ذلك الوقت. وتقوت الحركة بسبب التشجيع العام الذي نالته. وأسست لجان وجمعيات أرثوذكسية (عربية) في أنحاء فلسطين، لبثّ الفكرة وتوضيحها. وأخيراً انتخبت لجنة عليا في القدس. وهنا تبدأ قصة محمود العابدي.

بما أن شرقي الأردن (كما كان يعرف يومها) تابع للبطريركية الأورشليمية (المقدسية) فقد رؤي أنه من الضروري أن يزور وفد من اللجنة العليا لإطلاع الجماعة الأرثوذكسية في الأردن على الوضع والحركة والمخطط. واختير الوفد واتجه نحو الكرك، فقد كانت يومها من مراكز القوى الكبرى.

كان الوقت أيام الربيع وكان أهل الكرك مربعين، أي إنهم كانوا يتركون المدينة وينصبون خيمهم في البر الواسع. فلما وصل الوفد الفلسطيني الى المربع أرشد الى الخيمة الكبيرة ذات الأعمدة الثلاثة. فاستقبل بما يليق بضيوف. ومن عادة البدو أن لا يسألوا الضيف عن حاجته أو سبب مجيئه، ولا يجوز للضيف أن يذكر غايته قبل أن يتناول أول وقعة طعام على الأقل. ونحرت الذبائح، وأعد الطعام، وتناول الضيوف منه شبعهم، ودار الحديث؛ فتولى كبير الوفد الفلسطيني شرح القضية الارثوذكسية الوطنية من أولها حتى يومها، وطلب من الجماعة العون والمساهمة بكل وسيلة. ولم يقاطع الرجل وهو يتكلم.

بعد ساعة من الحديث قال المضيف: «أهلاً بكم وسهلاً. لكن أنتم نزلتم عند الجماعة الأخرى (أي المسلمة). فأولاد عمنا النصارى نصبوا خيامهم في الجهة الثانية. لكن أنتم الليلة ضيوفنا، والصباح رباح».

أضاف محمود العابدي أنه كان مع الوفد الفلسطيني شاب حديث العهد بالعمل السياسي، فالتفت الى جاره، وهو ابن المضيف، وسأله: «ما الفرق بينكم وبينهم؟».

فكان جواب الشاب: «والله ما ندري. لكن أولاد عمنا يصلّون في الكنيسة، ونحن نصلّي في الجامع!».

الخاتمة

في الصفحات التي دوّنا أشرعنا أبوابنا وفتحنا نوافذنا للتاريخ ننتزع منه من الحقائق والأحداث، الأساسي والرئيسي. فنحن لو أننا جارينا ما حمل لنا عبر الأبواب والنوافذ لاضطررنا الى السير قدماً في الكتابة حيث أننا نحتاج الى الوقت الطويل والورق الكثير. لكننا اعتزمنا أصلاً أن نجتزىء بالقليل كي يقرأ، ونكتفي باليسير كي لا نلعن. وأحسب أنني وضعت أمام القراء صورة واضحة المعالم بيّنة الخطوط، أساسها أن المسيحية، وهي بذرة واحدة أصلاً، انتشرت في رقعة واسعة، كانت لأجزائها الكثيرة خلفيات حضارية - إثنية ثقافية لغوية تنظيمية - متباينة. فكان أن نمت شجيرات صغيرة اختلفت الواحدة عن الأخرى اختلافاً قد يكون يسيراً، وقد يصل الى أكثر من ذلك. وهذه الشجيرات أصبحت، مع الزمن، اشجاراً عاتية وظلت لها صفاتها المميزة واستمرت واحدتها تختلف عن الأخرى. ولم يكن هناك انشقاق شجرة عن شجرة ولا تفرع خروجي في أي من الحالات.

لكن الطبيعة البشرية التي لا تسمح دوماً لوجهات النظر المتباينة أن تسير في طريقها الطبيعي، والتي ترى فئات معينة فيها أن من واجبها رد الجماعة الى نفسها، باعتبارها هي التي تسير في الطريق الصحيح وأن غيرها مخطئ. هذه الفئات تبدأ باتهام الجماعات الأخرى بالخروج عن الطريق السوي والهرطقة في العقيدة وإفساد الناس. وهذا الضلال الذي تتهم به هو الذي يجب أن يقضى عليه.

لجأت الفئات المسيحية والمنظمات الأسقفية والبطريركية الى عقد مجامع مسكونية (أو اقليمية) لرأب الصدع. ولكن الخلاف كان يظل خلافاً، بل قد يزداد الفتق اتساعاً، على نحو ما رأينا في الخلاف حول طبيعة المسيح أو طبيعتيه.

وقد تتدخل السلطات لنصرة رأي دون الآخر أو جماعة دون الأخرى. فتسوء العقبى اذ قد يكون نتيجة مثل هذا الموقف قيام اضطهاد رسمي ضد الفريق الآخر. وكم حدث هذا.

والذي حدث دوماً هو الزيادة في تعدد الشجرات واختلاف أنواعها. ولو ان الأمر ترك للفئات تقبل ما تقتنع به وتجادل مع الفئات الأخرى، لعل الأمر كان يختلف. لكن هذا الإصرار على أن الغير مخطىء والغير هرطوقي والغير خارجي، هو الذي أدى الى

التصادم بين الجماعات المسيحية المختلفة في المشرق.

ولم يقتصر هذا الموقف المسمى بالصحيح على المشارقة أو الكنائس الشرقية فيما بينها، بل انتقل الى الغرب الذي أصبح رئيسه المسيحي الأعلى يعتبر نفسه مسؤولاً عن نفس كل مسيحي في العالم وروحه، واذاً فواجبه الديني - عقائدياً وسلوكياً وطقسياً - وواجبه الأدبي الأبوي (المدعى)، كل ذلك يحتم عليه ان يبذل كل ما في وسعه لإنقاذ النفوس الضالة والأرواح الخاطئة وإعادتها الى حظيرة الايمان رحمة بها وشفقة عليها. وبلغ الحماس به، وقد تذرع بالعصمة، أن يوجد الدول والحملات والمنظمات الملكية كي تسانده في مساعيه الحميدة.

أثمرت جهوده وجهود الأعوان، على اختلاف توجهاتهم وتوجيهاتهم، الى نقل فئات من الطوائف الأرثوذكسية فكانت هناك طوائف: الروم الكاثوليك والأرمن الكاثوليك والاقباط الكاثوليك والسريان الكاثوليك والكلدان. وأنا شخصياً أرى أن كل امرئ حر في اختيار المذهب الذي يريده، لكن أن يقال عن هذه الجماعات إنها كانت منشقة عن البابوية وإنها كانت تسير في طرق الضلال ومن ثم فإنها عادت الى الأصل واهتدت (ومعنى هذا أن الباقين ما يزالون في ضلالهم يعمهون) فهذا أمر خاطىء أصلاً. وهو أمر خاطىء في أي دين وفي أي بلد.

إن نقولا زيادة المسيحي الأرثوذكسي العربي يسير على هدى قديم مثله في ذلك مثل جريس وطنوس وشنودة. فكل من هؤلاء أصيل في جماعته وطائفته. ولم تنشق طائفة عن طائفة ولا خرجت جماعة عن جماعة. وإذن فكلمات الانشقاق والهرطقة والخروج يجب أن تحذف من القاموس المسيحي. وأن يصرف الجهد لا في توجيه اللوم الى الآخرين، بل الى توضيح الأمر داخلياً كي تصفى النفوس.

وهذا هو أمر مهم في رأيي. ويجب أن يبدأ أولاً عند الجماعات الأوسع انتشاراً في العالم المسيحي. آن الأوان لأن تنصرف [لجنة نشر الايمان] الى توضيح العقيدة الكاثوليكية كما هي، من دون أن يكون عملها الرئيسي السطو على الطوائف الأخرى الموجودة في المشرق. ومثل ذلك يمكن ان يقال عن المبشرين الانجيليين أينما كانوا - أقصد في بلادنا. أرى أنه يجب ان يتوقفوا عن محاولة «نتش» فتى و«لمّ» فتاة هناك. والجميع يدعون أنهم يفعلون ذلك حباً بليلى، وليلى لا تقر لهم بذاكا.

والمسيحي الذي يعيش في العالم العربي اليوم - ما هو موقفه الشخصي ومن ثم الرسمي؟

مر بالمسيحيين أدوار تاريخية كانوا يعاملون أهل ذمة، أي انهم لم يكونوا يعتبرون مواطنين مثل البقية. وهذا الوضع مر بأدوار مختلفة؛ فمن الجوالي (ايام المماليك) الى الملل (ايام العثمانيين) الى الطائفة. وليسمح لي هنا بالقول ان الطائفية في العالم

العربي الحديث لا تقتصر على المسيحيين، فهناك طائفية في نواح أخرى كثيرة.

هذه الطائفيـة هي نتيجة تجارب طويلة انتهت الى هذا النوع من التنظيم لحماية النفس من جهة، وللمحافظة على مكاسب عند طوائف هي أكثرية.

فالمسيـحي يرى انه يعيش في عالـم تبدل وتطور. ومن حقه ان يكون مواطناً في دولة إسلامية، ولا أن يكون مواطناً من درجة ثانية (كما لو كان عربياً في إسرائيل).

ونحن لا ننكر أن التجارب السياسـية المتنوعة التي تعرض لها المسيحيون في شرقنا العربي من أيام الحروب الصليبية الى اليوم عبر ما تقوم به الدول والمنظمات الغربيـة قد حملت بعضهم على أن يخطئوا سواء السبيل. ولكن مثل هذا الخطأ لم يقتصر على المسيحيين وحدهم. إن مراجعة دقيقة لتاريخ الوطن العربي منذ القرن السابع عشر تظهر صدق ما ذهبت اليه.

لذلك ليس من العدل في شيء أن يلام الجـميع بسـبب أغـلاط فـردية أو أخطاء لفئات صغيرة، وقد لا يكون هؤلاء الأفراد أو تلك الفئات وحدها مسؤولة عنها، بل لعلّ الجو كله كان يدفع الناس الى مثل هذا التصرف.

كان المسيحيون العرب بين طليعة من دعا الى القومية العربية. ولم تقتصر الدعوة على المسيحيين العرب، بل دعا اليها مفكرون مسلمون، ولست أحسب أن ساطع الحصري مثلاً كان مسيحياً. والدعوة، في مجملها، وعندما تدرس دراسة دقيقة في الكتب والمقالات الأولى التي تحدثت عنها ودعوت اليها وفسرتها وشرحتها بقدر الإمكان، كانت دعوة مخلصة صحيحة وكانت صرخة إيمان بحق العرب. فلماذا كلما «دق الكوز بالجرة» (كما يقول المثل العامي الشامي) نُظِرَ الى دعاة القومية العربية من المسيحيين نظرة مواربة، واتهموا بأنهم قصدوا هدم الإسلام والقضاء على الدولة الإسلامية (العثمانية)؛ وهذه قصة تعود الى الظهور بين حين وآخر. والغريب أنها مرتبطة الى درجة كبيرة بالأصولية، أو ما يسمى كذلك.

أنا وجريس وطنوس وشنودة ورثة حضارة واحدة عربية اسلامية. عملنا في وقت من الأوقات في بناء صرحها. ونحن أبناء أرض نمت هذه الحضارة فيها. ونحن عرب بقدر ما هو كل مقيم في أرض العرب عربي. وأنا لا أريد أن أذكر دور المفكرين العرب المحدثين في الكشف عن التراث الاسلامي العربي الضخم، فهذا أمر يجب أن يكف عنه لأننا إنما نحن نقوم بذلك كشفاً عن تراثنا - نعم هذه حضارتنا التي بدأ العمل فيها قبل نحو ستة آلاف سنة على أقل تعديل.

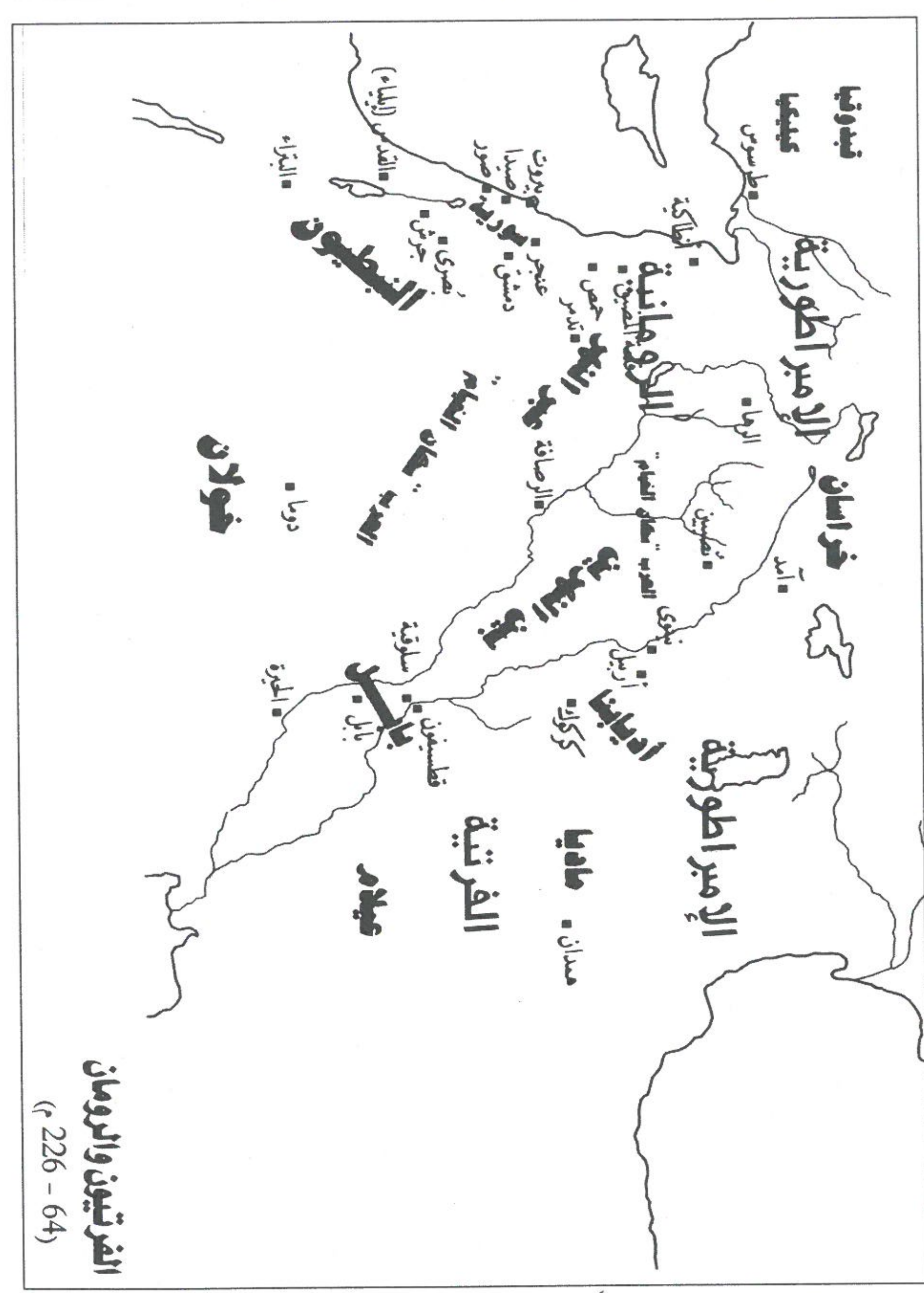
في سنة ١٩٣١م عقد في القدس مؤتمر تبشيري مسيحي لكنه كان إفرنجياً - وقد نال أحد الأعضاء من النبي محمد. فكتبت يومها (وكنت أعلّم في عكا) بضعة سطور في جريدة اليرموك (الحيفاوية) افتتحتها (وأنا أذكر ذلك تماماً) بالقول: «ليس

المسلمون بأحق بالعناية بمحمد منا، فقد كان محمد عربياً قبل أن يكون نبياً». وأنا أقول هذا الكلام نفسه بعد سبعة عقود من السنين ونيف. أقول هذا وأنا، مثل كثيرين غيري من المسيحيين، مخلص في ذلك. فلماذا يَشُك بي أي مسلم، مهما كانت طائفته؛

واذا كان المسيحي يريد ان يُنْصف (لا أن يصنَّف) وأن يُعترف له بحق المواطنة والعمل في سبيل البلد حضارياً (تاريخياً وعملياً) فالذي يجب أن يبدأ بذلك الجماعة التي تكوّن الأكثرية، والأكثرية الساحقة.

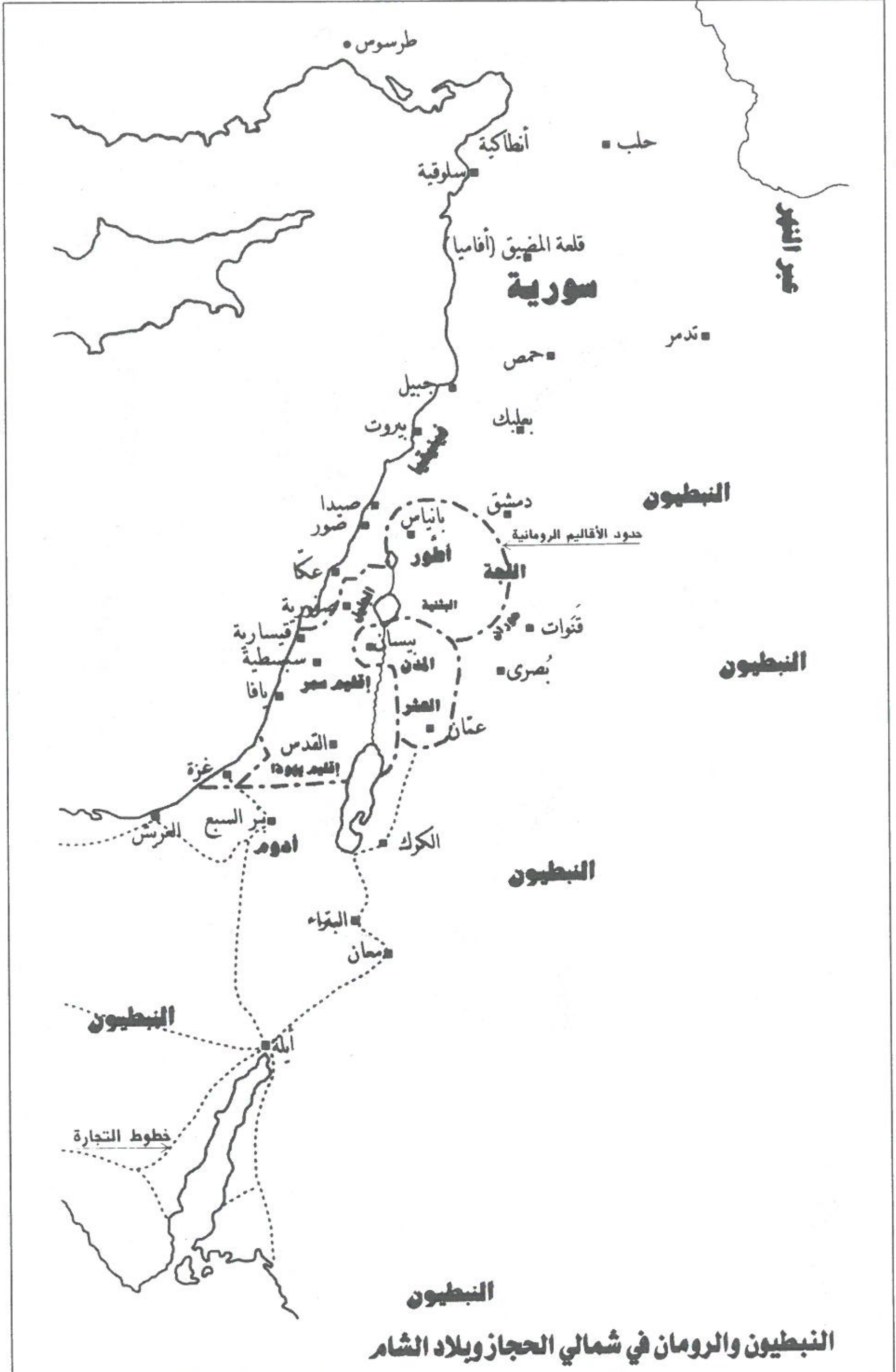
هذه هي نقطة الانطلاق!

ثبت الخرائط

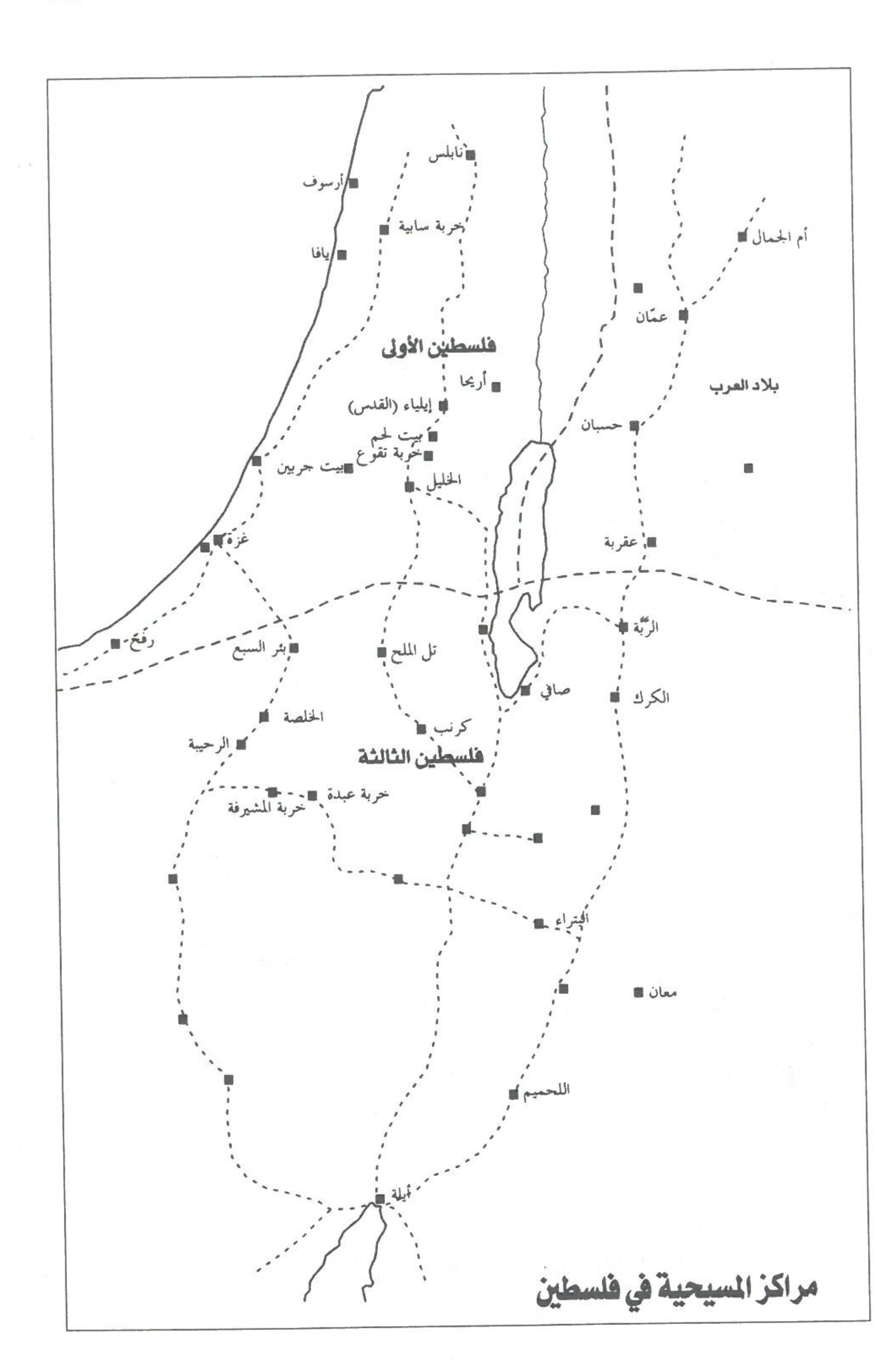


الخرائط كافة من رسم زياد منى اعتماداً على كتاب :

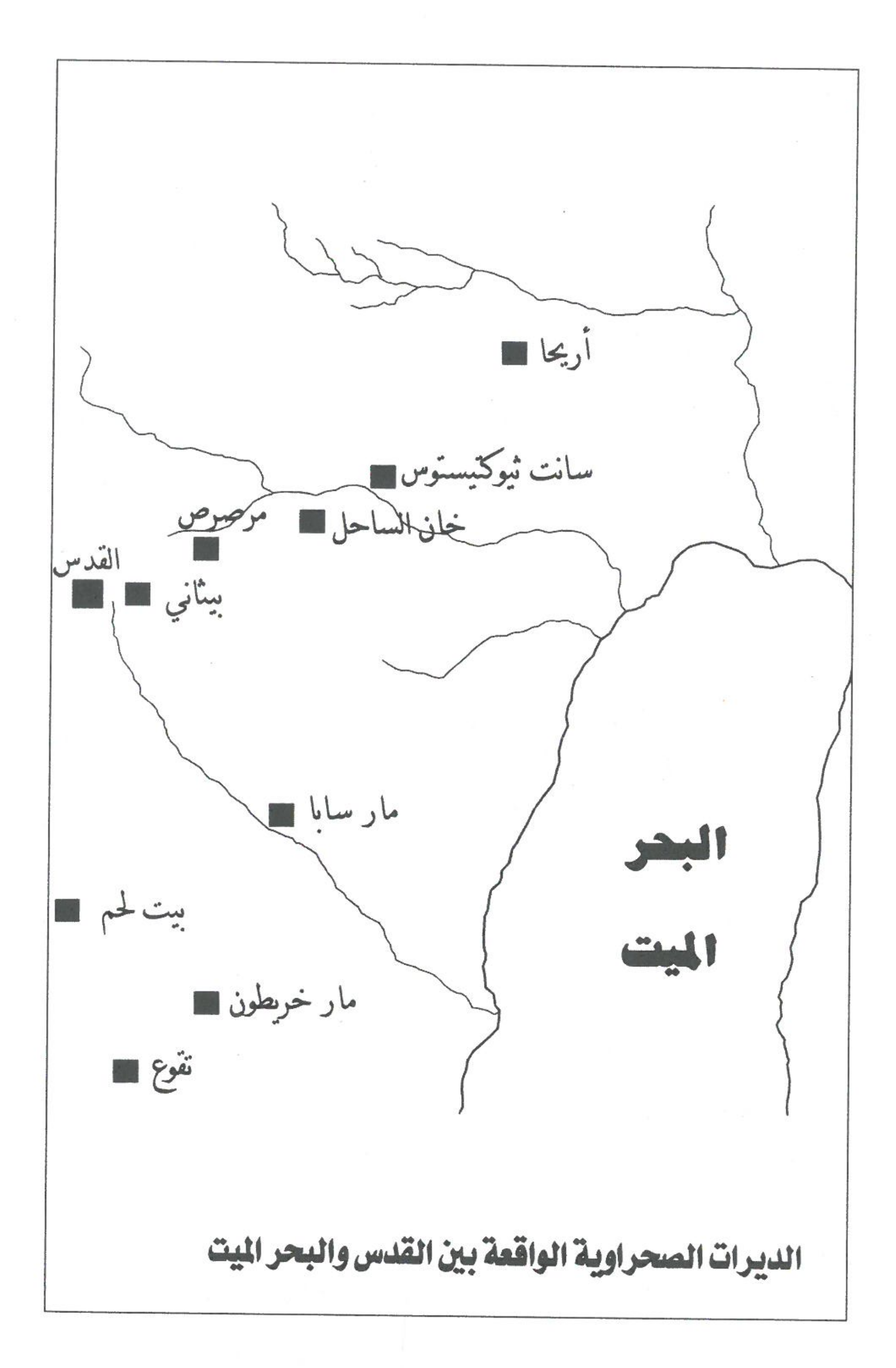
J. Spencer Triminghan, Christianity among The Arabs in Pre-Islamic Times (London 1979).



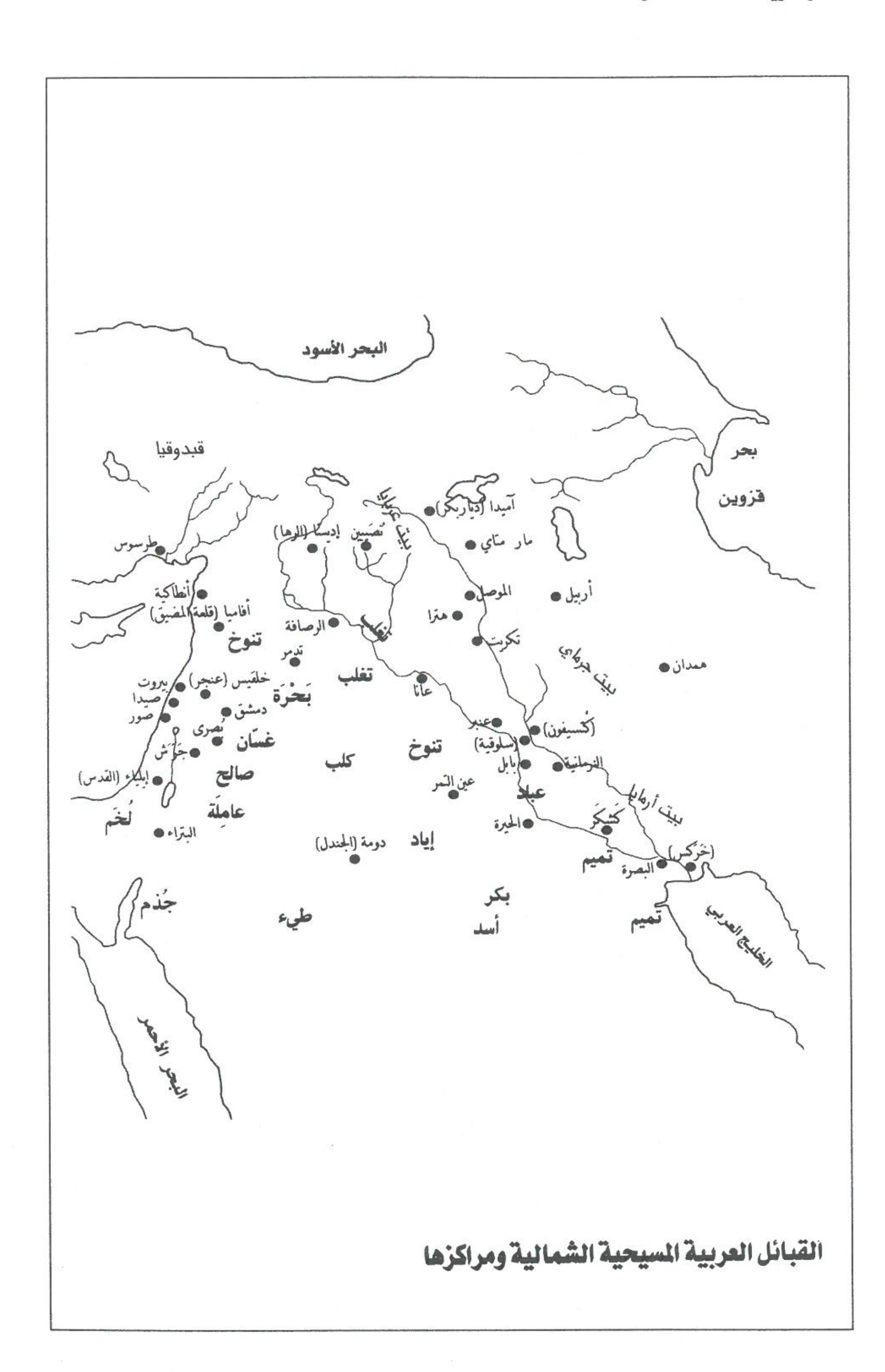
النبطيون والرومان في شمالي الحجاز وبلاد الشام



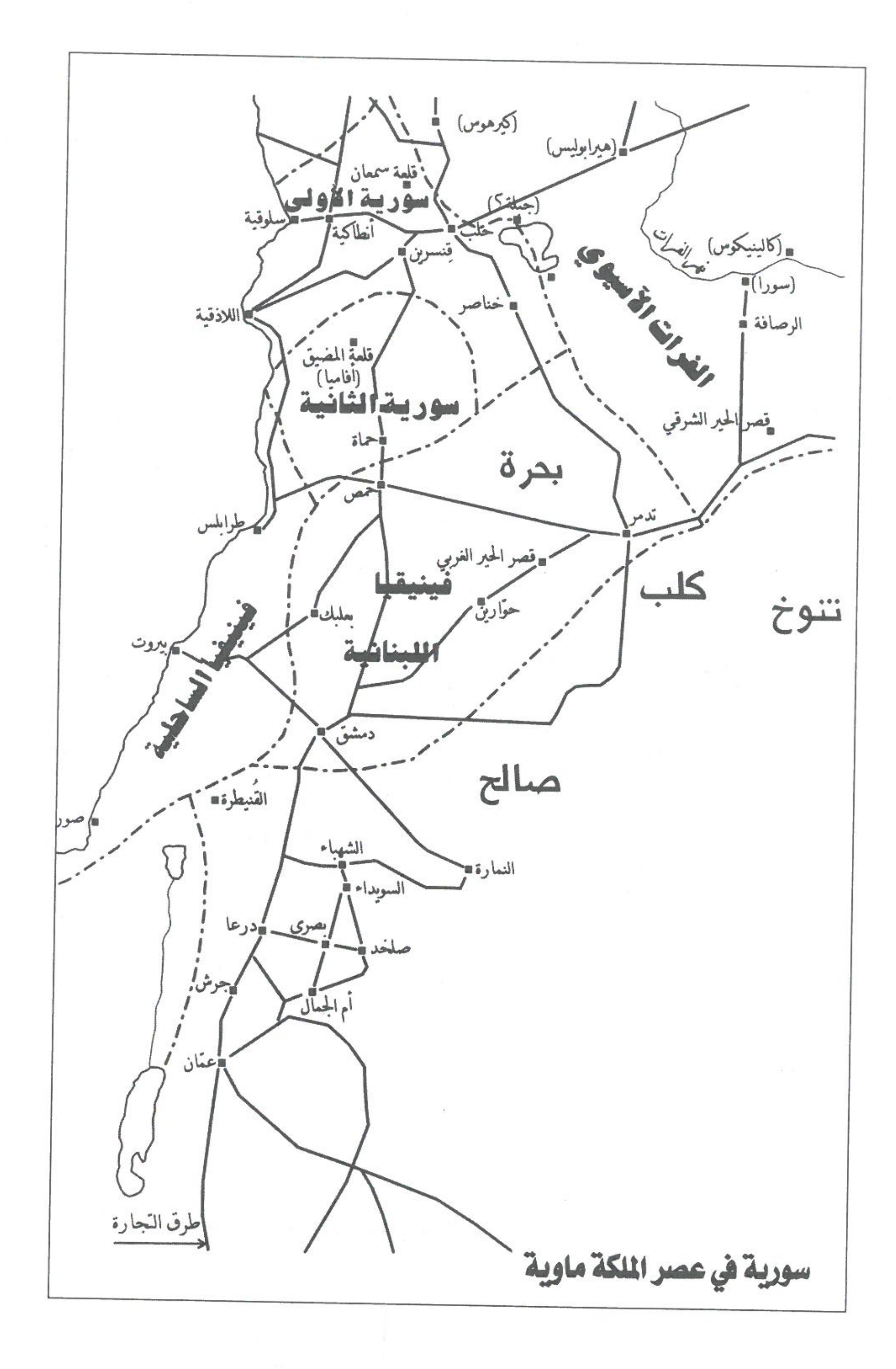
مراكز المسيحية في فلسطين



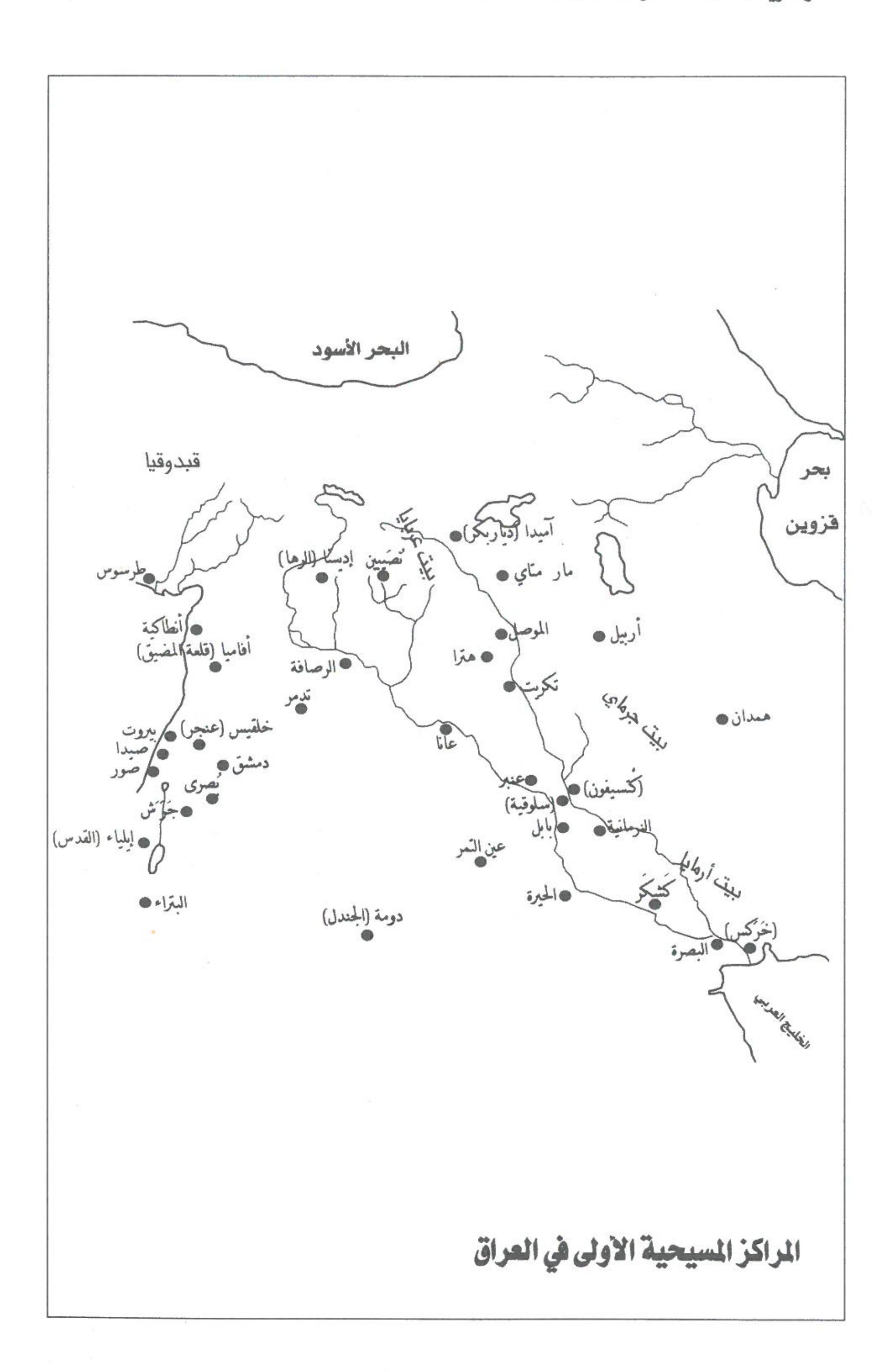
الديرات الصحراوية الواقعة بين القدس والبحر الميت



القبائل العربية المسيحية الشمالية ومراكزها



سورية في عصر الملكة ماوية



المراكز المسيحية الأولى في العراق

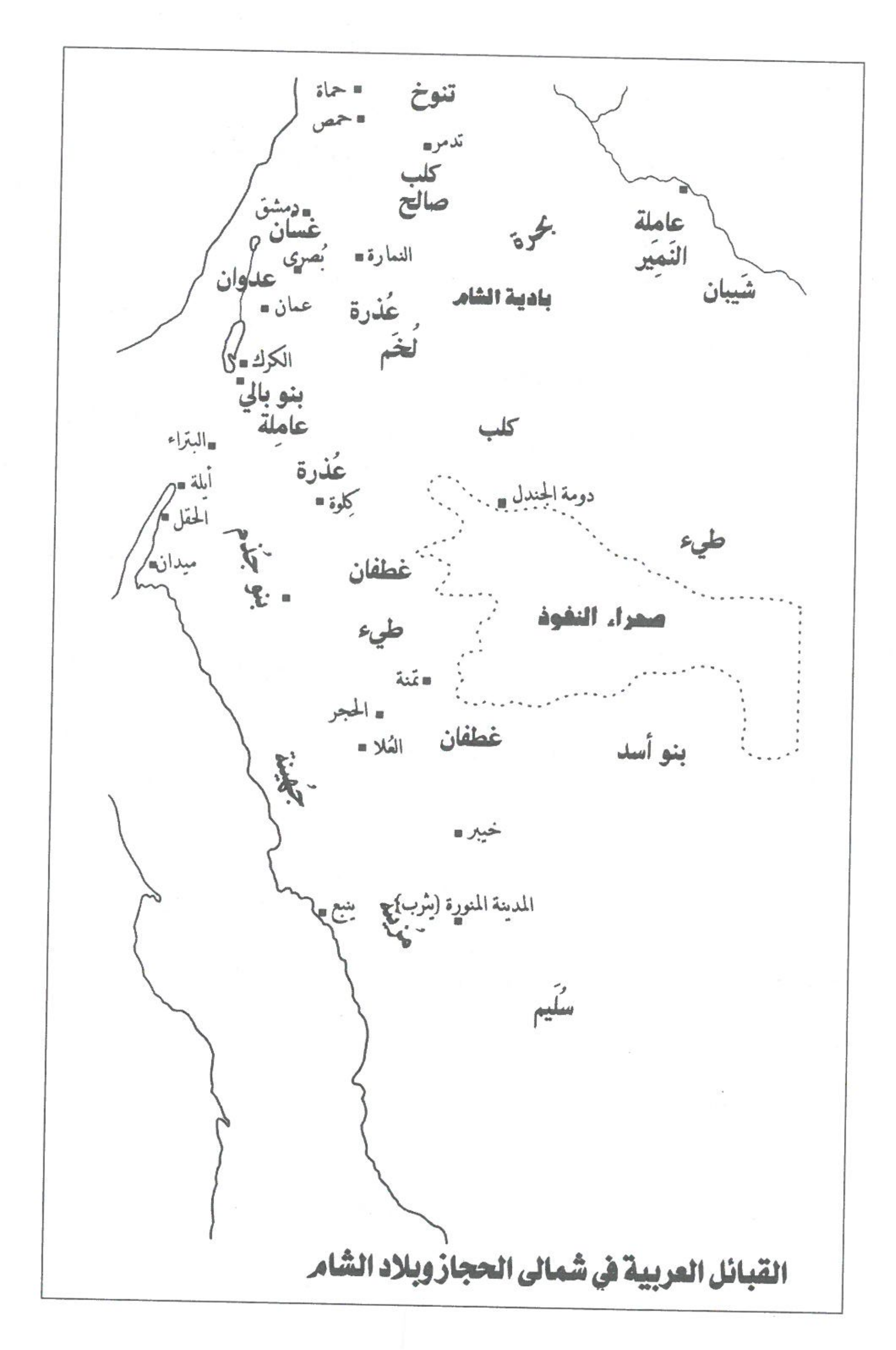


المسيحية في اليمن

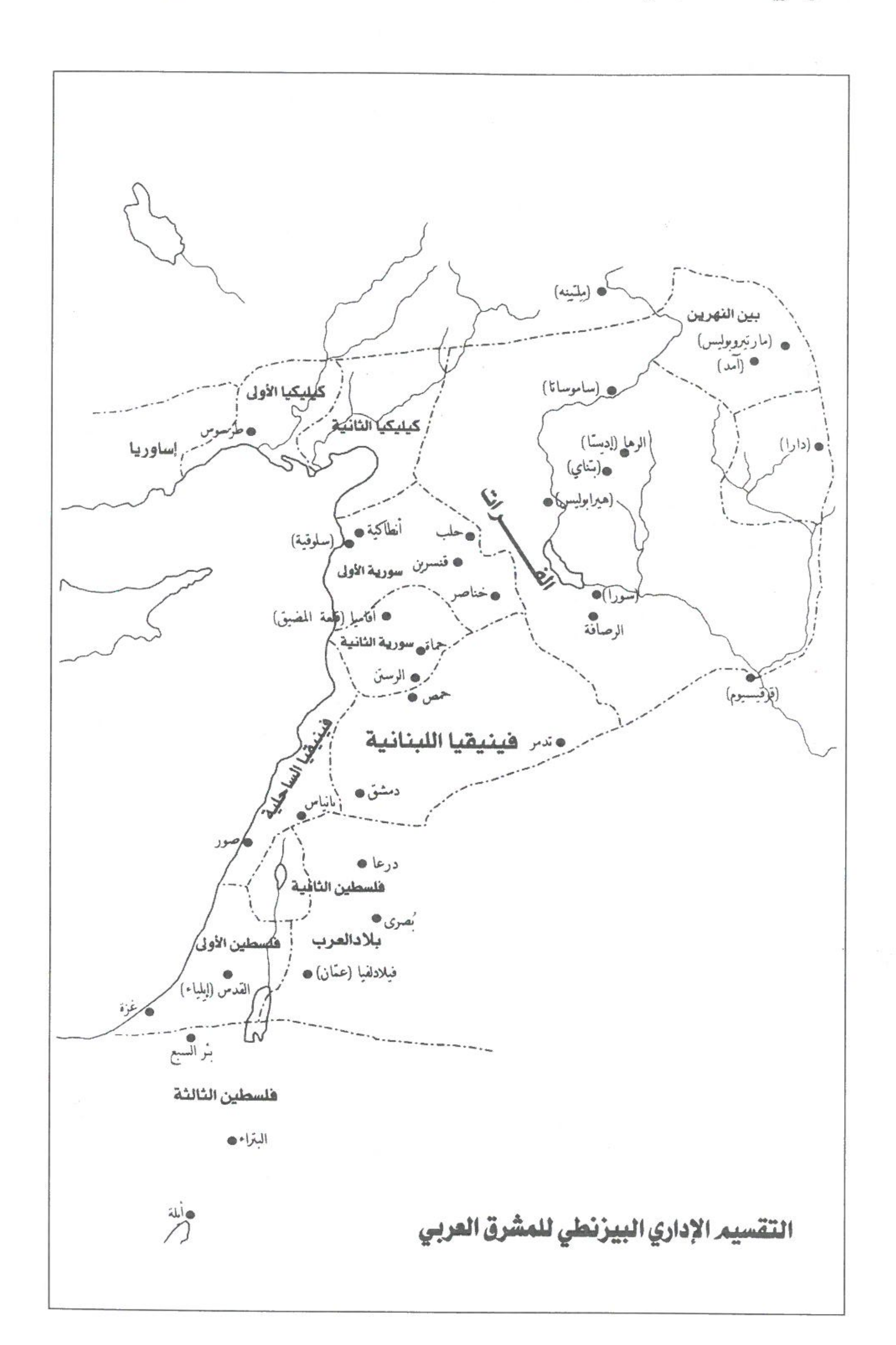


إقليم (بلاد العرب) الروماني

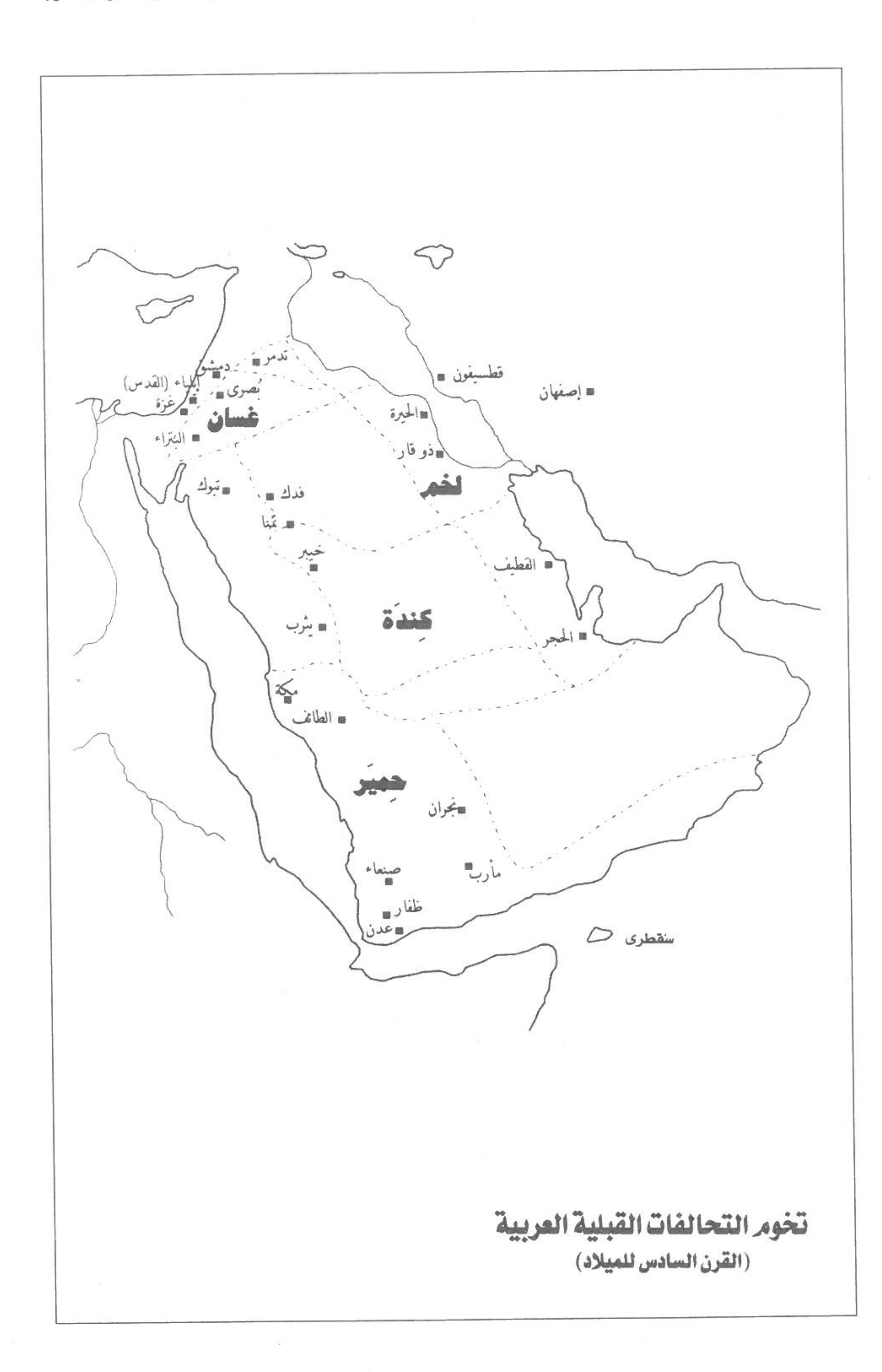
(القرن الخامس للميلاد)



القبائل العربية في شمالى الحجاز وبلاد الشام



التقسيم الإداري البيزنطي للمشرق العربي



تخوم التحالفات القبلية العربية
(القرن السادس للميلاد)

